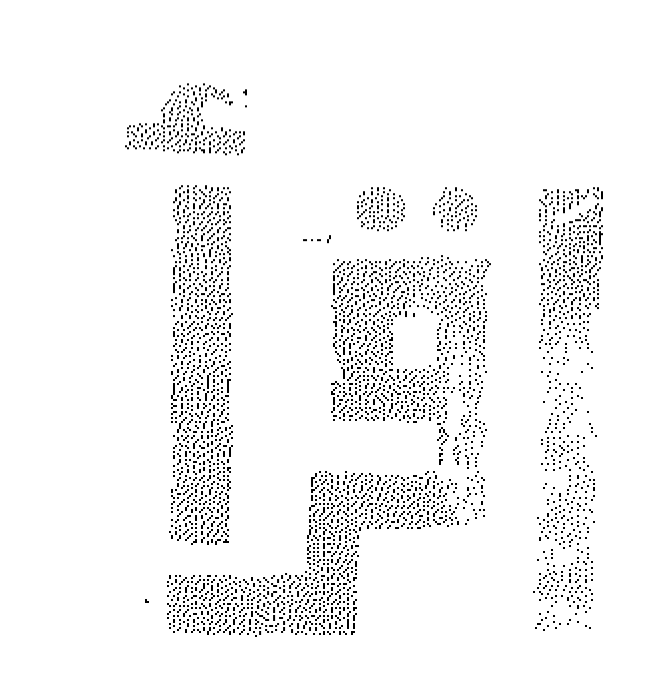


فتحي رضوان

الإسلام والإنسان المعاصر



تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا





فتحى رضوان

الإسلام والإنسان المعاصر

اقرأ ٤٠٦

دار المعارف بمصر

(اقرأ ٤٠٦)

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

مقدمة

الإسلام

إنسانى :

الأصل أن كل الشرائع إنسانية ، فما يضع مشرع قانوناً ، إلا وغايته أن يوفر للجماعة التى وضع لها هذا القانون ، الأمن والقوة والسعادة : فإن لم ينص القانون على ما يوفر هذه الغايات الكبرى . فالأمر لا يخرج عن حالين : إما أن يكون ذلك عن قصور واضع الشرع ، وعجزه عن تبين ما يحقق للناس السلام والرفاهية ، وإما كرهه لذلك ، ولكنه يضمره ويخفيه ، ويدعى معه أنه يسعى لما يسعد الناس . ويجهد فى فتح سبيل القوة والمنعة لهم ، وقد يجد من يروج له دعواه ، ثم يجد من يصدقها ، ومع مر الأيام ، تسوق له الظروف من يسبغ عليه — جهلا أو غرضاً — صفة المشرع الحكيم ، والحاكم الرفيق .

فالمشرعون جميعاً يبتغون أمن الناس ودعتهم حقاً ، أو ادعاء ، ولكن ليس فى واضعى القوانين ، من يقول إننى وضعت القوانين لأعذب عباد الله وأنزل عليهم لعنات الجوع والضعف ، وأنزع من قلوبهم الطمأنينة والسكينة.

فالشرائع كلها ، إنسانية حقاً ، أو منتسبة إلى الإنسانية ادعاء .

فإذا كان ذلك صحيحاً ، فما معنى قولنا إن الإسلام ، أو شرعه هو شرع إنسانى . إذ ما دام يتساوى مع غيره من الشرائع فى الصفة فليس ثمة مقتض للتنويه بها والوقوف عندها ..

على أن الأمر لا يزال محتاجاً لكلمات فى هذا المعنى .

فالإسلام هو الشريعة التي استأثر بها وبأحكامها الاهتمام بالإنسان، والاحتفال بشئونه، ورعاية كل ما يتصل به : مبدئه ونفسه وروحه، وعقله وعقيدته وفكرته، وعمله، وبدايته، ونهايته، وثوابه وعقابه، وتفرده، ووحدته، واندماجه وجماعته، وأبنائه وزوجته، وأمواله وثروته، وناره، وجنته، وضعفه وقوته، وفضائله ورذائله، ودعاويه، وأباطيله، والأمل فيه، واليأس منه، وأمور أخرى لا تعد ولا تحصى، تتصل بالإنسان قبل أن يخلق آدم، حتى آخر الزمان، هي مصدر كل، أحكام القرآن، بل كل الإسلام، بكتابه وسنته، وإجماعه وأقيسته، ووسائله كلها في التشريع والتقنين .. ولست تجد في الأديان، منزلة وغير منزلة، ولا في الكتب، إلهية أو بشرية، أو في المذاهب فلسفية أو دينية أو في المناهج قديمة أو حديثة، من جعل الإنسان أساساً ومصدراً ثم جعله وسيلة وغاية، ثم جعله مجالا للبحث، ثم جعله رائداً يبحث، وينقب . وينظر في نفسه، وفي الآفاق، وفيما حوله، وفيما سبقه، كما فعل القرآن الذي يصفه الرسول فيقول : هو نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم ».

وليس هذا سوى بيان لما يشمل القرآن .

وليس الاحتفال بالإنسان لمجرد تحري أموره، والإحاطة بشئونه، لا، فغير الإسلام : تحرى وأحاط أو سعى لذلك، أما القرآن فغايته من الشمول والتعمق، الحرص غاية الحرص، على كرامة الإنسان أولا وقبل كل شيء : كرامته طفلا وصبياً وشاباً، وشيخاً وهرماً . كرامته ذكراً، وأنثى، عبداً وحراً، حياً وميتاً، كرامته مؤمناً بالله، مطيعاً لأحكامه وكافراً مجدفاً، بل ثائراً متمرداً على حكومة المسلمين، فالكافر والمتمرد، ينالان جزاءهما بلا تمثيل بهما، ولا حقد عليهما .

« إياكم والمثلة » هي طاقة صغيرة من الطاقات التي نطل منها على الشرائع الإسلامية، فالرسول ينهى أتباعه عن أن يمثلوا بأعدائهم الذين

قتلوهم فى القتال ، فجثة الإنسان بعد موته كالإنسان نفسه فى حياته ، جديرة بالتكريم والإجلال .

وما دام الإنسان كريماً على القرآن وعلى الإسلام ، فالتشريع يجعله قبلة المشرع وهدفه ، فلا يضحى به حتى لنشر العقيدة ، ولو كانت عقيدة الإسلام ، ولا لصالح الدولة ولو كانت دولة المسلمين ، ولا لاستقرار الأسرة ولو كانت من فئة المؤمنين ، ولا لحماية الثروة ولو كانت ثروة أتباع محمد رسول الله .

بعض الشرائع يهمها أن يكون الإنسان قوياً ، وغنياً ، وصحيح البدن ، وسليم العقل . وترى أن سبيل ذلك هو إقامة دولة كبيرة ، عزيزة الجانب ولذلك فهى تقدم الدولة ، واعتبارات أمنها ، ومقتضيات قوتها ، على الإنسان وكرامته ، فتجعل من حق الدولة أن تمنعه عن الكلام ، وأن تقيد حركته ، وأن تجعل دوره فى الدنيا طاعة الدولة ، والإعجاب بها ، والفناء فيها وفى تأليهها وعبادتها .

وبعضها يرى أن النظام الاقتصادى فى المجتمع ، هو سبيل سعادة أفراده ، ولذلك فهى تضع فى خدمة هذا النظام الاقتصادى كل الإنسان : جهده العضلى ، وطاقته النفسية ، وقدرته العقلية ، وحركاته . فإذا كان تقدم هذا النظام لا يستقر إلا على أطلال وأنقاض الإنسان ، وإحالته رقيقاً ، كان الرق مشروعاً ، وكان ما يشبه الرق من أنظمة جائزاً . وإذا كانت الأسرة ، نواة المجتمع ، وسلطة الأب ، هى ضمان تماسك هذه الأسرة كان من حق الآباء أن يتصرفوا فى أولادهم تصرف المتاع ، فيقتلوهم إن شاءوا ، ويبيعوهم إن أرادوا ، ويقيدوا حريتهم إن استحسنوا .

وإذا كان النظام الاجتماعى بطبقاته ، يستلزم لاستتباب الأمر له ، أن تكون الطبقة الكبيرة فيه ، هى المستأثرة بكل ما يؤدى إلى القوة من مال ، وكهانة ، وعلم ، وحكم . وضع النظام بحيث لا يرث المال إلا الذكور

المحاربون ، وبحيث يجوز قتل البنات أو وأدهن وبحيث يكون الدين احتكاراً لهذه الطبقة والوجاهة الاجتماعية ، حقاً خالصاً لها .

وكم من أنظمة قانونية وشرائع ، مخلصة غاية الإخلاص ، لما تؤمن به ، وتعمل له من إنشاء مجتمع قوى ، سعيد ، قادر على مواجهة الخطر ، ومنافسة الأعداء ، ولكنها لا تحسب للإنسان وكرامته حساباً كبيراً ، بل قد ترى فى هذا الحساب وهناً فى الطبع ، أو ضعفاً فى النظام ، أو خبلا سياسياً ، يلقى بالمجتمع الذى يصاب به ، لقمة سائغة بين فكى الأنظمة المعادية .

ولذلك كان من حق الإسلام أن يباهى المؤمنون به ، بصفته الإنسانية ، وأن يقولوا إن هذه ليست صفة من صفاته ، بل إنها جوهره وأساسه . منها تتفرع كل الخصائص والصفات ، وتصدر كل المزايا والفضائل .

فالإسلام لا يقدم على الإنسان شيئاً ، حتى العقيدة ، فنشر الإسلام نفسه ، ودعوة الناس إليه ، والعمل على غلبة هذا الدين ، لكى يكون الدين كله لله ، لا يسمح من أجله بإهدار كرامة الإنسان ، أو إرهابه أو إهدار دمه ، فسبيل الإسلام إلى كل شىء ، حتى الضرب على أيدى الجناة والسارقين ، والكفرة والمشركين ، وقطاع الطرق ، وهاتكى العرض ، يتم فى حدود ، لا يجوز تجاوزها ، وهذه الحدود هى مراعاة كرامة الإنسان لأنها تعلو على السلطان ، وعلى المال ، وعلى المزايا الاجتماعية ، وعلى الأنظمة الطبقية ، وعلى العقيدة ومقتضيات الدفاع عنها ، أو قل إن هذه الكرامة قد اندمجت فى العقيدة ، فأصبحتا شيئاً واحداً ، فلم تعد تعرف ، أتكون العقيدة هى كرامة الإنسان ، أم تكون كرامة الإنسان هى العقيدة .

خلاق :

قلنا إن جوهر التشريع الإسلامى . هو رعاية الإنسان . وكرامته بالإكبار من قدره ، وتحاشى المساس به ، أو الإساءة إليه ، أياً كان جنسه ودينه ولونه ، وبلده وسنه ، وحظه من العلم والمال والسلطة والنفوذ ؟ فما دام هذا هو جوهر الشرع الإسلامى وأساسه ، فكيف يتيسر له أن يقيم نظامه القانونى ، وأن يضع القواعد العامة الملزمة للناس ، وأن يحملهم على طاعتها والانقياد لها ، والتسليم بوجوب احترامها .

إن القوة وحدها ، تتعارض مع هذا الجوهر ، والنظام القائم على عمد من التقاليد ، والمخاوف الموروثة ، والأوهام المتسلطة على العقول والقلوب ، إهدار للآدمية ، وتدمير لأحسن ما فى الإنسان : حريته ، واطمئنانه ، وفرحه المنبعث من أعماق وجدانه ، وحبه للحياة وللناس ، واستبشاره بالمستقبل وباليوم الجديد .

فلم يبق للشرع الإسلامى ، إلا الأخلاق ، أو الضمير ، والارتقاء به إلى مستوى القانون والسلطان وجعله داعياً رفيقاً ، لطيف الصوت مأنوس النبرة ، حلو الإشارة ، عذب العبارة ، يقترب ، ويتواضع ، ويتساءل ، ولايكاد يجيب . لا يأمر أبداً ، ولا ينهى أبداً ، ولا يتهجم ولا يغضب أبداً .

ثم هو بعد ذلك المرشد الهادى ، يمسك باليد ، ولا يدع الإنسان يشعر بوحدته ، ووحشته ، وضعفه أمام الكون ، وعزلته عن الناس وحيرته بين ما يتمناه ، وما يقدر عليه ، فإذا ثبتت قدم الإنسان ، وزال عنه تردده ، وعرف طريقه بين المسالك الوعرة ، — وأدرك أن الصوت اللطيف الذى لم يكن يأمر وينهى ، هو صوته هو ، خرج منه إليه وجاء به إلى ذاته ، وأنه بعد طول الأناة والصبر ، وبعد التدرج والتطور ، يملك أن يؤاخذ وأن يشتد .

هذه الطاقة الوجدانية الداخلية هى أقوى ما فى الإنسان ، وهى التى صنعت المبادئ وصاغت العقائد ، وحركت الجيوش ، وأقامت الدول ، وألهمت القلوب وأرهفت العقول ، ومنحت الألسن وقودها ، والأقلام مدادها .

والإسلام عرف أن تفجير هذه الطاقة ، وتوجيهها ، هو المجال الذى يجب أن يعمل فيه ، إن أراد أن يلتزم جوهره ، وأن يقيم بناءه على أساسه .

وقد لازم هذا المنهج الأخلاقى ، الإسلام منذ بدايته ، فلما أوحى إلى رسول الله فى غار حراء وهو يتعبد فى الجبل ، بعيداً عن الناس ، وذهب إلى زوجته خديجة بنت خويلد وهو يرتجف ، هدأت روعه وقالت له : « أبشر يابن العم وأثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده ، إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة ، ووالله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق » .

إنها شهادة بحسن أخلاق محمد وقوتها ، فلم تشهد له آنذاك بشىء من حدة العقل ، أو شدة البأس ، أو رفعة القدر ، بل شهدت له بأنه على خلق عظيم ، وهو نفس ما شهد له به القرآن ، بعد أن درجت الدعوة فى مدارجها ، وخرجت من غار حراء ، لتسمع قريشاً بأسرها ، وأهل مكة جميعاً ، وما حولها من قرى . . فقد شهد له القرآن الكريم : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

ولما نزل القرآن يدعو محمداً إلى عرض عقيدته على ذويه قائلا : « وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون » . أطاع الرسول أمر السماء ، وذهب إلى عشيرته ، فماذا قال لهم ، لييسر عليهم قبول دعوته ، قال :

« أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم

أكنتم تصدقونى ، قالوا نعم ، أنت عندنا غير متهم ، وما جربنا عليك كذباً قط » .

فحجة محمد الأولى، بين يدى الرسالة الجديدة ، هو أنه رجل صادق لا يكذب ولا يتهمه أحد .

ولما اشتد عنف قريش بالدعوة الجديدة ، وضيقوا عليها الخناق ، أمر الرسول بهجرة أتباعه إلى الحبشة ، أرسلت قريش من ورائهم وفداً ، ليثير عليهم نجاشى الحبشة . . دعا النجاشى الوفدين ليسمع حجة كل منهما ، فماذا كانت حجة رئيس وفد المسلمين عقيل بن أبي طالب قال :

« كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، حتى بعث الله إلينا منا من نعرف فيه صدقه وأمانته ، وعفافه ، فدعانا : إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة ، والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والبغاء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة فصدقناه وآمنابه » .

فالمسلمون آمنوا بمحمد ، واطمأنوا لدعوته لأنهم يعرفون صدقه وأمانته وعفافه ، هذا هو رأسمال الرسول الجديد ، إلام دعاهم ؟ إلى فضائل متراصة متماسكة ، ليس فيها كلها شيء يتصل بعرض الدنيا ، ولا نظام الحكم ، ولا قواعد السلطان ، ولا شئون المال من بيع وشراء ، أو تجارة وإجارة ، منهجه خلقى بحت ، من بدايته إلى نهايته ، ومن رأسه إلى قدمه .

لذلك كان مفهوماً ، أن يلخص رسول الله دعوته ، بقوله : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وكان مفهوماً كذلك أن يتحدث عن نفسه ، فى إحدى المرات القليلة التى تحدث فيها عنها فقال « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

فليس لدى محمد نظام قانونى يدعو إليه ، ولابناء مجتمع جديد، يغرى الناس على الدخول فيه ، فلهذا أوان آخر ، يأتى بعد طول التريث والأناة ؛ وإنما الخطوات الأولى التى هيأت الأساس والقاعدة التى يقوم عليها الصرح كله هى أخلاق ، وأخلاق فحسب .

ولم يكن هذا المنهج الغاية التى ستسكت عندها الدعوة ، وتقنع بها ، بل إن فى جعبة الدعوة شيئاً كثيراً : فى جعبتها ؛ عقيدة كاملة ، وشريعة ذات أصول وفروع ، تنظم مالم تنظمه غيرها من الدعوات السابقة ، ولا الدعوات اللاحقة ، ولكن الأخلاق عند الإسلام ، هى وحدها التى تجعل القانون سلطاناً ، وتجعل العقيدة إيماناً ، وهى التى تخلق الرجال الذين يقودون الأمم و ينشئون الدول .

وهذا النهج الأخلاقى النابع من أن الإنسان وكرامته ؛ هما محور البناء التشريعى كله لا يكون من الصرح الشامخ القاعدة فقط ، بل هو روح تسرى فى كل لبنة من لبنات الصرح ، فالعقيدة أخلاقية بحتة ، والشريعة أخلاقية بحتة ، والعمل المبنى عليها أخلاقى ، فالصلة بين الله والناس ، والصلة بين الإنسان والإنسان ، والصلة بين الإنسان والكون صلات أخلاقية ، تلمح فيها دائماً آخر الأمر الاحترام المتبادل ، والصدق والوضوح والاستقامة ، والرحمة آخر الأمر . حسبنا أن نقول هنا ، إنه إذا رفض الإسلام عقيدة ما ، كعقيدة الفداء والخلاص ، التى تؤمن بها المسيحية ، بعد تطور طارئ عليها ، فليس أساس الرفض فلسفياً ،وإنما أساسه أخلاقى ، إذ أن الإسلام يؤمن بأن الناس لا يحاسبون بالجملة ، ولا ينالون المغفرة بالجملة ، فلا يعاقبون على فعل أبيهم ولا ينالون العفو مقدماً وإلى آخر العمر ، لعمل لا يد لهم فيه .

عالمى :

لم تعرف الدنيا ، تشريعاً عالمياً ، غير الإسلام قط . لم تعرفه فى الماضى ، ولم تعرفه حتى اليوم . فقد كانت اليهودية ديناً خاصاً لبنى إسرائيل وكان رب بنى إسرائيل ، ربهم وحدهم ، يعدهم بالنصر على غيرهم ؛ ويطلب منهم وحدهم أموراً ، وهم لا يفكرون فى أن ينشروا رعايته على غيرهم ، ولا أن يدخلوا فى دينهم سواهم : دين قبلى ، محدود ، لرب شديد الغيرة من أى إله سواه ، شديد الغضب ، قاس ، يبيح لأتباعه أن يقتلوا من عداهم من الناس ، وأن يسرقوهم ، ولا يدعوهم إلى رحمة ، ولا إلى حسن مودة .

وقد كانت المسيحية ، إصلاحاً لليهودية فقد كان السيد المسيح عليه السلام ، يقول . « جئت لأكمل الناموس لا لأنقضه » . ولو أن موعظة الجبل كانت غاية ما تطمح إليه الإنسانية ، سمواً ، ورحمة ، وإخاء إنسانياً ، وكانت فى جوهرها ؛ خلاصة الفكر ، وأساس الحياة الإنسانية التى تليق بالإنسانية ، بيد أن المسيحية على سموها ، وعلى شمول مبادئها الإنسانية كافة ، قد خلت من بيان لعلاقات الأمم بعضها ببعض ، كما خلت من أحكام وقواعد ، يمكن الاستدلال منها إذا كانت إقليمية أو عالمية ، ولكن لأن دعوة المسيح الخلقية كانت إنسانية ، فقد استطاع أنصاره وحواريوه أن ينتشروا فى الأرض ؛ وأن يقيموا فيها ديناً عالمياً .

أما الإسلام ، فلأنه اتخذ من الإنسان هدفه ، وغايته ، ووسيلته وأداته ، فقد كان عالمياً ، بطبيعته ، فمنذ اللحظة الأولى والقرآن يوجه الخطاب إلى الناس أجمعين ، وأداة الخطاب . « يأيها الناس » تملأ القرآن ، وتتخلل آياته ، وقد بلغ عدد مرات استعمال هذا الخطاب فى القرآن نحو ثمان وعشرين مرة ، كما ورد فيه « لفظ الناس » مائتين

وتسعاً وأربعين مرة ، ولفظ « الإنسان » إحدى وستين مرة .

وقد كان رب المسلمين ، وإلههم ، منذ اللحظة الأولى للدعوة هو « رب العالمين » و« رب المشارق والمغارب » ، و« رب السموات والأرض» ، وقد كان الناس كلهم خلقه ، وكانوا سواسية كالأخوة أمام والد كبير رحيم ، لا يميز بينهم ولا يفرق : أسودهم كأبيضهم ، فقيرهم كغنيهم ، وضعيفهم كقويهم ، بل أشرارهم كأبرارهم ، كلهم يستحقون رحمته ، وينتظرون مغفرته ، وقد خلقهم ، وعرف عجزهم ، وفتح لهم أبواب التوبة من جديد والتكفير عن الذنوب ونسيان الماضي .

ولم تكن فكرة الألوهية نقية وخالصة ، ومجردة أكثر منها نقاء وتجرداً فى الإسلام : دعا الناس جميعاً ، ومن جميع الأديان فى كل الأقطار ، أن يؤمنوا بها ، وأن ينبذوا سواها ، نبذاً لا تردد فيه ، ولا مهانة . وفى العصور الأولى ، كان الإنسان ، هو الذى يخلق الآلهة ، يصنعها بيده ، ثم يخلع عليها من أوهامه ومخاوفه ، ما يحيطها بهالة ، تصبح بعدها آلهة متحكمة ، ويأتى الكهان ، والعابثون بالعقول ، والمستغلون لفقر الناس وجهلهم ، وتطلعهم إلى حال أحسن ، وخوفهم من الإله الجبار المنتقم ، فيتخذون من هذه الآلهة نفسها وسائل لابتزاز المال ، والإثراء الفاحش ، والسلطة التى لا تقاوم .

ولم يكن إله العبرانية ، ورب الإسرائيليين ، بأفضل من هذا الإله ، فقد كان إله محلياً ، قبلياً ، لا يعرف إلا قبائل العبرانيين ، يعقد معهم الصفقات ، ويعدهم بالفتوح والانتصارات ويطلب منهم لقاء ذلك ، ألا يكون لهم إله غيره ، وأن يطيعوه(١) .

لنقرأ ذلك كله فى التوراة ، فى الإصحاح الثالث من سفر الخروج ،

---

(١) ورد هذا البحث تفصيلا فى الفصل الأول من كتاب « مع الإنسان فى الحرب والسلام » المؤلف .

يتحدث الرب إلى موسى فيقول له : « فإذا سمعوا لقولك تدخل أنت وشيوخ بني إسرائيل إلى ملك مصر ، وتقول له : الرب إله العبرانيين التقانا » وجاء في الإصحاح الخامس :

« وبعد ذلك دخل موسى وهرون وقالا لفرعون هكذا يقول الرب إله إسرائيل « أطلق شعبي ليعيدوا في البرية » . فقال فرعون : من هو الرب حتى أسمع لقوله ، فأطلق إسرائيل ، لا أعرف الرب ، وإسرائيل لا أطلقه فقالا له : إله العبرانيين قد التقانا » .

وهذا الإله ، يذكر الإسرائيليين بما فعله في سبيلهم إذا أخرجهم من مصر ، وحررهم من ربقة فرعون ، ويطالبهم بالثمن :

« أنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين ، وأنقذكم من عبوديتكم وأخلصكم بذراع ممدودة ، وبأحكام عظيمة ، وأتخذكم لي شعباً ، وأكون لكم إلهاً » .

قارن هذا برواية هذه الواقعة نفسها ، كما جاء في القرآن ، في سورة الزخرف مثلا : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إني رسول رب العالمين ».

ويا ليت إله العبرانيين ، الخاص ، كما وصفوه في التوراة التي بين أيديهم الآن — الذي لا يعرف سواهم من بني الإنسان والذي يحرم على بني إسرائيل أن يعرفوا سواه — كان إلها حسن الخلق ، أميناً ، يأمر بالخير ، وينهى عن الشر ، بل إنه اله زين الجريمة ، وأغرى أتباعه بها فيقول في الإصحاح الثالث من سفر الخروج :

« فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين ، بل تطلب كل امرأة من جارتها ، ومن نزيلة بيتها أمتعة فضية وذهباً ، وثياباً تضعونها على بنيكم وبناتكم ، فتسلبون المصريين » .

وهو يوحي — جرياً على سنته من اتباع الشر — بأسلوب خال

من كل رحمة فى الحرب ، فيقول كما جاء فى سفر التثنية :

« حين تقرب من مدينة لكى تحاربها ، استدعها إلى الصلح ، فإذا فتحت لك فكل الشعب الموجود فيها ، يكون لك للتسخير . ويستعبد لك ، وإن لم تسألك ، وعملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، — وأما النساء والأطفال ، والبهائم ، وكل ما فى المدينة وكل غنيمتها فتضمها إلى نفسك — ، وتأكل كل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك » .

كما جاء فى سفر يشوع الإصحاح السادس عن فتح مدينة أريحا ، على يد اليهود بقيادة خليفة موسى عليه السلام :

« وأحرقوا المدينة بالنار مع كل مابها إنما الفضة والذهب وآنية النحاس ، والحديد ، اجعلوها فى خزانة بيت الرب » .

وياليت هذا الرب — الذى توهموه أيضاً — كما نصت ، التوارة التى بين أيديهم الآن ، كان مع ممالأته الشديدة للإسرائيليين وتحريضهم على ارتكاب جرائم السرقة ، والنهب ، والحرق ، مع الحرص على الذهب والفضة ، مبصراً قادراً على أن يعرف طريقه إلى هذه الجرائم وحده كما يقول « ديورانت » ، فهو يعلن عن عجزه ، ويطلب من أتباعه أن يضعوا علامة على بيوتهم ، حتى إذا أطلق لشهوة القتل والتخريب العنان ، لم يشملهم غضبه ، فقد طلب منهم أن يرشوا بيوتهم بدم الكباش المضحاة لكيلا يهلك أبناؤهم من غير علم منه مع من يهلكهم من أبناء المصريين. بل إنه يقر بأنه غير معصوم من الخطأ ، وأن أكبر خطاياه ، خلقه للإنسان .

ونحن لم نطل الاستشهاد بما جاء فى التوراة من إصحاحات ، دالة على ضيق أفق الفكرة الإلهية عند العبرانيين والترام ربهم ، نطاقاً صغيراً محدوداً لا يتجاوزه ، إلا لندرك فى ضوء المقارنة ، كيف اتسع نطاق فكرة الدين عند الإسلام ، فشملت العالم كله ، بل الكون كله ، ثم البشرية بأسرها . فالإنسان منذ كان إلى آخر يوم له على

هذه الأرض ، يدرسه القرآن ، ويتأمل فيه ، ويستخرج من هذا التأمل القواعد الخلقية والتشريعية ، والعلمية ، والضوابط المستمرة . الثابتة . وهو إذ يدرس هذا كله . لا يدرسه بروح الغاضب : أو الباحث عن المصلحة الذاتية المباشرة ، بل إنه يبحثه بروح الود والمحبة ، فقلب المسلم وعقله يتسعان مودة وحبًا ، للإنسان ، والحيوان والجماد ، ويحيط هؤلاء جميعاً بإطار واحد فى تناسق جميل ، وأداء مشترك : « يسبح لله مافى السموات ومافى الأرض » .

ولم تكن هذه العالمية سمة خلقية، أعنى لم تكن دعوة وعظية ، الغاية منها أن يكون الناس أكثر تآلفاً وتعاطفاً ، وأن يدركون أنهم ينتسبون إلى أمة واحدة : « كان الناس أمة واحدة » ، بل إن هذا الأساس الخلقى هو مجرد أساس لتبنى عليه القواعد الشرعية ، والمناهج السياسية .

ففى الشرع لا فرق بين أبيض وأسود ، ولا بين عربى وعجمى ، ولا بين ذكر وأنثى ، ولا بين حر وعبد : ولا بين مسلم وذمى ، وفى المناهج السياسية ، دعى العالم كله ممثلا فى أمرائه وقادته أن يدخلوا إلى الإسلام ، ودعى جميع المسلمين ليقفوا أمام قانون واحد ، سوى بينهم فى جميع الحقوق المدنية ، وفى حقوق التقاضى ، والملكية والعبادة ، والحرمات الإنسانية جميعاً .

يقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

« يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ويقول الرسول فى حجة الوداع ، أى فى آخر ما صدر عنه ، قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى ، وكأنه يؤكد جوهر الدين قبل أن يغادر عالمنا هذا :

« إن ربكم ، واحد ، وأن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب . . إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربى على عجمى ،

ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أبيض ، فضل ألا بالتقوى » .

وقد كان محمد رسول الله ، هو الرسول الوحيد الذى وجه الدعوة إلى دينه ، خارج وطنه ، إلى الملوك والأمراء ، تطبيقاً لما جاء فى القرآن ، وهو يخاطبه : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » وفى سورة الأعراف : « قل يأيها الناس إنى رسول الله اليكم جميعاً » .

وجه الرسول كتب الدعوة إلى الإسلام ، إلى هرقل عظيم الروم ، وإلى نجاشى الحبشة ، وكسرى ملك الفرس ، والمقوقس حاكم مصر ، من قبل القسطنطينية ، والحارث الغسانى ملك الحيرة ، والحارث الحميرى ملك اليمن ، وقال لكل منهم فى كتبه :

« إنى أدعوك بدعاية الإسلام . .

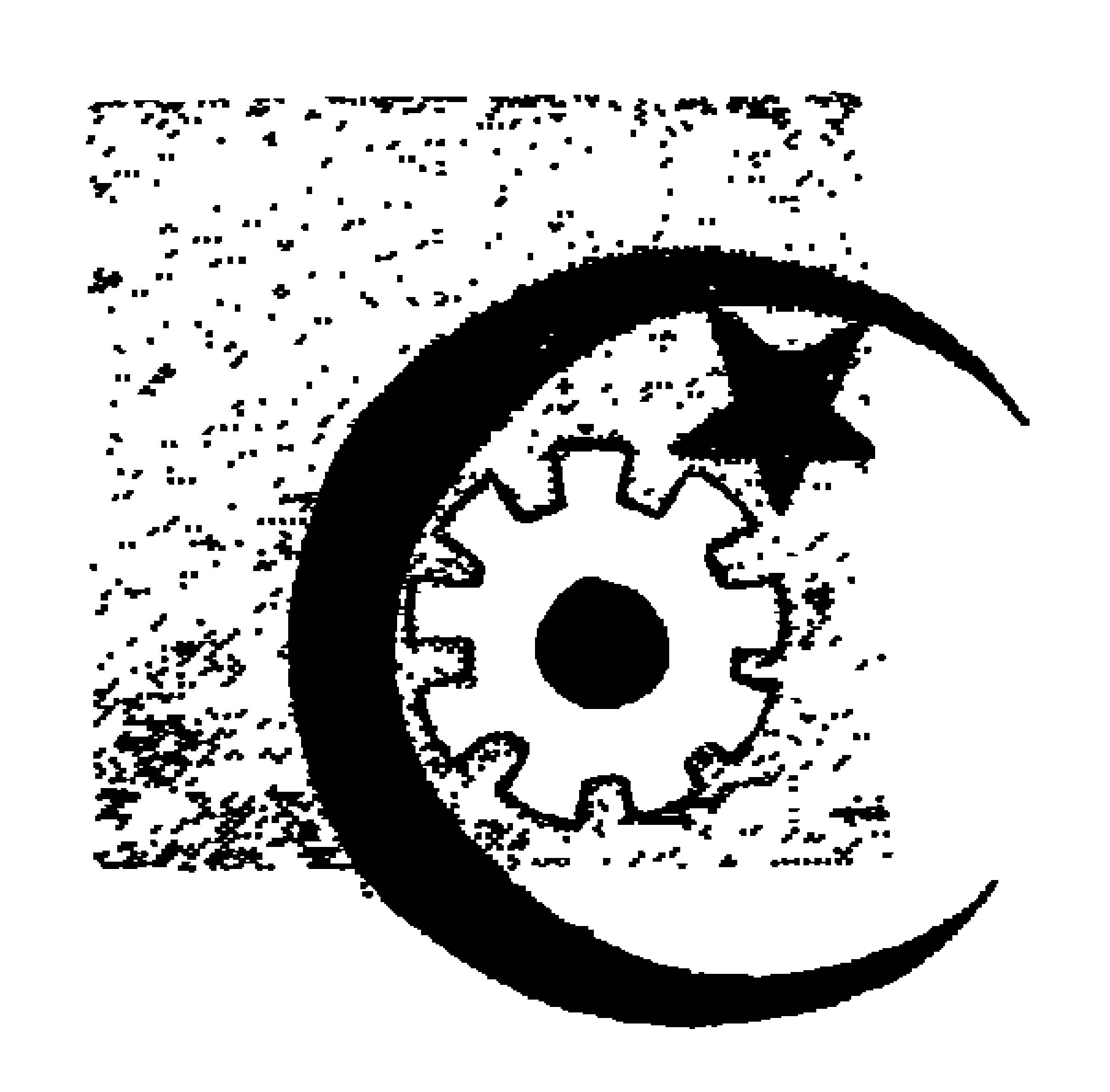
يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم إلا نعبد الا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . . . . فإن تولوا فقالوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

وأخيراً كانت وسيلة الإسلام إلى الدعوة هى القرآن ، وما انطوى عليه من مبادئ وعقائد ، ونظم وقواعد ، وأفكار وحكم ، ومنهج للحياة وأسلوب للتفكير ، ودستور للأخلاق ، وهو أمر ثابت باق ، قرأه وسمعه المعاصرون للرسول ، كما قرأه الذين جاءوا بعده جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن ، فأصبح من الممكن ان تكون الدعوة عن طريقة عالمية .

ولقد توج الإسلام بناءه القائم على أساس من الروح العالمية ، بعبادة « الحج » التى هى فى واقع الأمر ، مهرجان عالمى ، لم يدع إلى مثله دين قبل الإسلام ، ولا بعده . فى أيام معدودات من كل سنة ، يجتمع الوف الألوف ، من أنحاء العالم بأسره ، من كل لون وجنس وطبقة ولغة ولهجة ، متجردين من ثيابهم إلا أقل القليل ، عراة الرءوس ،

أشبه شيء بحفاة الأقدام ، يتراصون متلاصقين ، ويكبرون ، في صوت واحد ، لفظة الإسلام ، مرات ومرات . .

فعالية الإسلام ، مستمدة من كل ما يتصل به من عبادة وفكرة ، ودعوة ووسيلة .



الإيمان

ورد لفظ (الإيمان) فى القرآن الكريم، وما اشتق منه من أفعال وصفات ، فى نحو أربعمائة موضع ، ولم يرد لفظ آخر بهذا العدد سوى لفظ الجلالة الذى جاء فى الذكر الحكيم فى قرابة ألفين وخمسمائة موضع.

وهذا أمر تفرضه البداهة ، فالإسلام عقيدة ، وحينما نزل القرآن الكريم بها على قلب الرسول الأمين كانت دعوة جديدة . وما من دعوة جديدة، إلا وهى نسخ لعقيدة قائمة وإزالة لنظام سائد ، وتغيير لأوضاع مستقرة ، ولقد جبل الناس على التشبث بما يعرفون ولو كان باليا « إنا ، وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مهتدون » ويكرهون الجديد ولو كان خيراً لهم « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير » فالذين يخرجون على المجتمع الذى ينتمون إليه ، لابد أن يكونوا أفذاذا يمتازون عن سائر قومهم ، بإدراك سليم ، وإرادة قوية ، وبصيرة نافذة وشجاعة ، ملهمة ، هؤلاءهم المؤمنون . هؤلاء هم الذين خاطبهم الإسلام، ودعاهم إلى شريعته ، وأسلمهم رايته ، وأئمنهم على دعوته ، وهؤلاء هم رواد كل فكر جديد ، وطلائع كل ثورة نافعة ، والسابقون إلى كل جديد هادم لإنقاض الأفكار الخربة ، وحملة لواء كل تغيير مزيل لخرائب العقائد العفنة.

ولو لم يكن القرآن داعياً إلى إيمان ، لما قبل أحد دعوته ، ولا أخذت

أمة بعقيدته ، ولا احتمل إنسان أذى فى سبيله . ولا دارت حرب لتأييده. ولو لم ينجح القرآن فى اصطناع طراز من المؤمنين ، وارتفع به إيمانهم إلى الذروة بذلا وابتكاراً ، وإبداعاً ، لكان عقيدة قلة لا يؤبه بها ولا يلتفت إليها .

فالدين والعقيدة يوزن كل منهما بقدر ما يحركان من إيمان المؤمنين ، وبقدر عظمة اهؤلاء المؤمنين وسمو نفوسهم.

لذلك حق علينا أن نعرف الإيمان فى الإسلام وماذا يكون . والإيمان فى مطلق الدعوات ، وكيف يعمل .

عن عمرو بن عتبة ، سئل رسول الله : يارسول الله ، ما الإسلام قال : أن تسلم قلبك وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك ، قال فأى الإسلام أفضل . قال : الإيمان ، قال . وما الإيمان : قال أن تؤمن بالله ، وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت . قال فأى الإيمان أفضل؟ قال الهجرة؟ قال وما الهجرة؟ قال أن تهجر السوء قال : فأى الهجرة أفضل قال : الجهاد ، قال : وما الجهاد؟ قال أن تقاتل الكفار إذا لقيتهم ، قال : فأى الجهاد أفضل ؟ قال من عقر جواده وأهريق دمه .

فالإيمان فى الإسلام موضوعه الله وكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر: « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله » .

والإيمان باتفاق هو التصديق الكامل والإذعان النفسى والتسليم ، القلبى لكل ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام.

ولكن هذا التعريف يحتاج إلى تفصيل .

فالإيمان فى حقيقة الأمر ، هو حالة نفسية وعقلية معاً ، يصبح معها الإنسان أشبه بالإناء الذى امتلأ إلى حافته ، أو حالة الغليان للسوائل ، أو حالة الاشتعال للأجسام . فليس . الإيمان هو التصديق الكامل ولا الاعتقاد الذى لا تشوبه شائبة تضعفه ، والذى لا يلابسه شرط ، أو

يقترن بأجل . فهذا التعريف ينطبق على المرحلة السابقة على الإيمان والمؤدية إليه وهى مرحلة الإقناع العقلى . ولكن للإيمان عناصر أخرى غير الاقتناع العقلى إذ لابد أن ينضم إليه انفعال الوجدان وامتلاء النفس حتى تصبح جميع قوى الإنسان العقلية والعاطفية الواعية وغير الواعية، متجهة اتجاهاً واحداً نحو موضوع الإيمان، لا تملك الانصراف عنه أو الانشغال بشيء معه فهى أقرب ما تكون إلى حالة هيام العشاق ، أو هى على حد قول قائل : إن الإيمان هو جنون العقلاء . وعندما يصل الإنسان إلى هذه الدرجة تتضاعف قواه عشرة أضعاف، وقد نص القرآن على ذلك ، إذ قال الله تعالى فى سورة الأنفال : « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا » فسر غلبة المؤمنين ، إيمانهم .

وتضاعف قوة الإنسان بعد إيمانه ، يمكن تفسيره ماديًّا وعلميًّا ففي جسم الإنسان غدة يكثر إفرازها فى حالات الخطر والغضب ، ومن شأن هذه المادة أن تزيد عضلات الجسم صلابة وتقوى احتماله ، وتقلل شعوره بالألم ، وتكسو وجهه بسمات تخيف العدو ، فى حين تصم أذنيه هو عن سماع تحذير الأصدقاء . ومثل هذا التغير يحدث فى الحيوان الصغير والكبير على السواء ، فالهرة التى تحس بالخطر ، يحدق بها تتحول إلى نمر مفترس ، والدجاجة التى ترى الثعبان يقترب من فراخها تصبح نسراً كاسراً ولاتزال تهاجم عدوها ، وتدميه ، على الرغم من قوته وضعفها ، حتى تقتله إن لم يفر نجاة بنفسه.

هذه القوة غير العادية التى يمنحها للكائن الحى الغضب أو التصدى لحالة الخطر ، هى القوى التى يمنحها الإيمان للمؤمنين ، إذ يجعلهم فى حالة غضب مستمر على كل ما ، ومن ينافى عقيدتهم ، أو يقف فى سبيلها . إلا أن الإيمان يمنح المؤمنين قوة من طبيعة أخرى . هى القوة التى يبعثها الحب المشتعل للمحبين فيزيد من اتقاد وجدانهم ، ومن لطف

إحساسهم ، ومن فنائهم فيمن يحبونه ، فيصبح كل ما يأتى بسببه جميلا ومحبوبًا . ولو كان عند غيرهم مؤلمًا أو قاسيًا ، فالتضحية من أجل إسعاده سعادة لهم ، وتحقيقاً لوجودهم ، ويبلغ بهم الاستهتار فى الحب ، والانقطاع له ، والفرح به ، بحيث لايطيقون أن يسمعوا فى ذلك لوماً : « يجاهدون فى سبيل الله ، ولايخافون لَوْمة لائم » .

وفى القرآن الكريم إشارات إلى مراحل تكون الاقتناع ثم تكامله ، ثم نشوء الإيمان وظهور آثاره ، وعلى مواقف الناس المتباينة من الصدوف عن الدعوة إلى الإيمان ، والتردد فى قبولها ، والرفض البات لها .

والمثل الواضح ، لفترة تكون الاقتناع ، والتهيؤ لتحمل تبعات الإيمان ، واردة فيما دار بين موسى عليه السلام وربه قال الله تعالى :

« وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين. قوم فرعون ألا يتقون. قال رب إنى أخاف أن يكذبون ، ويضيق صدرى ولاينطلق لسانى . فأرسل إلى هارون ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون ، قال : كلا . فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون » .

ولكن لايزال موسى فى حاجة إلى تثبيت من ربه ، ففى سورة (طه) قال الله تعالى :

« اذهب إلى فرعون إنه طغى . قال رب إشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى ، وأحلل عقدة من لسانى ، يفقهوا قولى ، . جعل لى وزيراً من أهلى . هارون أخى أشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى ، كى نسبحك كثيراً ، ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيراً : قال قد أوتيت سؤلك يا موسى » .

وفى موضع آخر ، من سورة طه بقية لهذا الحوار.

« قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ، قال : لاتخافا إننى معكما أسمع وأرى » .

وفى الوسع أن يرى الإنسان ، قارئ هذه الآيات البينات ، كيف

يحسب الإنسان ، ودعوة الإيمان فى أعلى مراتبها . يفرض عليه . كل حساب للأمور التى يفرض العقل ، تقديرها ، والنظر فى عواقبها . فإذا حمل الرسالة . انطلق لا يلوى على شيء ، واستحال الصعب أمامه سهلا ، والبعيد قريباً ، أو آمن أنه سيذلل العقبات ، وسييسر ما يبلو من المستحيلات .

وفى القرآن الكريم مثل آخر ، لمرحلة ما قبل اكتمال التهيؤ لتلبية دعوة الإيمان :

« وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحى الموتى ، قال أولم تؤمن . قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبى » والقلب هنا من العقل. الذى لايزال فى حاجة إلى ما يقنعه . لتكون الجوارح كلها ، فى خدمة العقيدة الجديدة ، وفى خدمة النهوض بالرسالة القائمة على هذه العقيدة .

وفى القرآن أمثلة للمؤمنين الذين لايخيفهم الفزع ولايفت فى عضدهم التهديد بالموت ، ولا بما هو فى مثل الموت ، قذفاً للرعب فى القلوب ، ومن هذه الأمثلة إيمان المصريين من سحرة فرعون ، قال الله تعالى عنهم :

« قال آمنتم له قبل أن آذن لكم . إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم . وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم فى جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى . قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا ، فاقض ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا » .

وفى سورة (يوسف) تهدد (يوسف) امرأة العزيز التى هو فى بيتها ، بالسجن ، وبما يصحب السجن من حرمان وهوان ، إن لم يلب ما تدعوه إليه ، وتحسنه له من معصية ، قال الله تعالى :

« ولقد راودته عن نفسه فاستعصم . ولئن لم يفعل ، ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين ، قال : رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه » .

ثم حدثنا القرآن عن طوائف من الناس ، تباينت مواقفهم من الإيمان

والدعوة إليه . كما تباينت مواقفهم فى نطاق الإيمان ذاته :

فمن طائفة الذين لبوا دعوة الإيمان ، وأدوا ضرائبه . وتكاليفه قال الله تعالى :

« ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولاتخزنا يوم القيامة إنك لاتخلف الميعاد ، فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى . بعضكم من بعض ، فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى ، وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله » .

وعن طائفة الذين يحكمون على الإيمان بظاهر أعماله . قال القرآن الحكيم :

« قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا » الحجرات .

أما الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر فقال عنهم التنزيل :

« ومن الناس من يقول آمنا ، بالله وباليوم الآخر . وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم ، وما يشعرون » البقرة .

ومن هؤلاء من يتخذ من دعوة الإيمان تجارة وسياسة . فيقول عنهم الذكر .

« وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا . وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم » البقرة .

ومن الناس من يرجو الإيمان ، ولكن لايقوى على قطع صلته بالكفر وأهله ، فيبقى حيران :

« قل أندعوا من دون الله ما لاينفعنا ولايضرنا ، ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى » الأنعام « مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » النساء .

ومن الناس ، من يحسب الإيمان ، ضماناً للكسب والجاه والعافية فى الدنيا ، وأنه لا يتقاضى المؤمنين ، جهداً وبذلا ، فقال عنهم الله تعالى :

« ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خيرٌ اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه » الحج .

فالإيمان فى واقع الأمر — كما كررنا — هو دعوة مستمرة ومتصلة لمواجهة الأخطار ، والصمود لها :

« وكأى من نبي قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا » .

فى آية واحدة تتابعت ألفاظ الوهن ، والضعف والاستكانة ، لينفيها الله عن المؤمنين ، ثم تمضى حياة المؤمنين امتحاناً مستمراً ، وكأنهم الجنود فى الجيش ، لاينقطع تدريبهم ، حتى فى وقت السلم ، وبغير هذا الامتحان يمكن أن يخلد المؤمن إلى الراحة ، ويستدرجه لين العيش ، فيحسب أن الخطر على عقيدته قد زال ، وأن فى وسعه أن يلقى السلاح ، وعن هذه الامتحانات المستمرة يقول الله تعالى :

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه ، متى نصر الله ، ألا إن نصر الله قريب » البقرة .

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » آل عمران .

ويحدثنا القرآن عن مواقف امتحن الله فيها قلوب المؤمنين وفيهم رسول الله :

« إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا » . الأحزاب .

« ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين » .

وقد يقوم فى وهم البعض منا ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو إمام المؤمنين وهاديهم ونبى الله وصفيه ، قد خلت حياته من شدائد المحن ، التى يعرفها غيره من المؤمنين ، ممن لم يشرفه الله برسالاته ، ولم يؤيدهم ، بوحيه ، ولكن القرآن الكريم ، يورد لنا تعريضاً وتصريحاً ، فى الآيات ، ما يؤكد لنا أن الإيمان ، ولو كان إيمان الرسل ، هو امتحان من الله تعالى لرسله وعباده ، وأول إشارة إلى هذا فى سورة الضحى ، عند انقطاع الوحى : « ما ودعك ربك وما قلى » .

ثم هذه الآيات :

« لعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً » الكهف .

« فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك » هود .

« من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة ، فليمدد بسبب إلى السماء ، ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ » الحج .

« وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء ، فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين » الأنعام .

ولعل هذا يؤدى بنا ـ مادمنا قد تحدثنا عن إيمان إمام المؤمنين ، صلى الله عليه وسلم ـ أن نقف أمام الآية الثانية والخمسين من سورة الشورى :

« وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان »

فقد اختلف المفسرون على ما يقول ـ القرطبى ـ فيما يريده الله عز وجل بهذه الآية ، فظاهرها ـ كما يقول القشيرى ـ يدل على أن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ما كان متصفاً بالإيمان قبل الوحى ، فى حين أن أكثر

العلماء على الرأى القائل بأن الله ما بعث نبيًّا إلا كان مؤمنًا قبل البعثة ، أما القاضى أبو الفضل عياض ، فيرى أن الصواب هو كون الأنبياء معصومين قبل النبوة من الجهل بالله وبصفاته والتشكك فى شىء من ذلك . وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا ونشأتهم على التوحيد والإيمان بل على إشراق أنوار المعارف ، وفسر هؤلاء قول الله تعالى عن يحيى : « وآتيناه الحكم صبيًّا » . أن الله أعطاه العلم بكتاب الله فى حال صباه . بل قالوا إنه صدق بعيسى . وهو فى بطن أمه ، فكانت أم يحيى تقول لمريم أم المسيح (وهما بنات خالة) إنى أجد ما فى بطنى يسجد لمن فى بطنك تحية له . ثم قال القاضى عياض ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحداً نبئ واصطفى بما عرف بكفر و إشراك ، قبل ذلك . و إن قريشاً قد رمت نبينا عليه السلام بكل ما افترته ، وعير كفار الأمم أنبياءها بكل ما أمكنها وما اختلقته ، ولم نجد فى شىء من ذلك تعييراً لواحد منهم برفضه آلهتهم وتقريعه بذمه بترك ما كان قد وافقهم عليه (بالتعبد لهذه الآلهة) .

ثم انتقل القرطبى بعد ذلك إلى تفسير الآية : ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، فقال الثعالبى الإيمان هنا شرائع الإيمان ومعالمه ، وقال القشيرى تفاصيل هذا الشرع أى كنت غافلا عن هذه التفاصيل ، ويجوز إطلاق لفظ الإيمان على تفاصيل الشرع ، وقال أبو العالية : ما كنت تدرى قبل الوحى أن تقرأ القرآن ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان . وقال بكر القاضى : ولا الإيمان الذى هو الفرائض والأحكام ، وقال بن خزيمة : عنى بالإيمان « الصلاة » لقوله تعالى : « وما كان الله ليضيع إيمانكم » أى صلاتكم إلى بيت المقدس بعد تحويل القبلة إلى الكعبة ـ وقال أبو الفضل ما كنت تدرى ما الكتاب ولا أهل الإيمان . وهو من باب حذف المضاف ، وقال على بن عيسى إنه يعنى أن الرسول لم يكن يعلم شيئاً (عن الإيمان) حتى البلوغ .

والثابت من القرآن أن رسول الله قال عن نفسه «سبحان ربي هل كنتُ إلا بشراً رسولا» فهو قبل الرسالة وبعدها ، واحد من البشر ، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، وقال عن نفسه كذلك إنه يتزوج النساء ، ويقوم وينام ، ويصوم ويفطر ، ولكل نبوة إرهاصات ، بل لكل عظمة بشرية مقدماتها ، فكبار المفكرين ، والقادة ، دع عنك الأنبياء والرسل : يتميزون ابمنذ صباهم وأحياناً منذ طفولتهم بمخايل النجابة ، والصدق والصراحة والنأى عن الدنيا وحب المكارم ، والتفوق على الأقران ، ولاشك أن هذا كله كان ظاهراً غاية الظهور في خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفاته ، وقد استطاع بلا شبهة قبل البعثة ، أن يرى ما في عبادة الأوثان من سخف تنفر منه الطبيعة السليمة ؛ ولا شك في أنه كان يفكر في أصول العبادة ، وفي النظام السليم الذي يجب أن يسير عليه الناس : ولكن كل هذا شيء والإيمان بمعناه القرآني والإسلامي ، شيء آخر ، فأوانه لم يحن إلا عند نزول الوحي ، واتصاله بقلب الرسول الأمين . ولو قلنا إن محمداً بن عبد الله صلى الله عليه وسلم كان يعلم قبل البعثة الإيمان على الوجه الذي بينه له في كتابه الكريم ، لعكسنا قصد الآية ، وذهبنا إلى عكس الغاية منها ، لأن الغاية منها أن القرآن وحي من عند الله ، وهو من صنعه ونظمه لأن الرسول الذي أعلنه للناس ، لم يكن يعرف ما نزل فيه ، قبل نزوله . ولا يتصور أن يكون في مقدور من يجهل نظاماً محكماً ، كالنظام الذي دعا إليه القرآن ، أن يمنح القدرة فجأة ؛ فيصنعه ويعرضه على الناس بلا عون من الله وتأييد .

وفي الآيات القرآنية عن الإيمان والدعوة إليه . ثلاث حقائق تدعو إلى التأمل والتدبر :

أولاً — لايبين القرآن ما آمن به المؤمنون في خطابه الموجه «يأيها الذين آمنوا» كما لم يبين الصالحات التي قاموا بها في وصفهم «وعملوا الصالحات» .

ثانياً — يرد في القرآن آيات تدل على أن إيمان المؤمنين يزيد وينقص

فكيف يزيد الإيمان ، وهو حالة الاقتناع الكامل ، والإذعان التام ، والتصديق الذى لايعلوه تصديق، وفى المسألة الأولى يقول الأستاذ محمد رشيد رضا : قال تعالى: وبشر الذين آمنوا، ولم يذكر بماذا آمنوا لأن متعلق الإيمان كان معروفاً عند المخاطبين، وهو الله وصفاته التى ورد بها النقل الصريح وأثبتها العقل الصحيح ، والوحى ومن جاء به، والبعث والجزاء، فهذه الأصول التى كان يدعو إليها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن صدقهم فيها كان مؤمناً ويصدق بما يتبع ذلك من التفصيل هذا وإن إطلاق الإيمان وذكر المؤمنين وما أعد لهم من غير وصلة بذكر متعلقاته معهود فى القرآن لأن المتعلق معلوم للسامعين كما قلنا ، وهو بالنسبة لمن لم يؤمنوا ما دعاهم إليه النبى صلى الله عليه وسلم إجمالا من الأصول . أما المؤمنون فقد عرفوه مفصلا تفصيلا » .

« ثم وصف المؤمنين الذين يستحقون البشارة بقوله (وعملوا الصالحات) وأطلق فى هذا أيضاً كما أطلق فى كثير من الآيات لأن العمل الصالح معروف عند الناس بالإجمال ، وذلك كاف فى الترغيب وجعله تابعاً للإيمان متصلا به ، ولازماً من لوازمه ، وبين الأعمال الصالحة بالتفصيل فى آيات كثيرة كقوله تعالى : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) .. إلخ ، وكالآيات فى أول سورة (المؤمنون) وآخرها وآخر سورة الفرقان ، وأول سورة المعارج ، وغير ذلك كأن الله تعالى يقول : إن العمل الصالح معروف عند الناس لأنه أودع فى نفوسهم ما يميزون به بين الخير والشر، ولكن بعضهم يضل بانحراف يطرأ على نفسه فيخرجها عن الاعتدال الفطرى ثم يضل بضلاله آخرين . فتكون التقاليد والعادات الناشئة عن هذا الضلال هى الميزان عند الضالين فى معرفة الصلاح والفساد ، والخير والشر، لا أصل الهداية الفطرية. ولذلك قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . يعنى أن الإنسان لو ترك ونفسه لاهتدى إلى الحق ما دام بعيداً عن العادات والتقاليد .

وما يقوله الأستاذ رشيد رضا ، صحيح فى جملته، ويمكن أن نضيف إليه ، أن من يقرأ القرآن ويعتبر نفسه مخاطباً بآياته سيعرف حتماً الإيمان الذى يدعوإليه هذا الكتاب الكريم ، وأركان هذه الدعوة ، بل تفاصيلها ، كما سيعلم من هم المؤمنون الذى يعنيهم بالنداء الموجه بعبارة « ياأيها الذين آمنوا» ، وبذلك تنتفى كل شبهة ويزول كل لبس ، وهذا ما اقتضى عدم تعريف المؤمنين وعدم تحديد الأعمال الصالحة ، التى يقومون بها . لأنها واردة كذلك فى القرآن ، وقد طالبتهم آياته التى يتلونها أو يسمعونها ليل نهار . بأدائها . وحذرتهم من إهمال النهوض وحببت لهم الإسراع بالقيام بها ومداومة ذلك ، ووعدتهم لقاء الطاعة ، حسن الثواب . ولكن هذا لا يمنع أن القرآن ، قد عنى إلى توجيه الخطاب إلى المؤمنين بما نزل فيه من أحكام ومبادئ ، وأوامر ونواهٍ ، وأمر المؤمنين بكل دعوة خير أخرى غير الإسلام ، تأتى بها الأيام بعده ، وقد لاتكون داخلة فى مضمونه العام وإن كانت لا تتعارض معه ، ولاتعطل أحكامه ، وليس حتماً أن تكون هذه الدعوة دعوة دينية بل قد تكون دعوة اجتماعية أو فكرية ، مما تنشأ دواعيه بعد عهد نزول القرآن ، وجهاد الرسول وصحابته كتحرير الأوطان ، أو تحرير الطبقات المضطهدة ، أو الوقوف فى وجه حركات الأستغلال ، والمذاهب التى تفقد المجتمعات الإنسانية بسببها وحدتها وأمنها ، وحوافز تقدمها ، وإن كانت هذه الحركات يحتويها ، المفهوم العام للإسلام ، لأنه يدعوإلى إقامة العدل ، وتحريم الظلم ، وإكرام الإنسان كإنسان ، ومنع إساءة معاملته ، أو حرمانه من حقوقه ، أو تحقيره . والمؤمنون مهما كان موضوع إيمانهم ، قوم صالحون فى المجتمع الذى ينتمون إليه ، بدلالة أن ما يحركهم ويوجه نشاطهم هو إيمان بفكرة عامة لا بمصلحة ذاتية ، فإذا اقترن إيمانهم هذا بعمل صالح ، أى بعمل يراه المجتمع صالحاً ، كانوا أخياراً بلا شبهة ، إذ لم يحدث أن توافقت جماعة على اعتبار عمل ضار ، عملا صالحاً ، إلا فى النادر الذى

لا يحسب حسابه، فالناس كلما اجتمعوا ، غلبت عليهم خير صفاتهم وسادتهم أحسن بواعثهم :

أما اقتران الإيمان فى القرآن بالعمل الصالح ، فهو اقتران الشيء بما يتبعه بالضرورة لا اقتران الفعل بشرط أو ركن وجوده أو انعقاده كما يقول القانونيون ، بمعنى أن الإيمان يمكن تصوره ، كما قائماً بذاته ، مستقلا عن العمل الصالح الذى سيترتب عليه ، أو يدعو إليه. فالإيمان يوجد أولا فى النفس ، ولا يقترن عند ميلاده بعمل ، صالحاً كان أو فاسداً، والإنسان يؤمن أولا ، وقد يمضى وقت قبل أن تقوم دواعى العمل ، وتتهيأ ظروفه ، وإذا تصورنا مؤمناً ، قد فقد القدرة على الحركة والنطق ، فقد تصورنا حالة الإيمان المجردة غير المقترنة بالعمل . والقرآن نفسه ، فرق بين المؤمنين القادرين على الجهاد ، والمؤمنين العاجزين عنه، فميز الذين جاهدوا منهم على المؤمنين (غير أولى الضرر) ، إذ أن العاجزين ، لا يسألون عن عجزهم المكتوب عليهم بغير تقصير منهم ، بل إنه أحسن الشهادة فى حق الذين يطلبون أن يجاهدوا فلم يجد الرسول ما يحملهم عليه ، عادوا إلى بيوتهم وعيونهم تفيض من الدمع إذ حرموا شرف الجهاد .

ولكن القرآن قرن الجهاد بالعمل الصالح لأسباب منها .

أولاً — أن غاية الإيمان هى العمل الصالح فلا يدعى الناس للإيمان بالإسلام مثلا ، لمجرد إقناعهم بأنه دين صالح أو بأنه خير الأديان ، ثم يبقى كل شىء على حاله ، بل المقصود من هذه الدعوة أن يغيروا ، حياتهم ، ويضعوا حداً للسيء من عاداتهم ، وأن يستبدلوا بالقديم البالى من تقاليدهم ونظراتهم إلى غيرهم من الناس وعلاقاتهم ، بالجديد من هذه التقاليد والنظرات التى ينصح بها الدين الإسلامى. وهذا كله لا يتم إلا بأعمال ، بل بجهاد متصل مضن ، ومن هنا كان ترادف الإيمان ، والعمل الصالح ، تنبيها إلى هذا العمل ، واستحثاثاً للهمم للقيام به .

وإقناعاً للناس بأن هذا الإيمان الجديد ، سيتيح لهم عملا سينفعهم ، وسيحقق لهم خيراً .

ثانياً — أن الإيمان ، بطبيعته ، لا يدع مؤمناً فى حالة سكون مطلقاً . فما يكاد المؤمن يكتمل إيمانه ، حتى يرى نفسه مدفوعاً إلى عمل . ولو أراد أن يهدأ أو يؤجل سعيه أو يقلل من نشاطه لما استطاع . وقد يلقى المؤمن من هذا السعى الدائب ، عناء ويشقى به شقاء كبيراً ، فيعقد العزم على أن يخفف من حركته . ولكن ما يكاد يطلع عليه نهار اليوم التالى حتى يرى نفسه وقد نسى كل شىء ، و بدأ يومه أكثر نشاطاً .

ثالثاً — أن الإيمان هو حركة باطنية لا يراها الناس . ولاسبيل إلى تبينها ، ولا تبين نصيب صاحبها من الصدق ، ولو صدقنا كل من يدعى بأنه مؤمن ، لفتحنا الباب لكل مدع ، أما العمل الصالح . فهو الذى يميز الصادقين من الأدعياء والكاذبين ، وإذا كان الله تعالى عرف خبيئة نفس الأعراب الذين قالوا إنهم آمنوا ، فقال لهم إنهم أسلموا ولما يدخل الإيمان فى قلوبهم ، فليس للبشر من المعايير الإلهية شىء ، إلا العمل الصالح الذى لا يكاد يخطئه أصحاب الفطرة السليمة .

قلت إن الإيمان ، هو مرتبة تعلو كمال التصديق ، والاقتناع ، لأن التصديق والاقناع عمليتان عقليتان ، والإيمان فوق كونه ثمرة تدبر وتفكير. فإن الانفعال يدخل فى تكوينه فيكون ، للعاطفة والشعور ، دور فى تكوينه. فهو حالة تجيش لها النفس ، وتجمع لها كل القوى العاقلة والمدركة ، والشاعرة عند الإنسان ، تعلو به على التقديرات المادية ، وعلى قيود الواقع الملموس وتمنحه قوة تعينه على تحمل الحرمان ، والثبات أمام المصاعب والمصائب : (ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس ، والثمرات ، و بشر الصابرين) . فهى حالة لا زيادة فيها لمستزيد . لأن النقص الذى يشوبها يهبط بها إلى حالة أخرى قريبة من الإيمان ولكنها ليست هو . ولكن القرآن الكريم ورد فى كثير من آياته مثل ؛

(فزادهم إيماناً) ولكى يزدادوا إيماناً مع إيمانهم ، فكيف نفسر ذلك ؟

يقول القرطبي : وقد اختلف العلماء فى زيادة الإيمان ونقصانه على ، أقوال ، والعقيدة فى هذا على أن نفس الإيمان الذى هو تاج واحد ، وتصديق واحد بشيء ما ، إنما هو معنى فرد لايدخل معه زيادة إذا حصل . ولا يبقى منه شىء إذ زال فلم يبق إلا أن تكون الزيادة والنقصان فى متعلقاته دون ذاته ، فذهب جمع من العلماء إلى أنه يزيد وينقص من حيث الأعمال الصادرة عنه . لا سيما أن كثيراً من العلماء يوقعون اسم الإيمان على الطاعات ، لقوله . صلى الله عليه وسلم (الإيمان بضع وسبعون باباً ، فأعلاها قوله : لا إله إلا الله ، وأدناه إماطة الأذى عن الطريق) وزاد مسلم « والحياء شعبة من الإيمان » . وفى حديث على رضى الله عنه : إن الإيمان ليبدو لمظة بيضاء فى القلب ، كلما ازداد الإيمان ، ازدادت اللمظة . واللمظة مثل النكتة أو النقطة ونحوها من البياض . وفى كلام على رضى الله عنه ، حجة على من أنكر أن يكون الإيمان يزيد وينقص ألا تراه يقول : كلما ازداد الإيمان ازدادت اللمظة حتى يبيض القلب كله» .

« ومنهم من قال : إن الإيمان عرضى ، وهو لا يثبت زمانين ، فهو للنبى صلى الله عليه وسلم، متعاقب ، فيزيد باعتبار توالى أمثاله على قلب المؤمن ، وباعتبار دوام حضوره ، وينقص بتوالى الغفلات على قلب المؤمن .

« وذهب قوم من العلماء إلى أن زيادة الإيمان ونقصه إنما هو من طريق الأدلة فتزيد الأدلة عند واحد فيقال فى ذلك إنها زيادة فى الإيمان، وبهذا المعنى — على أحد الأقوال — فضل الأنبياء على الخلق ، فإنهم علموه من وجوه كثيرة أكثر من الوجوه التى علمها الخلق بها ، وذهب قوم إلى أن الزيادة فى الإيمان إنما هى بنزول الفرائض والأخبار

فى مدة النبي صلى الله عليه وسلم ، وفى المعرفة بها بعد الجهل غابر الدهر » .

انتهى كلام القرطبى بشىء من التصرف.

ويقول السيد رشيد رضا : قالوا إن التصديق لا يعتد به ، ويكون إيماناً صحيحاً إلا إذا وصل إلى درجة اليقين ، فإذا نزل عن مرتبة اليقين كان ظناً أو شكاً ، وليس الظن إيماناً يعتد به ، والشك كفر صريح . هذا وإن لليقين مراتب ، يعلو بعضها بعضاً ، وحصرها بعضهم فى ثلاث : ثلاث : علم اليقين ، وحق اليقين ، وعين اليقين ، فالارتقاء من درجة إلى أخرى زيادة . ويروى عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه أنه قال : لو كشف الغطاء ما ازددت إلا يقيناً . وهذا القول بنى على أن اليقين يقبل الزيادة فى نفسه . ثم إن فائدة الإيمان إنما تكون بإذعان النفس الذى يحرك فيها الخوف والرجاء وغيرهما من وجدانات الدين التى يترتب عليها ترك المنكر المنهى عنه وفعل المعروف المأمور به ، ولولا ذلك لم يكن للدين فائدة من إصلاح حال البشر ، وهل يقول عاقل إن الإذعان والخوف والرجاء من الأمور التى لا تقبل الزيادة والنقصان ؟ أما أنه لو كان إذعان جميع المؤمنين فى درجة واحدة لتساووا فى الأعمال . ولكنهم يتفاوتون فيها تفاوتاً عظيماً كما هو ثابت بالمشاهدة : فثبت أنهم متفاوتون فى منشئها من النفس وهو الإذعان الذى يقوى ويضعف بالتبع للإيمان . وهذا عين قبول الزيادة والنقصان .

« ونحن هنا نفهم معنى إدخال السلف الصالح فى الأعمال مفهوم الإيمان فى كل اعتقاد أثر فى النفس يتبعه عمل من الأعمال فهى سلسلة مؤلفة من ثلاث حلقات يحرك بعضها بعضاً . والإمام الغزالى : يعبر عنها بالعلم والحال والعمل ، فيقول : إن العلم بأن كذا يرضى الله تعالى أو كذا يسخطه مثلا يحدث فى النفس حالا يترتب عليها فعل ما يرضيه ويقتضى مثوبته ، وترك ما يسخطه ويقتضى عقوبته . ويقول : إن ترتب

بعضها على بعض واجب ، وعبارته إن العالم يوجب الحال والحال يوجب العلم » .

« وأما زيادة الإيمان بزيادة متعلقاته وهى المسائل التى يؤمن بها المؤمن التى يعبر عنها بشعب الإيمان، فهي ظاهرة لا تحتاج فى بيانها إلى شرح طويل فإن هذه المسائل لا يمكن أن تتلقى إلا بالتدريج ، فكلما تلقى المؤمن شيئاً منها ازداد إيماناً » .

وأقول إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، وإنما يوجد وينعلم ، واليقين، وعين اليقين وحق اليقين التى يقول عنها السيد رشيد رضا ، كلها درجات وتطورات سابقة على الإيمان متصلة به ومؤدية إليه ، ولكنها ليست الإيمان ذاته . لأن الإيمان — كما قلنا — حركة عقلية وشعورية ووجدانية ، تتضافر فيها القوى الواعية . وغير الواعية : من ملكات الإنسان العقلية والعاطفية : واليقين والتثبت حركة عقلية بحتة . ورب إنسان يوقن بأن التماس العلاج عند الطبيب ضرورة عاجلة ، وتفع حال لا ريب فيه، ومع ذلك لا يجد فى نفسه القدرة على تقرير طلب هذا العلاج ، والسعى إليه ، والخروج من الجمود إلى الحركة . وألوف من الناس يمارسون رذائل يعرفون هم قبل غيرهم . وبال عاقبتها . وسوء مغبتها وأنها توردهم موارد التهلكة ، ومع ذلك يواصلون ممارستها مغلوبين على أمرهم ، وقد يعزم الواحد منهم فى الليل على أن ينفض عن نفسه عار هذه الرذيلة ، فإذا أصبح الصباح نسى ما قال ، واستأنف حياته على العهد بها . ولكن انظر إلى هؤلاء ، وقد شملتهم حركة عامة . وإيمان شامل ، ضمتهم فى غمارها مع غيرهم من أبناء قومهم . صالحين وطالحين ، فإنك لتراهم ، وقد خلقوا خلقاً جديداً : صلابة عزم ، ونفاذ إرادة، واهتداء بالحق ، ودعاة وهداة إليه، ولعلك واجد خير مثل ، أو أوضح برهان على ما نقول ، فيما تركه الإسلام من أثر على أبطال الإسلام والأوائل الصناديد من أمثال عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص الذين نفروا

من دعوة ابن عمومتهم محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، وحاربوا دينه ، واضطهدوا أنصاره . ثم آمنوا ، فأشرقت نفوسهم ، والتمعت مواهبهم وكبرت شخصياتهم ، وأغلب الظن أنهم لو لم يدخل الإيمان قلوبهم ، أى لم يتح لهم الإسلام فرص العظمة الحقيقية ، لراحوا أفراداً ، كسائر أعضاء قبيلة قريش وبطونها وأفخاذها ، يشاركون فى الصغير التافه من معارك العرب الداخلية ، والضئيل الحقير ، من شواغلهم وخلافاتهم .

والوقائع أن الإيمان أشبه شيء بالكهرباء ، فالمصباح لا يضيء بفعلها إلا بعد أن تصل الأسلاك فى اللمبة إلى درجة الاشتعال ، كذلك الإيمان ، فإيمان الجاهل كإيمان العالم ، وإيمان الغنى كإيمان الفقير من حيث الطبيعة والأثر ، ولكن الاختلاف واقع فى اختلاف وظيفة كل من هؤلاء فى المجتمع ، ومواهبه الشخصية ، فإيمان العسكرى يدفعه إلى القتال ، وإيمان الفقيه يدفعه إلى البحث . وإيمان الشاعر والخطيب يدفع إلى القول والمنافحة بالحجة والبيان . ولكنهم جميعاً ، يؤثرون على أنفسهم ، ويبذلون أقصى الجهد ، ويسفكون الدم ، ويطيعون القائد منهم ، ولو كان عبداً حبشياً . الإيمان أيضاً كالكهرباء ، تسلط على المصباح الصغير فيضيئه ، ثم على المصباح الكبير فتضيئه ، وعلى الآلة الصغيرة فتديرها وعلى الآلة الضخمة فتديرها ، وهى فى جميع الأحوال هى هى لا تتغير ، وإنما تتغير المظاهر التى تبدو بها ، والأشكال التى تظهر فيها . وهى لا تزيد إذ تسطع فى الثريا ، ولا تنقص حينما تظهر فى الجهاز الصغير . إنما الذى يزيد وينقص طاقة الجهاز على استيعابها ، والانتفاع بها . أو لعل الإيمان هو الماء . يملأ الإناء حتى حوافه ، ولا يمكن إلا أن يكون ملء الإناء تماماً ، ولكن الإناء هو الذى يتغير ، فيكبر ويصغر ، ويطول ويقصر ، ويتسع ويضيق ، ويصبح يوماً أبيض اللون ، شفافه وآخر ، أسود اللون داكنه ، والماء هو الماء ، بشرط واحد ، هو أن يمتلىء الإناء به ، حتى لا ينقص عن سعة الإناء قطرة واحدة ، فلا

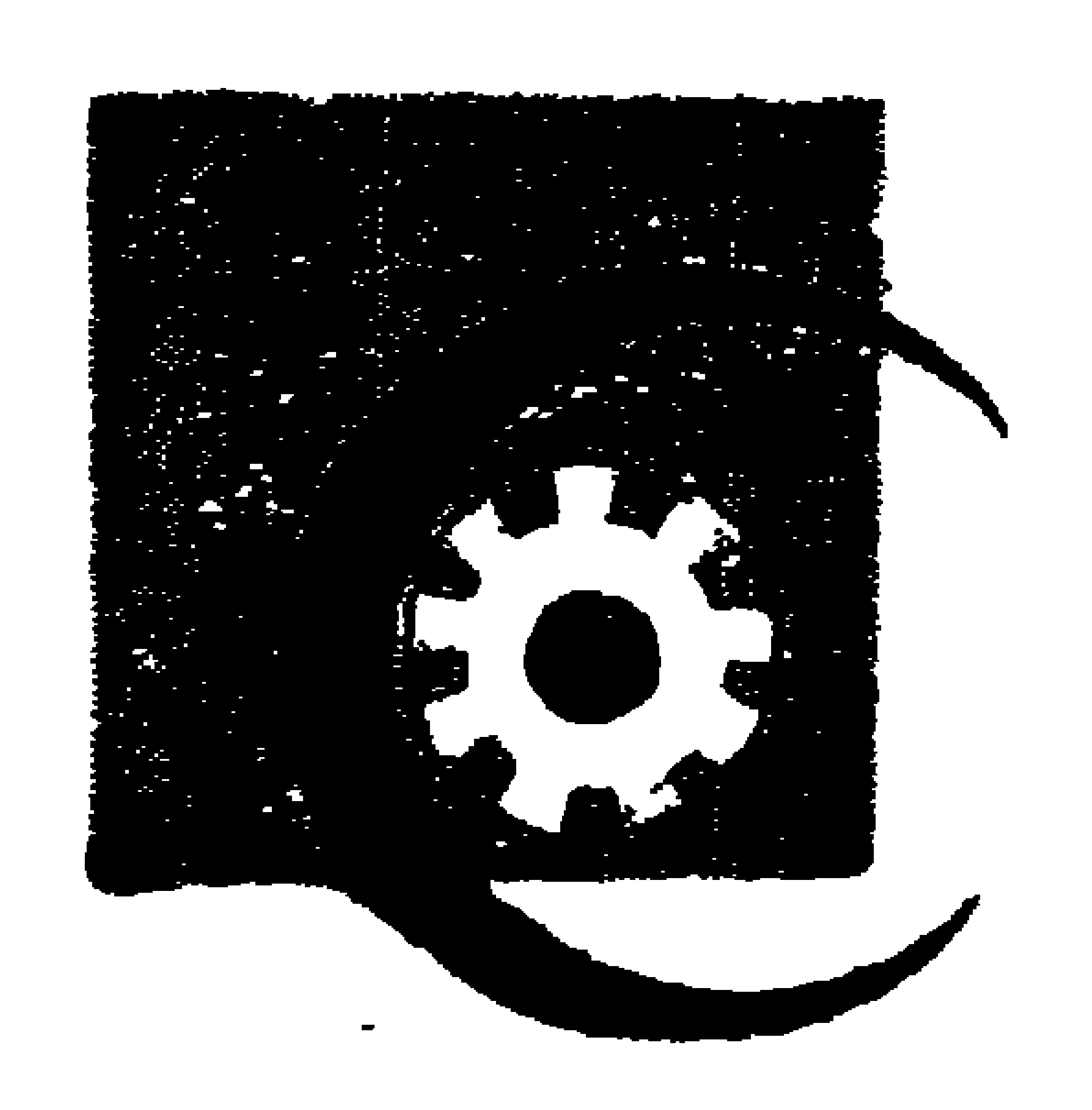
يتسع لسائل آخر ، ولا لأى شىء سوى الماء الذى شغله كله .

وما دمنا قد مر بنا أن الإيمان من الأجسام والأشخاص كالماء فى الأوانى ، فيمكن أن نتصور أن سعة الإناء يمكن أن تزيد . وبذلك تزيد كمية الماء التى يستوعبها هذا الإناء ، فالإنسان يمكن أن تنمو شخصيته ، وتزداد طاقاته ، وتعلو ملكاته ، فيصبح بإيمانه أكثر نفعاً ، ويصبح إيمانه أكثر سطوعاً ، ولعل لنا فيما ورد فى سورة الفتح ، ما يعين على زيادة قصور كون الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، فقد قال الله تعالى : « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم » . فالتغيير هنا لم يطرأ على الإيمان ، وإنما طرأ أولا على نفوس المؤمنين ، فقد كانوا فى حالة من الضيق والشك فى النصر ، والاضطراب فأصابهم من ذلك ، ما يشبه التقلص الذى تتضيق وتلتوى له الأجسام ، فإذا ما سكنت النفس ، زادت استيعاباً لهذه الطاقة التى لا تعلوها طاقة فى الدفع والإثارة ، والخلق والإبداع ، والتحدى والصمود ، وهى الطاقة التى غيرت الأمم ، وألهمت القادة والهداة ، والتى كانت عدة المؤمنين أتباع الرسل والنبيين ، والتى بها تتفاوت الشعوب ، كما يتفاوت الأفراد .

وبعض الناس ، يخفى عليه أن الإيمان بالله ، هو أغلى صور الإيمان ، ولكنه ليس الصورة الوحيدة له ، فالعلماء والمصلحون ، والفلاسفة والمفكرون ، والمكتشفون والمخترعون ، أولئك ، فى حاجة إلى الإيمان ، بل إنهم وأعمالهم ، ثمرة الإيمان . لولاه لما خطوا حرفاً ، ولا غيروا فرداً . ولا أضافوا جديداً ، ولا واجهوا خطراً . فالذين يحسبون الإيمان ، مرادفاً للخزعبلات والأوهام ، وتسلط الدجاجلة والمشعوذين ، هم من الجهل فى قمته ، فالإيمان عدو الجهل ، وعدو الظلم ، وعدو التخلف . وعدو الفوضى ، وعدو أكاذيب المتجرين بضعف الناس ، والمنتفعين بفقرهم وتفرقهم . فالإيمان هو النور الذى صاحب خطى الإنسان من الغابة والكهف إلى المدينة والجامعة ، ومن

النقش على الرمل ، إلى النقش على الصخر ، إلى الكتابة بالقلم ، ومن الذبالة التى تتراقص فى مهب الهواء ، إلى المصباح الكهربائى الساطع الباهر ، الذى لا تطفيه الرياح .

فالإيمان بقدر ما هو مبعث القوة ، ومصدر الطاقة ، هو مصدر العلم ، ومبعث النور .



الجهاد

الجهاد سنة الحياة ، فليس فى وسع الإنسان، أن يرفض الجهاد إلا إذا كان قد رفض الحياة نفسها ، فيصبح فى عداد الأموات ، وإن كان يروح ويغدو ، ويأكل ويشرب ، ولكنها حياة كالعدم إذ لابد أن يسأم فيها الخسف ، وأن يركبه الأقوياء بالمذلة والهوان ، ثم لا يلبث حتى يحرم من لقمة العيش ، وما يستر العورة .

ولعل أكثر الناس لا يعلمون أن جسد الواحد منهم ، ميدان معركة دائمة مستمرة لا تنتهى إلا بانتهاء حياته ذاتها : فالجسم الحى فى الإنسان البالغ مجتمع يتكون من أكثر من مليون بليون خلية ، وكل واحدة منها ، تقوم بعملها — من أجل صالح المجموع — تحت حراسة مشددة تنظمها وزارة الدفاع فى الجسم الحى ، فإذا تعرضت خلية واحدة للغزو أعلنت حالة الطوارئ ، وتدفقت الجيوش بكل حساب .

ولعل أكثر الناس لا يعلمون أيضاً « أن الكائن الحى بمثابة حصن منيع ، يقوم ويتصارع ، ويصد العدوان من خلال استحكامات رائعة فى جسمه ، فإذا انهارت تهدم الحصن أمام ضربات معاول الجراثيم »[1] .

---

(١) الدكتور عبد المحسن صالح .

وما يجرى فى الجسد الواحد ، هو صورة لما يجرى فى العالم الكبير ، فالحياة هى صراع مستمر بين الأحياء ، ولولا هذا الصراع ، لما تقدمت الحياة ، ولما ارتقى الأحياء ، ولقد نص القرآن الكريم على ذلك القانون العام إذ قال تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » . فمن هذا الدفع ، يبقى الصالح النافع ، ويختفى الضعيف . « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

فكما يفسد الطعام ويتعفن، إن لم تحسن صيانته ، وكما تزحف الحشائش على الحقل ، إن لم تتقن حمايته ، كذلك تتعفن الأفراد والشعوب ، فتلتف حول مصادر حياتهم حشائش وأعشاب الفساد ، إذا لم يسهر الفرد ، والجماعة ، على رد العوادى ، من الداخل والخارج . فى صورة الفساد والتحلل ، أو الغزو والغصب .

فالجهاد ليس تفضلا من الأحياء، ولا رخصة لهم أن ينتفعوا بها أو يتنزلوا عنها ، بل إنه ركن الزاوية فى بناء وجودهم ، والضمان الأول لبقائهم . ومن ثم كان الجهاد فى الإسلام فرض كفاية ، إن استطاع أن ينهض به عن الجماعة ، نفر منها ، فإن لم يستطع هؤلاء ، كان الجهاد فرض عين ، يلزم كل فرد ، أن يسارع إليه ، وإلا عم الله بغضبه الجميع ، فشملهم منه عذاب فى الدنيا ، وخزى فى الآخرة .

ولما كان الإسلام قد جاء ليدعو الإنسان إلى عقيدة صالحة ، فقد كان حتما أن ينشأ على أساس هذه العقيدة ، بلا إمهال ولا تراخ ، مجتمع قوى صالح . ذلك لأن العقائد الصالحة لا تدع للناس الذين آمنوا بها فرصة الاسترخاء والتواكل ، لأنها ما تكاد تدب فى صدورهم ، حتى تحملهم على العمل حملا ، فلا يطيب لهم نوم ، ولا يهنأ لهم عيش ، حتى يروا هذه العقيدة سائدة ، فإذا ما اتسع نطاقها ، وأظلت أناساً بظلها بدت فى الحال فيهم فضائل الصالحين ، فتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر ، وتبدت للناس شجاعتهم وصدقهم ، وأمانتهم وجدهم ،

وحسن تعاونهم ، وثباتهم فى المحن ، وحبهم للعلم ، وكرههم للذل ، فتنجم عن ذلك كله أمة أو دولة ، منيعة ورفيعة معاً ، يفيض نورها على الآخرين فينجذبون إليها ، ويسيرون خلفها ، وتصبح للناس إماماً. وما يزال أبناؤها يبحثون فى كل ناحية من نواحى حياتهم ، عن عيوب بها ، أو ثقوب فى ثوبها ، أو صدوع فى بنائها ، فيرتقون كل فتق ، ويرأبون كل صدع ، لا تغفل لهم عين ، ولا تفتر لهم عزيمة ، فإن تراخوا وأهملوا وسائل الوقاية أولا ، ثم أسباب العلاج ثانياً ، أخذهم الله بعقابه ، فضعفوا واضمحلوا ، فيطمع فيهم الطامعون ، فيصبحون فى أفواههم لقمة سائغة وبين براثنهم فريسة سهلة ، وحلت محلهم أمة أقوى منهم على الحياة ، وأعظم صبراً على شدائدها « إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليما ويستبدل قوماً غيركم » التوبة « وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » محمد .

ومن هنا صاحب الجهاد ، الإسلام منذ كان دعوة لم يعلنها نبيها ورسولها ، فقد خاطبه الله تعالى : « قم فأنذر وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر » .

وبهذه الكلمات القصار وضع القرآن دستور الجهاد لرسوله ، الذى تولى ، بسطه للناس ، وبيانه للمسلمين ، بقوله وعمله وتقديراته ، وكل لحظة من حياته .

فالإسلام بدأ بقيام الرسول ، فى ظل عقيدة وحدانية الله ، التى يمثلها لفظ « الله أكبر » ، ولفظ « قم » يوحى إلى السامع الشعور بانتصاب القامة ، وهو مظهر التلبية مع الانتباه والقوة والعزم . والإنذار هو إعلان الدعوة ، وبيان مخاطر إهمالها ، والعمل بغير مقتضاها . أما تطهير الثوب فهو كناية عن النظافة المادية ، وهجر الرجز ، هى علامة على النظافة الروحية . والعزم والانتباه ، والتلبية والطاعة هى جميعاً جوهر الجهاد ، وعدته ، فلن تجد إنساناً — مهما صغرت مكانته ، أو قلت تبعته ،

اجتمع له مضاء الإرادة وصدق التصميم ، مع طهارة الجسد والنفس ، إلا بلغ الذروة بين إخوانه ، وكان وجوده معهم ، حماية لهم من الذل ، وفساد الأمر ودعوة متجددة للجهاد . فالناس لا تغلبها الرذائل ، ولا تفشو بينها الفواحش إلا لغياب قائد ذى عزم ، عف اليد واللسان ، طاهر النفس والذيل . وفرد واحد مؤمن بعقيدة بريئة من آفات الطمع فى الدنيا ، والخوف من زوالها ، قادر على أن يحول الألوف إلى مثل قبضة واحدة ، تضرب فى صرح الفساد والظلم ، فيتناثر شظايا . كل شظية فى ناحية .

ولما كان الإسلام هو دين الإنسانية القوية المتآخية ، فقد دار كله من ألفه إلى يائه حول الجهاد ، وكانت العبادات فيه ، من صلاة وزكاة وحج وصوم ، تهيئة للجهاد ، وإعداداً للمجاهدين ، وكانت قواعده وأحكامه ، وأصوله وفروعه ، وقرآنه وسنته ، وعقيدته وشريعته تقنينا للجهاد ، وحثا عليه ، ودفعاً إليه ، فلا إسلام ولا دين ، بغير الجهاد ، بشعبه المختلفة ودروبه المتعددة : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع ، وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً » .

ولقد تولى القرآن الكريم ثم سنة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بيان أحكام الجهاد ، ثم بيان مواقف الناس ، إقبالا وتلبية ، وصداً ونفوراً ، وصدقاً وثباتاً ، ورياء وتردداً . ثم بين نتائج الأخذ به والجرى على سننه ، وعواقب الإهمال له ، والخروج عليه .

أما آيات الجهاد ، فمنها :

أولاً — ما يدعو دعوة مطلقة إليه ، ومن ذلك :

— « اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله » .

(المائدة)

— « انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله » .

(التوبة)

— « وجاهدوا فى الله حق جهاده » . (الحج)

ثانياً — ومنها دعوة إلى رسول الله :

— « يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين »

(التحريم)

— « يأيها النبي حرض المؤمنين على القتال » .

(الأنفال)

ثالثاً — ومنها تقرير أن الجهاد من صفات المؤمنين :

— « والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً » .

(الأنفال)

— « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم » .

(الحجرات)

— « يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله » .

(المائدة)

رابعاً — ومنها ما يقرر أن الجهاد يعود نفعه على المجاهد نفسه :

— « ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنى عن العالمين » .

(العنكبوت)

خامساً — أن أجر الجهاد عند الله عظيم :

« والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله » .

(البقرة)

« الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله » .

(التوبة)

سادساً — إن المؤمن المجاهد ، أعظم درجة من المؤمن الذى لم يجاهد :
« لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى . وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً » .

(النساء)

سابعاً — أن الله يمتحن عباده حتى يعرف المجاهدين من غيرهم :
— « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين » .

(محمد)

— « أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » .

(التوبة)

وإلى جانب هذه الآيات ، آيات تقرر مبادئ هى أس الجهاد وفى كل زمان ومكان ، وربما فى ظل أية عقيدة . حتى ولو كانت غير عقيدة الإسلام .
الآية الأولى :

— « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين » .
الآية الثانية :

— « إن الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم . قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً » .
الآيتان الثالثة والرابعة ، وهما متكاملتان :

— « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » .
— « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

أما الآية الأولى : فهى بيت القصيد فى دستور الجهاد ، إذ لا يثنى عزم المجاهدين إلا أمر من ثلاثة : عاطفة قربى أو صلة مودة ، أو حرص على الولد والزوج ؛ أو مصلحة مادية من تجارة أو مال ، أو إيثار للراحة والعافية . فإذا روض الإنسان نفسه ليتحرر من هذا الضعف بأنواعه فجعل الجهاد أسمى مقاماً من المال والبنين ، أى من المصالح والعواطف فإنه لا يلبث حتى يصبح قوة لا ترد ، فإنه ما إن يبدأ فى تذوق لذة الجهاد ويستمتع بخوض المعارك حتى تتحصن نفسه ضد الآفات النفسية . وهذا الصبر والمثابرة . وكلما مر المجاهد فى تجارب الجهاد الحلوة والمرة ، أفاد منها . فى الهزيمة يتعلم كيف لا يستسلم لليأس ، وفى حال النصر يتعلم كيف لا يستخفه الفرح ، وتصبح حياته حلقات من الدروس النافعة . والتجارب البانية ؛ التى تزيد نفسه اتساعاً ، وإيمانه ثباتاً وخلقه رصانة .

أما الآية الثانية : فهى مذهب فى الجهاد يتميز به الإسلام ؛ وإن كان قوامه فهما صادقاً للنفس الإنسانية ، فما أكثر الذين يحسبون الضعف عذراً ، ولا يدرون أنه الذنب ، ثم يقبلون على أساس التسليم بالضعيف ظلم الظالمين لهم ، وعسفهم وافتياتهم وجورهم عليهم ، ويقنعون من دنياهم ، بالدعاء على الظالم سراً ، ونقد سوء عمله همساً ، وتأييده علناً ، والتقرب إليه جهراً ، فقد أدرك الإسلام أن هؤلاء الضعفاء لا يقتصر ضررهم على أنفسهم ، وإنما يشيعون بمثلهم السيىء ، الضعف فيمن حولهم ، فكما أن الشجاعة تعدى ، فالضعف يعدى) ورب كلمة واحدة من خائف منخوب القلب ، تبعث فى نفس مجتمع هادىء مستقر ، الفزع ، وتلقى به فى أحضان الفوضى والاضطراب ، فدعاة الهزيمة فى كل مجتمع ، هم ألد أعدائها ، وإن كانوا من صميم أبنائها ، ولو برئوا من نقيصة

التواطؤ مع الأعداء ، أو التعاون معهم . ومن هنا جاء الإسلام مسوياً فى الجزاء والعقاب ، بين المظلوم الخانع ، والظالم الباغى . والحق أنه لا ظالم متجبر بغير مظلوم مستخذ. والضعفاء جديرون بأن يتحرروا من ضعفهم لو أضاءت نفوسهم الحقائق الروحية التى أشعل الإسلام جذوتها فى مثل آياته : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » « قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » « وما تسبق من أمة أجلها ، وما يستأخرون ». ولو استمدوا زاداً من هذه الحقائق التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، لزال عنهم خوفهم ، ولا نتفضوا مقاتلين لا يرهبهم سيف ، ولا يثنى عزمهم سجن ، ولا تزلزل عقيدتهم مشنقة ولا نطع .

ولقد امتلأ تاريخ المسلمين بالأمثلة على الانتفاع من هذه المبادىء والاهتداء بها ، فهاك خالد بن الوليد ، يموت على فراشه حتف أنفه ، بين نسائه وأولاده ، وهو الذى قاد الجيوش ، وخاض المعارك ، وتناثرت حوله الجماجم ، ومست بدنه مراراً شفرات السيوف ، فلما حضره الموت قال : لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها ، وليس فى جسمى موضع بغير طعنة وهانذا أموت على فراشى كالبعير ، لا نامت أعين الجبناء » وقد استخلص أبو بكر معنى هذه الكلمات وأشباهها ، وهو أمام من أئمة الجهاد ، عرف من شدائده وأهواله ، ما لم يشهده سوى صاحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد قال كلمة أحاطها الخلود بإطار منه : « احرصوا على الموت ، توهب لكم الحياة » فكانت خلاصة حياة المجاهدين كلهم فى بقاع الأرض ، وحقب الزمان .

وقد توج القرآن الكريم ، هذه المبادىء بهذا العقد الذى يعرضه الله تعالى على المجاهدين ، يشترى فيه منهم حياتهم وما يملكون ، على أن يهبهم الجنة ، والجنة عند غير المسلمين أو غير المؤمنين ، هى خلود الاسم ، ورفعة المكانة ، وراحة البال ، والقدوة التى لا تبلى . فبدل أن

يموت الإنسان على فراشه ، كما تموت الكلاب أو الذئاب ، يموت من أجل غاية كريمة ، تتشرف به أمته وأسرته ، والجنس الإنساني كله ، ويذهب فى التاريخ ، مثلا ، يعلم الناس كيف يرفضون الذل ، وكيف ينعمون بالعزة ، ورفعة المكانة .

وقد جاءت الآية الأخيرة ، إكمالا لسابقتها ، وإن كانت كاملة فيقول الله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » فبهذه الآية ومثيلاتها ، يزيح الإسلام آخر حاجز فى وجه النفس المؤمنة يفصل بينها وبين الجهاد . فالخوف من الموت غريزة من غرائز النفس ، ثبتها الله تعالى فيها ، إبقاء على الفرد ، ليبقى الجنس ، ومع أن الفرد يرى أن الموت آت لا مفر منه ، وأنه لا يفرق بين غنى أو فقير أو قوى وضعيف ، ولا بين مقاتل ومسالم ، أو طفل وشيخ ولكن سلطان الغريزة غالب . لم يعالج هذا السلطان ، بما يضعف أثره ويقلل من قيمته ، حتى يصبح الناس قادرين على مقاومة الظلم ، ورد عادية الفساد وحماية الوطن والعرض. ولذلك جاء الإسلام ، مؤكداً للمجاهدين ، بأن موتهم ، لا يعد نهاية لحياتهم ، وأن الشهادة فى سبيل الله ، بداية حياة أعظم وأسمى فى جوار الله . . وقد آمن المجاهدون المسلمون بهذه الآيات ، إيماناً ، كاملا لا تشوبه ريبة ، فسقط سلطان الموت الرهيب عن نفوسهم ، وأصبحت المعارك عندهم ، لوناً من الرياضة الروحية ، يستمتعون بخوضها حقاً ، ويهنأون بالموت فى حلباتها صدقاً ، ويتنافسون على طلب الشهادة ، كأنما يتنافسون على عرض من أعراض الدنيا نفيس وغال . ومن ثم امتلأت صفحات تاريخهم ببطولات ، لم يكن ممكناً أن تقع لولا هذا الإيمان .

إن الجهاد ، هو ثمرة الإيمان الأولى ، لذلك كانت رعاية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لإيمان صحابته ، وأتباعه ، فى المقام الأول عنده ، تولى تربيتهم حينما كان الإسلام مطارداً ، بالقول وبالفعل ، وقبل كل

شيء بالمثل يضربه ، وبالقدوة يقدمها . فقد كان لا يؤثر نفسه على المسلمين بأى شيء مهما صغر ، يقوم بنصيبه فى العمل مهما ضؤل ، أو مهما صعب ، ولا يخص نفسه بطعام لا يجدونه ، ولا بثوب لا يحصلون على مثله ، بل إنه كان عليه الصلاة والسلام ، أقسى المسلمين على نفسه حرماناً ، وتجويعاً ، وسهراً وتأديباً ، فتأسى به كبار الصحابة ، فذهبوا فى إنكار الذات ، وحب المشقة ، والصبر على الشدائد ، مثلا غير مسبوق فى تاريخ الحركات الدينية والسياسية معاً ، لا يدانيهم فى بذلهم وصبرهم ، وحسن بلائهم حتى ولا الذين فرضوا على أنفسهم الرهبنة ، فالرهبان يلزمون البيع والصوامع ، وأصحاب الرسول فى ميادين القتال ، يبذلون الروح والدم ، وينهضون بأعباء الدنيا. وقد ذهبت حجرة الرسول مثلا للتقشف والزهد ، فقد كانت مبنية من الجريد والطين ، وأكسية من الشعر ، تشد هذا الجريد بعضها إلى بعض . أما ارتفاع هذه الحجرة فقد كان يقول حسن البصرى : لقد رأيت حجرات الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنا غلام مراهق ، كنت أمد يدى فألمس السقف » .

ولم يكن تقشف الرسول ، لكونه نبيا يحمل مالا يحمله سواه من البشر ، فقد كان من أنبياء الله ملوكا كداود وسليمان وكان منهم وزراء كيوسف بن يعقوب ، وكان هؤلاء لا يعيشون عيشة الزهاد . لأن مقتضيات الحكم والملك تفرض عليهم أن يعيشوا كما يعيش الملوك والوزراء، ولكن محمداً رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، كان يعد أمة المسلمين ، لتنشر رسالة . ولتحمل إلى الناس ديناً ، وهو ما لم يكلف به لا داود ولا سليمان ولا يوسف عليهم السلام ، فمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان إماماً للمسلمين ، وقائداً لجماعتهم ، وهادياً لهديهم ، وكان يعلم أن أمته لن تنهض بعبء الرسالة ، إلا إذا تهيأت لفريضة الجهاد ، كأحسن ما يكون التهيؤ ، لكى تبقى نفوسها ساهرة يقظة ، لا تغفل عن فعل الشهوات بها ، وعبث النفس الإنسانية ، والنفس أمارة بالسوء. وقد نجحت

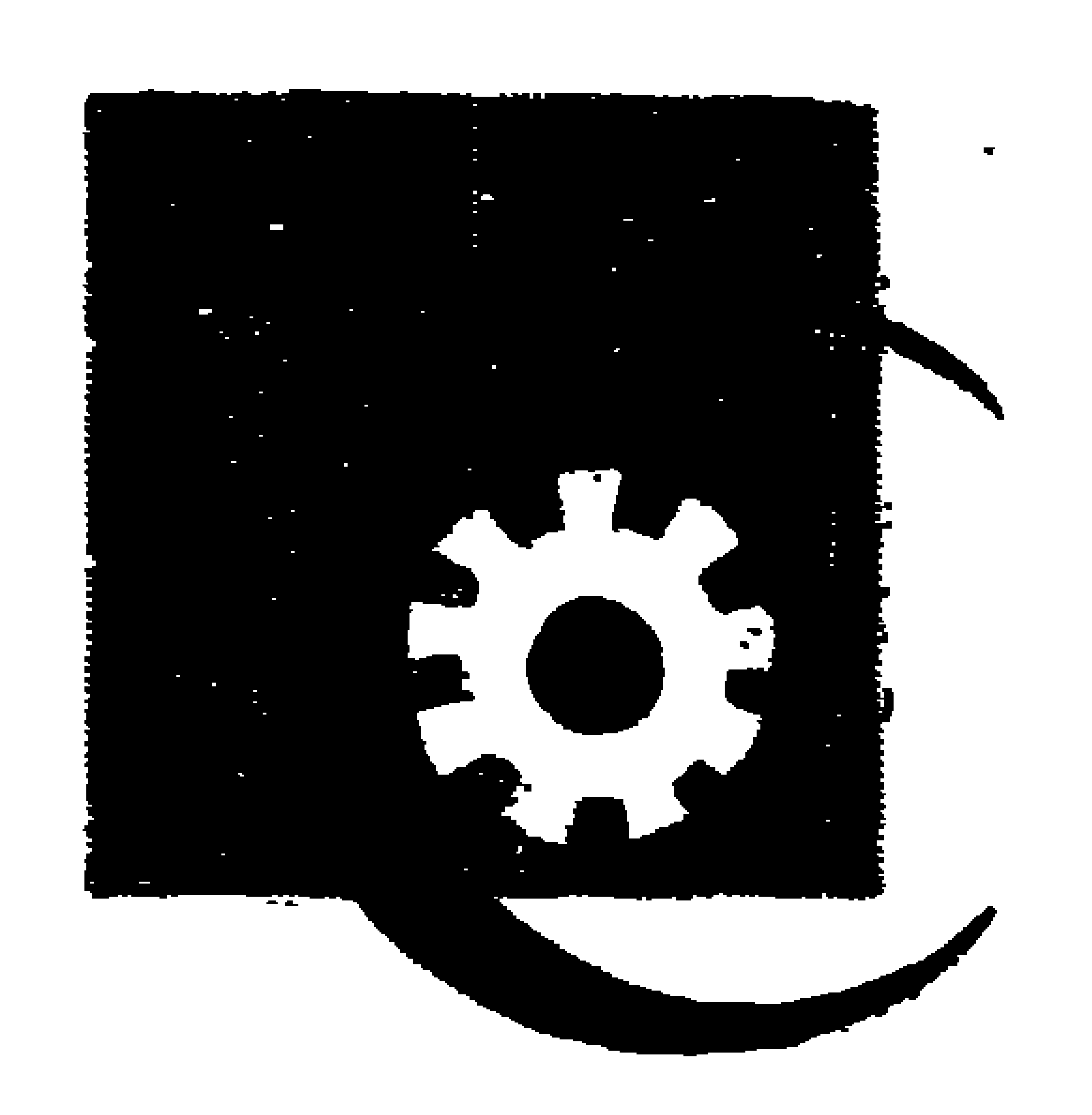
القدوة التى ضربها الرسول فحولت رجالا أصحاء أقوياء كعمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، رضى الله عنهما ، إلى رواد فى الصبر والجوع ، واحتمال الأذى ، ولو تركوا على سجيتهم وعاشوا عيشة أمثالهم من علية القوم فى العيش ، لأكلوا أفخر الطعام ، ولبسوا الخز والديباج ، وقد حاكاهم ، من يليهم فى الحركة المحمدية — كل على قدر استطاعته ثم اقتدى بهؤلاء وهؤلاء ألوف بعد ألوف من المسلمين ، فنشأ من ذلك مجتمع سلم ، يضبط نفسه ، بل يلجمها ويحملها على القناعة بالقليل والازورار عن الزخرف ، وكراهية الإسراف والبذخ ، ولذا كانت تلبية الدعوة إلى الجهاد عليهم سهلة ، ولهم محببة ، وبهذه الروح استطاع المسلمون الأوائل : أولا — أن يتلقوا الدعوة من الرسول ، وأن يفهموها ، ثم يؤمنون بها . ثم ثانياً — أن يقفوا إلى جوار الرسول ينافحون عن هذه الدعوة ، ويصدون معه حملات الشرك ، ويتحملون أذى المشركين ، وعسفهم صابرين ، ثم يتنازلون الكفر فى الموقعة بعد الموقعة ثم ثالثاً — ينقلبون من الدفاع عن العقيدة إلى الهجوم على خصومها فيقوضون سلطان قريش ، بكل جاهها ومالها وسيادتها على النفوس والعقول ، ثم رابعاً — ينطلقون من حدود جزيرة العرب ليحملوا راية الإسلام ، ويرفعوا كلمته ، ويخوضوا أقسى المعارك ، وأعظمها فى تاريخ العقائد والأديان ، فيثلون عرش الأكاسرة ، ويزيلون ملك الأباطرة : الفرس والرومان ، وقتئذاك ، دولتا الحرب والسياسة ، وفيهم دهاقين الفنين ، وأساطين الميدانين .

فالجهاد ، كما رأيت هو عقيدة ، ثم قدوة ، ثم تدريب ورياضة ومثابرة ومرابطة « يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا » .

وإذا كان داعى الجهاد ، قد دعا المصريين والعرب ، منذ مطلع القرن العشرين ، أو حتى قبل ذلك ليدفعوا عن حماهم المنهوب ، فقد زاد داعى الجهاد هذه الأيام إلحاحاً ، ليردوا عن ديارهم ، عدواً لم ير تاريخ الحروب ودسائس السياسة ، عدواً فى مثل حقارته وسوء طويته ،

وعدم تورعه عن استعمال أسوأ الأسلحة ، وشر الوسائل ، للوصول إلى غرضه . .

فقد وجب علينا أن نسارع إلى النظر فى كل ما يجرى فى حياتنا ، وأن نستلهم ما قرره ماضينا وتاريخنا وديننا ، وأن نعلم أنه لا نجاة لنا ، إلا بأن نرهف فضيلة الجهاد فى نفوسنا ، وأن نوقد شعلتها ، فنطهر حياتنا من كل صنوف الضعف والوهن ، وننقى نفوسنا من كل آفات الطمع فى الدنيا ، والتكالب عليها ، وحب المال الحرام منها ، والتنافس على الظهور ، وكراهية الخير لغيرنا ، وكراهية أن يتم الخير على غير أيدينا وأن نروض أنفسنا قليلا قليلا ، ولكن بغير إهمال ، ولا تراخ ، على تذوق الجهاد ، والفرح بنفائسه الروحية ، مدركين أن البطولات الكبيرة ، ليست إلا جماع أعمال صغيرة تساند بعضها بعضاً ، فإذا المترددمقداماً ، وإذا الخائف مندفعاً ، وإذا من ترك سلاحه ، يبحث عنه ، ويجلو عنه الصدأ ، ويشهره فى ضوء الشمس ، مردداً نشيد الانتصار .. « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .



المعجزات

لما كان القرآن هو كتاب الإسلام ، وكان الإسلام هو دين العقل ، فقد جاء فى هذا الكتاب الكريم ، فى شأن المعجزات التى أيد بها الله تعالى رسله وأنبياءه ، حكم واضح جلى : قوامه ، أن هذه المعجزات ، لم تحول جماعة ولا أمة ، من الشرك إلى التوحيد ، ولم تنقل قوماً من المكابرة والعناد ، إلى الإقرار بالحق والتسليم به ، إنما الذى هدى الشعوب والأقوام إلى دين الحق ، وأنقذهم من الضلالة والجهالة : بالنور والرشاد ، هو إيمان طائفة قليلة ، التفت حول الرسول ، وأيدته ثم احتملت فى سبيل عقيدتها الأذى والهوان : « وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين » .

هذه الفئة القليلة المؤمنة هى التى قال عنها الله تعالى : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » . وهذه القلة الصابرة ، المهتدية الهادية هى نفسها التى يعنيها جل جلاله بقوله : « قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث » .

وهذه الكثرة التى تشبه رغاء الإبل ، وزبد البحر ، والتى كانت جديرة أن تخيف المؤمنين الأوائل ، عند الوهلة الأولى ، لولا تثبيت الله لهم ، هى التى

يقول الله العزيز بمثل قوله تعالى : « وإن كثيراً من الناس لفاسقون » . « وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون » . « ولكن أكثر الناس لا يشكرون » . « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . « ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » .

ومذهب القرآن الكريم ، فى المعجزات ، ودورها فى رسالات الرسل ، ودعوات السماء ، هو أسمى المذاهب على الإطلاق ، فى التربية الروحية والسياسية معاً ، وطريقته هى أعظم الطرائق طرّاً ، فى التنشئة العقلية والنفسية على السواء . فما دامت الرسالات السماوية قد جاءت لتعلم الناس طريق الاهتداء إلى سر أسرار هذا الكون ، وإلى مفتاح العلوم المادية والأدبية فيه ، بالاهتداء إلى قانون قوانيته ، ألا وهو وحدة خالقه ، وثبات الأنظمة الحاكمة له ، والضابطة لحركات الأجسام والنفوس فيه . وإن لهذه الأكوان هدفاً سامياً تتجه إليه فى تطورها الدائب وتطور الأحياء فيها : « خلق السموات والأرض بالحق » . « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين » « ربنا ما خلقت هذا باطلا » .

ولكن الاهتداء إلى هذه الحقيقة الكبرى ، التى تقى الإنسان من الوقوع فى براثن الأوهام ، وفى شباك المتجرين بتلك الأوهام ، والمخوفين الناس بأشباحها ، والمكبلين لعقول البشر بأغلالها ، ليس سهلا ، فللإنسان من ضعفه « وخلق الإنسان ضعيفاً » ومن ركونه إلى ما ورثه عن آبائه وأجداده « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول » ، « قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا » ومن استكباره عن قبول الهداية على يد بشر : « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ، إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا » للإنسان من هذا كله موانع تصرفه عن الإيمان ، وعن تعرف الحقيقة ، وعن الإنسلاخ عن عادات أهله ، وموروث أجداده ، من استثقال الحركة والميل إلى الجمود ، ومن ترك الأثرة إلى الإيثار ، ومن ترك الشح إلى البذل ، لا بد له من قوارع تهزه من أعماقه ، وتعكر

عليه صفو جموده ، وتدعوه إلى التأمل والتفكير ، فكانت دعوات الرسل ، وكانت معجزاتهم وسيلة من وسائلهم . ولكن لم تكن هذه المعجزات قط كل الرسالة السماوية ، ولا كانت وسيلتها الوحيدة ولا جوهرها . فجوهر الرسالة السماوية ، هو إيقاظ أعظم ما فى الإنسان : عقله وقلبه .

وإذا نظرت فى القرآن ، وجمعت الآيات التى وردت فى شأن المعجزات ، لبدا لك من أيسر السبل ، وبأقل الجهد ، أن من الممكن تصنيفها ورد كل مجموعة منها إلى مبدأ . فالمجموعة الأولى تبين حكمة الله تعالى فى إرسال الآيات إلا تخويفاً .

والفقهاء المفسرون ، متفقون على ما يقوله القرطبى من أن (العبر والمعجزات التى جعلها الله على أيدى الرسل من دلائل الإنذار تخويفاً للمكذبين) وإذا كان لبعضهم تزيد فى هذا المعنى ، فهو فى حدود جوهره ، إذ منهم من يقول إنها تخويف من المعاصى ، فى حين يقول الإمام أحمد بن حنبل إنها تقلب الأحوال من صغر إلى شباب ، ثم إلى تكهل ومشيب ليقيم الإنسان أحواله ، فيخاف عاقبة أمره . فليست معجزة الرسل ، وسيلة إلهية ، لبث الإيمان فى قلوب الناس كافة . وإلا لو كانت الحكمة منها ذلك ، لا مستغنى عنها الله تعالى فقد قال : « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة » . فتحويل الناس من الكفر إلى الإيمان بأمره ، هو هين عليه ، ولكن الله يريد لعباده أن يؤمنوا بتدبر منهم ، ومجاهدة ، ومكابدة ، إذ بهذه المجاهدة والمكابدة ، تعلو نفوسهم ، وتسمو عقولهم ، ويصبح هذا الكون المسخر لهم ، طوع أمرهم بفضل العلم الذى واتاهم عن طريق النظر فى الآفاق وفى أنفسهم .

من أجل هذا ، قال الله تعالى : « وما منعنا أن نرسل الآيات إلا أن كذب بها الأولون » . ففى مرحلة من مراحل تطور الإنسان وتقدمه ، أرسل الله الرسل ومعهم المعجزات تؤيدهم : يبعثون الموتى ، ويبرءون الأكمه والأبرص . ويشقون البحر ، ويأتون طائفة من خوارق الأمور ،

فعجز عنها من يتعاطى فن السحر ، ويتقنه ويصل فيه إلى الغاية التى تبهر العقول ، وتشد النفوس . ثم تدرج الإنسان فى طريق العلم ، واتسعت أمامه سبل المعرفة ، فخاطب الله تعالى عقله ودعاه إلى النظر فيما يعرضه الرسل على هذا العقل الإنسانى من البراهين والأدلة ، والحجج وسمى البرهان العقلى « سلطاناً » وراح هؤلاء الرسل ، وكتب الله المنزلة ، يعرضون حقائق يساند بعضها بعضاً ، مستمدة من نفس الإنسان ، ومما حوله ، ومن ماضيه القريب ، وحاضره الراهن ، إلى جانب حقائق عن أحوال الأمم المندثرة ، يعرفها من أطلال وخرائب يمر بها ، ومن أقاصيص وحكايات تناقلها العرب جيلا بعد جيل .

ولهذا حينما ألح أهل مكة وسادات قريش فى أن يأتيهم رسول الله بالمعجزات ، رد عليهم القرآن الكريم « قل إنما الآيات عند الله » . « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » . « وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً » « إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين » .

وكان كفار مكة قد قالوا لرسول الله ما أثبته القرآن فى سورة الإسراء : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى فى السماء، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه » . فكان رد رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر ربه : « سبحان ربى ، هل كنت إلا بشراً رسولا » .

ففى عهد البشر الرسول وصل العقل الإنسانى إلى تمام نضجه ، فتصبح معجزته الكبرى تبعاً لذلك ، حجة مودعة فى كتاب يقرؤه الناس ، وتعيه عقولهم ، ويتدارسونه ، ويتناقشون فيه ، فيجدون فيه أساليب الفكر المحرر من الخرافة والوهم ، والمستقل عن السلطان ، والخارج من ربقة المحاكاة والتقليد .

ومن هنا نجد الطائفة الثابتة من الآيات القرآنية ، وقد تلاقت عند تقرير أن التجربة أثبتت أن الآيات لم تنفع فى كسر مكابرة المكابرين ، فقد سدوا آذانهم عن سماع صوت الدليل وأغلقوا عقولهم عن رؤية البرهان الذى يملأ عليهم دنياهم ، ويتجلى لهم أينما أداروا أبصارهم : « ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ». « وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين » . « وإن يروا كل آية لا يؤمنون بها » « وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » « وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ».

وإذا كان القرآن الكريم قد جلى هذا المبدأ العام ، أو هذه الحقيقة الكلية ، التى تكشف عن موقف الإنسان ، فى كل زمان ومكان من المعجزات : تدهشه ، وتثير عجبه ، وأحياناً تثير خوفه وجزعه ، ولكن ما تكاد تختفى من أمام ناظريه ، حتى يخف أثرها فى نفسه ، ثم يعود إلى عناده ومكابرته ، وإنكاره لمعناها ، وهزئه من دلالتها ، وقد أورد القرآن الكريم الأمثلة على ذلك . فموسى عليه السلام أرسل بآيات كثيرة قال عنها تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » ، ثم قال فى سورة النمل :

« وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين ، فلما جاءتهم آياتنا مبصرة ، قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا » وفى سورة القصص : « فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات ، قالوا ما هذا إلا سحر مفترى » . ونتيجة كل هذا ماورد فى الآية الثالثة والثمانين من سورة يونس : « فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه ، على خوف من فرعون » فنعود ثانية أو نعود أخيراً إلى القلة المؤمنة التى يقوم صرح إيمان الجماعة ، على إيمانها هى ، وجهادها ، وتنتشر الدعوة ، بفضل سعيها وثباتها ، مستمدة من كتاب الله ، النور الذى تشق بفضله طريقها ، والزاد الذى يخفف عنها شقاءها وعناءها .

وقد أوتى — بعد موسى — المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام آيات لا تدع مكابراً على عناده ، ولكنها لم تلق من الكافرين ، والمعاندين ، إلا ما لقيت معجزات موسى فقد قال الله تعالى فى سورة المائدة : « إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك ، وعلى والدتك ، إذ أيدتك بروح القدس ، تكلم الناس فى المهد وكهلا ، وإذ علمتك الكتاب والحكمة ، والتوراة والإنجيل ، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى وتبرئ الأكمه والأبرص بإذنى ، وإذ تخرج الموتى بإذنى ، وإذ كففت بنى إسرائيل عنك ، إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين » .

أما حواريو المسيح الذين يؤمنون به ، فهم بدورهم لم تكفهم هذه الآيات البينات التى رأوها رأى العين وآمنوا بها فطلبوا من عيسى عليه السلام ما جاء فى الآية التالية مباشرة للآية السابقة : « إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ، قال : اتقوا الله إن كنتم مؤمنين » .

وقد استشكل بعض المفسرين على وصف هؤلاء الحواريين بالمؤمنين ، لأنهم سألوا نبيهم شيئاً ، لا يدل على تمام الإيمان ، لأنهم يجربون ربهم ، ولأنهم قالوا : «هل يستطيع ربك » وهو سؤال فيه شك فى قدرة الله ، ويقول الزمخشرى فى [الكشاف] : إن الحواريين ادعوا الإيمان وأشهدوا على أنفسهم أنهم مسلمون مخلصون ، فى الوقت الذى قالوا فيه ما ينافى ذلك وهو قولهم . . « هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء » ثم يقول الزمخشرى ، إن الله تعالى ما وصفهم بالإيمان والإسلام وإنما حكى قولهم حكاية ووصله بما يدل على كذبهم منه وهو سؤالهم هذا وجوابه عليه السلام إذ أمرهم بتقوى الله إن كانوا مؤمنين حقاً ، وإصرار على السؤال بعد ذلك » .

ويرد قول الزمخشرى السيد رشيد رضا ، فيقول : ووجه رد هذا القول

أنه لو كان هو المراد من الآية لقيل : إذ قالوا يا عيسى ابن مريم «ولم يقل «إذ قال الحواريون» ، ولما صح أن تكون دعوى الإيمان من الحواريين نعمة من الله على [عيسى] وهى كاذبة .. ويرد قوله تسميتهم بالحواريين ما فى سورتى آل عمران والصف من إجابتهم إلى نصره .

وقد ختم السيد رشيد رضا هذا المبحث ، بما هو أشد اتصالا بموضوعنا فقد قال :

« فأمثال هذه الوقائع [نحو طلب مائدة من السماء ونزولها] التى يعهدها الناس فى كل زمان ومكان ، أن منها ما هو جبلة أو صناعة تتلقى بالتعليم والتمرين ، هى التى حملت بعض الناس على الشك والارتياب ، فى آيات الأنبياء ، وبعضهم على تسميتها سحراً مبيناً ، وبعضهم على التثبت منها ، للتفرقة بين الحق والباطل ، وهو ما طلبه الحواريون لأجل تحقيق العلم اليقينى الذى تطمئن به قلوبهم ، وتقوم به حجتهم على غيرهم ولهذه الحكمة ، جعل الله تعالى الآية الكبرى لرسالة خاتم رسله صلى الله عليه وسلم ، عملية حتى لا يبقى مجال لارتياب أحد من طلاب الحق المخلصين لهم وهى إتيان رجل أمى عاش بين الأميين إلى سن الكهولة بكتاب فيه أعلى العلوم الإلهية والأدبية والاجتماعية والشرعية... » .

على أن المفسرين اختلفوا هل نزلت المائدة التى طلبها الحواريون أم لم تنزل ، فقال الحافظ بن كثير : قال قائلون إنها لم تنزل ، فروى ليث ابن أبى سليم عن مجاهد فى قوله [أنزل علينا مائدة من السماء] قال : هو مثل ضربه الله ، ولم ينزل شىء . وروى جرير عن مجاهد قال : مائدة عليها طعام ، وعنه قال : أبوها أى رفضوها حين عرض عليهم العذاب إن كفروا فأبوا أن تنزل عليهم ، وقال أيضاً ، عن الحسن أنه قال فى المائدة : إنها لم تنزل ، وحدثنا بشر عن قتادة ، قال كان الحسن يقول لما قيل لهم [فمن يكفر بعد ، منكم فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين] قالوا لا حاجة لنا فيها فلم تنزل . ويقول رشيد رضا رحمه الله ، وهذه أسانيد

صحيحة إلى مجاهد والحسن، وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا تعرفه النصارى ، وليس هو فى كتابهم .

• • •

على أن جملة ما نخلص به من كل ما سلف ،أن معجزات الأنبياء فى مختلف العهود ، وعلى يد جميع الأنبياء ، لم تقنع مكابراً ، ولم تحرج جاحداً ،حين يتيقن هؤلاء فى أنفسهم صدق المعجزة وبلاغة دلالتها ، فإن لسانه يجحدها ، لأنه لا يتناول أمر الدعوة إلى الدين ، تناول العا قل المفكر ، بل ينظر إلى الأمر كله ، من ناحية مصالحه العاجلة ، من مكانة سيزيلها الدين الجديد أو ينتقص منها ، أو تسليم لبشر يراه هو أقل منه ، وأضأل شأناً ، وما يشبه ذلك من شهوات الدنيا الفانية : وجحدوها واستيقنتها أنفسهم .

وقد رأينا ماذا حدث من بنى إسرائيل، بعد النعمة التى ذكرهم بها الله بقوله : « وإذ أنجيناكم من آل فرعون » « وإذ فرقنا بكم البحر ، فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون ، وأنتم تنظرون » فقد حدث منكم بعد هذه النعم الجزيلة ، والمعجزات الصادعة ما أشار إليه الكتاب العزيز : « وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون» .

فإن هذه المعجزات التى عادت عليهم أنفسهم بالخير مباشرة ، إذ حررتهم من ربقة الأسر ، وأعفتهم من محنة الذل ، وأخرجتهم من كل ذلك سالمين ، فى حين هلك عدوهم شر هلكة فقد ابتلعه اليم وهم ينظرون ، ورأوا ذلك رأى العين ، لم يروه لهم أحد ، وعدوهم هو هو ، ملك ، لا حدود لسلطانه ، له ملك مصر ، وتجرى من تحته الأنهار ، وقد كانوا له عابدين ، ولسلطانه مذعنين ، ومن عذابه مشفقين ، وقد عرفوا أن هذا كله ، خوارق لا يعهدها الناس ، ولا تفهمها العقول ، فلم يقنعوا ، بمقابلة هذا كله بالسكوت عن شكره ، بل فعلوا أقبح ما نهاهم عنه نبيهم موسى عليه السلام ، وهو العودة إلى الشرك ، وعبادة العجل ،

الذى كانوا يعبدونه فى مصر ، حيث سامهم فرعون وبطانته الخسف : قتل رجالهم ، واستحيا نساءهم ، كأنهم جبلوا على حب الذل ، والرضاء بالعبودية ، وكراهية الحرية ، والنفور من الكرامة ، وقد كانت ذكرى خروجهم من مصر ، وعبورهم البحر ، وشقهم الماء ، كفيلة بأن تخلق منهم أمة أخرى ، وأن تقطع صلاتهم وشائحهم بكل ما عرفوه فى ظل الحكم الفرعونى .

وما فعله قوم عيسى ابن مريم عليه السلام ، هو شبيه بما فعله قوم موسى ، بل أقبح وأنكى ، فإنهم رأوا الآيات المعجزة التى أرسل بها ، من إحياء للموتى ، وإبراء للزمنى ، فضلا عن دعوته للحب ، وإيثاره للرفق ، فلم يزدهم هذا كله إلا جحوداً وكفراناً ، وقسوة وعناداً ، وانتهى بهم كل فسوقهم وكفرانهم ، إلى الائتمار بعيسى عليه السلام والسعى فى قتله وتعذيبه ، وما زالوا برؤسائهم ، وما زال رؤساؤهم وأحبارهم ، بالحاكم الرومانى بيلاطس ، حتى أسلموه للجلادين ، وما هدأت نفوسهم إلا حينما ظنوا أنهم صلبوه وقتلوه ، « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » .

* * *

فلما جاءت دعوة الإسلام ، اتخذ القرآن منهجاً جديداً لهداية الناس ، ذلك هو تذكيرهم بآيات المعجزة التى تصابحهم وتماسيهم . والتى لا تنفك تعرض نفسها عليهم ، فى كل لفتة تصدر عنهم ، وعند كل حركة تبدر منهم ، وهى على إلف الناس لها ، واعتيادهم إياها لو وجدت من يفكر فيها ، ويستظهر معانيها ، لألفاها ، فى مثل إحياء الموتى ، شدهاً للعقل ، وإدهاشاً للنفس ، دلالة على قدرة الخالق ، وإعلاناً لعجائب أكوانه .

فحسب الإنسان أن يسأل مما خلق ، ليواجه معجزة كبرى : « فلينظر الإنسان مم خلق ؟ » فإنه يخلق من ماء مهين ، فلا يلبث هذا الماء ، أن يصبح جنيناً ، فإذا هذا الجنين الضئيل وزناً ، أن يصبح كائناً تام الأعضاء ، فيبلغ وزنه أضعاف أضعاف ما كان ، فى حين تكبر

قدراته ، وتعظم طاقاته . فيصبح ناطقاً لا يكف عن الجدال ، مفكراً يحلق بفكره فى أجواء الفضاء . وفى أعماق الماء ، فإذا قورن هذا السيد الآمر الناهى ، المفكر المدبر . بهذه البداية الضئيلة المهينة ما صدق أحد أن هذا من تلك . وأن هذه البداية أفضت إلى تلك النهاية . فإذا التفت الإنسان إلى الأرض الهامدة الخامدة . وقد خلت من الحياة ، فإذا نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . رأى معجزة أخرى لا تقل جلالا ولا روعة .

لذلك أخذ القرآن يعرض هذه الآيات البينات على عقل الإنسان ووجدانه ، على صورة من التكرار والإلحاح . ليحرك هذا العقل ، وليلهم هذا الوجدان ، ليرى هذه المعجزات الباقيات فيزداد . إيماناً بربه ، ويزداد هو نمواً وعلواً ، ويزداد فكره اتساعاً ، وشعوره ارتفاعاً .

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة . فخلقنا العلقة مضغة . فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً . ثم أنشأناه خلقاً آخر . فتبارك الله أحسن الخالقين » .

« وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون ، فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ، ومنها تأكلون» ، « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء ، اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » . « فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شقاً ، فأنبتنا فيها حباً ، وعنباً وقضباً . وزيتوناً ونخلا وحدائق غلباً . وفاكهة وأباً » ثم كرر القرآن الكريم هذا المقطع ، وكأنه يوقظ نواماً . أو يبعث به أمواتاً : « إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » « إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون » « إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون » « إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون » .

فهل كان موقف الكفار والمشركين من معجزة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونعنى بها القرآن الكريم ، مباينا لموقف المشركين والمعاندين من آيات ومعجزات كل نبي أرسله الله تعالى ، لقوم ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور .

لقد قال الله تعالى عن القرآن « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً » . والعرب أنفسهم لم ينكروا أنه نظم لم يعهدوا شيئاً مثله من قبل ، فلا هو شعر ولا نثر ، ولا هو رجز ، ولا هو سجع ، ثم هو بعد ذلك ، عظيم الأثر في نفس السامع ، حلو الوقع في سمعه ، وقد أقر بهذا كله ، في كلمة جامعة واحد من أكبر ساداتهم . كان من أعظمهم تذوقاً للكلام الجميل ، وحفظاً له وقدرة عليه ، وهو الوليد بن المغيرة ، فعن ابن عباس ، أخرجه الحاكم وصححه البيهقى : أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي فقرأ عليه القرآن . فكأنه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال : يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا مالا ليعطوكه . فإنك أتيت محمداً لتصيب ما عنده . قال : قد علمت قريش أنى من أكثرها مالا : قال ، فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له . قال : وماذا ؟ قال : فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى : لا برجزه ، ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه هذا الذى يقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله الذى يقوله لحلاوة ، و إن عليه لطلاوة ، و إن أعلاه لمثمر ، و إن أسفله لمغدق ، و إنه ليعلو ، ولا يعلى عليه ، وأنه ليحطم ما تحته قال : والله ما يرضى قومك حتى تقول فيه . قال : فدعنى ، فلما فكر قال : إن هذا سحر يؤثر .

فالقرآن لم يلق من الكفار ، إلا ما لقيت كل معجزة أخرى ، من معجزات الرسل ، فقد انصرفوا عنه ، وحجبوا أسماعهم عن الإنصات إليه ، وقالوا فيه كل ما وسعهم أن يقولوه من قبيح القول وهجره

« قال الذين لا يرجون لقاءنا ، ائت بقرآن غير هذا أو بدله » ، يونس « وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن » . سبأ « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ، لعلكم تغلبون » . « فصلت » ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين » الأنعام.

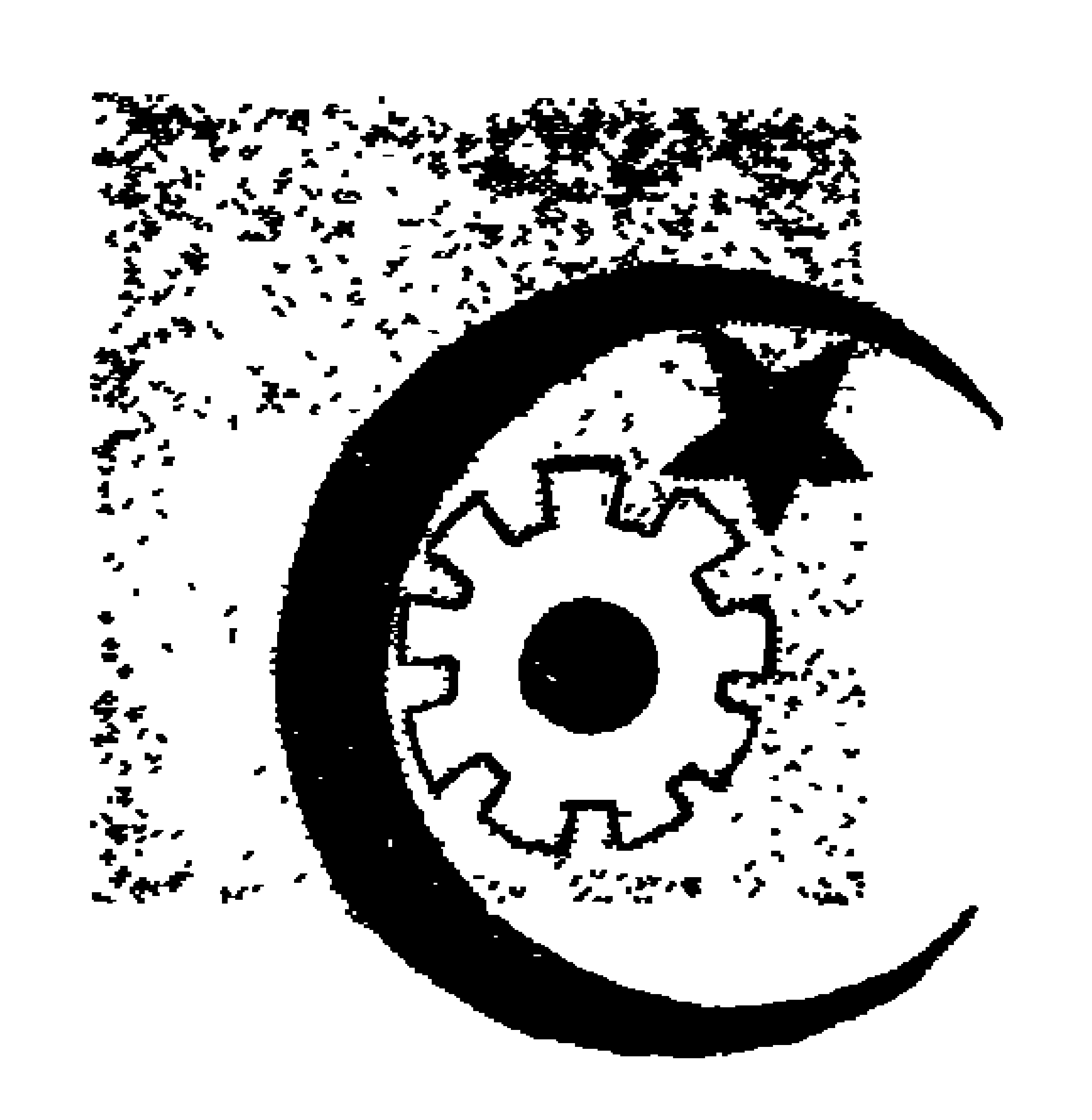
وانتهى رأى أكثرهم إلى أن القرآن هو أساطير « فيقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين » الأنعام « قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين » « وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين » النحل « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا» .

وأكدوا هذا بدعواهم أن أعجمياً كان يمليه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرد القرآن الكريم : لسان الذى يلحدون إليه أعجمى ، وهذا لسان عربى» النحل .

فالقرآن ، أياً كان الأمر ، عند الكفار شيء مفترى : «افترى على الله كذباً أم به جنة » . « أم يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله » يونس « أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشرسور مثله مفتريات » . «بل قالوا أضغاث أحلام ، بل افتراه بل هو شاعر » . ثم قالوا إن آذانهم لا تطيق سماعه ولا تفقه منه شيئاً « وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ، وفى آذاننا وقر » .

ولكن لولا هذا القرآن الذى فر منه ، الكفار ، وسخروا به ، وبصاحبه ما لبث أن أخذ عليهم الدنيا من أقطارها ، ذلك لأن الذين آمنوا به ، وبالنبى الذى أنزل عليه ، فعزروه ووقروه استمدوا منه قوة ، لم يعهدها بشر ، وثبتهم فى وجه شدائد لم يحتملها أحد ، وشق بهم مسالك لم تطأها قدم ، وتخطى بهم مهالك لم تخطر على قلب ، وألهمهم بأفكار لم تطرأ على فكر ، ومنحهم ثباتاً لم ينعم به شعب . ولولا هذا القرآن ، لما كان

هذا الدين ولما كانت هذه الأمة العجيبة التى خرجت من الفقر المجدب، والجهل المطبق : والفرقة المهلكة إلى سيادة العقل ، والروح ، وصدارة السياسة والحرب ، وإلى سلطان العقيدة والشريعة . وهذا هو الموطن الأسمى الذى تظهر فيه معجزات الله . وهو المجال الذى تتحقق منه آياته : بعد أن يصل اقتناع العقل إلى غايته ، فيحرك قوى النفس البشرية الأخرى . من عاطفة متقدة ، ووجدان مشرق ، ونفس مضيئة .



إياك نعبد

هذه هى الآية الرابعة ، بعد البسملة ، فى فاتحة الكتاب . وموضوعها عبادة الله ، على النهج الذى رسمه القرآن ودعا إليه الإسلام . فكيف يعبد المسلمون ربهم ، وما هى صلتهم به سبحانه وتعالى . وصورته عز وجل فى قلوبهم وعقولهم .

وسنعرض ما جاء فى بعض كتب التفسير . قال القرطبى : رجع من الغيبة أى عدل عن الحديث عن الغائب إلى الحديث مع المخاطب — وذلك على التلوين ، أى على سبيل تلوين الكلام . ثم قال و (نعبد) معناه نطيع ، والعبادة الطاعة والتذلل ، وطريق معبد إذا كان مذللاً للسالكين . ونطق المكلف به ، إقرار بالربوبية ، وتحقيق لعبادة الله ، إذ سائر الناس يعبدون سواه من أصنام وغير ذلك (وإياك نستعين) أى نطلب العون والتأييد والتوفيق . وعن أبى حفص الفرغانى : من أقر بـ (إياك نعبد وإياك نستعين) فقد برئ من الجبرية والقدرية .

وإن قيل : لم قدم المفعول على الفعل ؟ قيل قدم اهتماماً ، وشأن العرب تقديم الأهم . يذكر أن أعرابياً سب آخر فأعرض المسبوب عنه . فقال الساب : إياك أعنى ، فقال له الآخر : وعنك أعرض ، مقدماً الأهم . وأيضاً لئلا يتقدم ذكر العبد والعبادة على المعبود ، فلا يجوز نعبدك

ونستعينك . ولا نعبد إياك ، ونستعين إياك ، فيقدم الفعل على كناية المفعول . وإنما يتبع لفظ القرآن.

وانتقل إلى آية : اهدنا الصراط المستقيم فقال :

اهدنا دعاء ورغبة من المربوب إلى الرب . والمعنى دلنا على الصراط المستقيم . وأرشدنا إليه . وأرنا طريق هدايتك الموصلة إلى أنسك وقربك. قال بعض العلماء : فجعل الله عز وجل . عظم الدعاء ـــ جملته ـــ موضوعاً فى هذه السورة . نصفها فيه مجمع الثناء . ونصفها فيه مجمع الحاجات . وجعل هذا الدعاء الذى فى السورة أفضل من الذى يدعو به الداعى ، لأن هذا الكلام قد تكلم به رب العالمين : فأنت تدعو بدعاء هو كلامه الذى تكلم به . وفى الحديث . «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء» وقيل المعنى أرشدنا باستعمال السنن فى أداء فرائضك . وقال الفضيل بن عياض الصراط المستقيم طريق الحج . وهذا خاص والعموم أولى. وقال محمد: ابن الحنفية فى قوله عز وجل « اهدنا الصراط المستقيم» هو دين الله الذى لا يقبل من العباد غيره . وقال عاصم الأحول عن أبى العالية : الصراط المستقيم . رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه من بعده .

وأصل الصراط فى كلام العرب (الطريق) ، وحكى النقاش : الصراط الطريق بلغة الروم.

وقال النسفى : لما ذكر الحقيق بالحمد والثناء (أى الله تعالى) وأجرى عليه تلك الصفات العظام (أى الرحمن الرحيم) تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن، حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة فى المهمات، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات . فقيل إياك يا من هذه صفاته نعبد ونستعين . لا غيرك . فقدمت العبادة على الاستعانة ، لأن تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة أقرب إلى الإجابة . وأطلقت الاستعانة لتتناول مستعاناً فيه . ويجوز أن يراد الاستعانة به وبتوفيقه على أداء العبادات ، ويكون قولنا اهدنا بياناً للمطلوب من المعونة ، وتقديم المفعول بقصد الاختصاص والمعنى نخصك

بالعبادة وهى أقصى غاية الخضوع والتذلل . ونخصك بطلب المعونة ».

ثم قال : عدل عن الغيبة (فى قوله الحمد لله) إلى التكلم (فى قول إياك نعبد) والعرب يستكثرون منه ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل فى القبول وأحسن تطرية (لدى القارئ) وأحسن تطرية لنشاطه ، وأملا بتلذاذ إصغائه .

أما الأستاذ رشيد رضا فيقول :

ما هى العبادة ؟ يقولون هى الطاعة مع غاية الخضوع . وما كل عبارة تمثل المعنى تمام التمثيل وتجليه للأفهام واضحاً لا يقبل التأويل . فكثيراً ما يفسرون الشيء ببعض لوازمه . ويعرفون الحقيقة برسومها ، بل يكتفون أحياناً بالتعريف اللفظي ويبينون الكلمة بما يقرب من معناها ، ومن ذلك هذه العبارة التى شرحوا بها معنى العبادة : فإن فيها إجمالا وتساهلا . وإننا إذا تتبعنا أى القرآن وأساليب اللغة واستعمال العرب لـ (عبد) وما يماثلها ويقاربها فى المعنى — كخضع وخنع وأطاع وذل .. نجد أنه لاشيء من هذه الألفاظ . يضاهى (عبد) ويحل محلها . ويقع موقعها ولذلك قالوا : إن لفظ العباد . مأخوذ من العبادة . فتكثر إضافته إلى الله تعالى . ولفظ العبيد تكثر إضافته إلى غير الله تعالى لأنه مأخوذ من العبودية بمعنى الرق ، وفرق بين العبادة والعبودية بذلك المعنى ، ومن هنا ، قال بعض العلماء : إن العبادة لا تكون فى اللغة إلا لله تعالى ، ولكن استعمال القرآن يخالفه .

يغلو العاشق فى تعظيم معشوقه . والخضوع له غلواً كبيراً حتى يفنى هواه . فى هواه ، وتذوب إرادته فى إرادته ، ومع ذلك لا يسمى خضوعه هذا عبادة بالحقيقة . ويبالغ كثير من الناس فى تعظيم الرؤساء والملوك والأمراء . فترى من خضوعهم لهم وتحريهم مرضاتهم ما لا تراه من المتحنثين القانتين دع سائر العابدين ، ولم يكن العرب يسمون شيئاً من هذا الخضوع عبادة فما هى العبادة إذن ؟

تدل الأساليب الصحيحة ، والاستعمال العربى الصراح ، على أن العبادة ضرب من الخضوع بالغ حد النهاية ، ناشىء عن استشعار القلب عظمة للمعبود ، لا يعرف منشأها ، واعتقاده بسلطة له لا يدرك كنهها وماهيتها . وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به ، ولكنها فوق إدراكه ، فمن ينتهى إلى أقصى الذل لملك من الملوك لا يقال إنه عبده ، ما دام سبب الذل والخضوع معروفاً وهو الخوف من ظلمه المعهود ، أو الرجاء بكرمه المحدود إلا بالنسبة إلى الذين يعتقدون أن الملك قوة غيبية سماوية أفيضت على الملوك من الملأ الأعلى ، واختارتهم للاستعلاء على سائر أهل الدنيا ، لأنهم أطيب الناس عنصراً ، وأكرمهم جوهراً ، وهؤلاء هم الذين انتهى بهم هذا الاعتقاد إلى الكفر والإلحاد ، فاتخذوا الملوك آلهة وأرباباً » .

والاستعانة فى طلب المعونة . وهى إزالة العجز والمساعدة على إتمام العمل الذى يعجز المستعين عن الاستقلال به بنفسه .

وجاء فى التفسير الوسيط :

« من أول السورة إلى هنا ، كان الأسلوب للغيبة ، ثم تغير هنا إلى الخطاب حتى آخر السورة . وفوق ما يفيده تغير الأسلوب من التنبيه إلى موضوع الكلام ، فإن فيه إشارة لطيفة إلى ترقى الحامد كلما أثنى على ربه ، وأخلص فى مناجاته . فينتقل من مقام الغيبة إلى مقام الحضور »

« هذا وتقديم ضمير المفعول إياك فى كل من الجملتين للاهتمام مع إفادة القصر . كأنه قيل : إياك يا الله وحدك نعبد ، وإياك يا الله دون سواك نستعين ، وفى ذلك إقرار له تعالى بالألوهية والوحدانية . وقدمت جملة (إياك نعبد) على جملة إياك نستعين ، لأن المقصود الأول هو العبادة . ولما كان فعل الطاعة وتوفير الدواعى إلى فعلها لا يتأتى إلا بمعونة الله وتوفيقه ، فلهذا يطلب العبد الاستعانة بالله عقب تخصيصه بالعبادة إذ أن العبد لا حول له ولا قوة إلا بالله .

« ثم إن العبادة للمعبود هي الطاعة الخالصة له، المبنية على حبه، المؤداة على وجه يشعر بمنتهى الخضوع له . ولكون العبادة — بهذا المعنى — فلا تكون إلا لله وحده . وهي أخص من الطاعة التي تتحقق في مطلق الامتثال ، فكل عبادة طاعة ، وليس كل طاعة عبادة .

وفي الآية سؤال وهو أن مقام العبودية يقتضي التواضع والذلة لله تعالى ، فكان الظاهر أن يقول العبد : إياك أعبد وإياك أستعين .

والجواب : أن النون في (نعبد) و (نستعين) ليست للمتكلم المعظم نفسه ، ولكنها للمتكلم ومعه غيره من المؤمنين ، فكلهم يعبد الله ويستعين به وحده ، فهذا إقرار من المصلي ، وشهادة منه بأن هذا هو شأن المؤمنين مع ربهم ، وفي ذلك إدراج لعبادته واستعانته ، ضمن عبادتهم واستعانتهم » .

يجب أن نعرف بعد هذا : أولا ، أن المسلمين عبدوا ربهم . كما لم يعبده سبحانه وتعالى . أحد من قبل . ذلك أن فكرة الألوهية . عند المسلمين ، بلغت أعلى مراتبها من النقاء . بعد أن مرت في مراحل من الوثنية عديدة . بدأت أول الأمر بعبادة الوثن مباشرة ، ثم بعبادة الوثن المجسد . ممزوجة بأفكار تجردت عن المادية شيئاً فشيئاً ، ودارت حول الخير العام . والدعوة إلى التزام مسالك خلقي يتدرج نحو العلو شيئاً فشيئاً .

وقد بدأ الإنسان ، يؤمن بإله . يقيه شر الرياح والرعود ، أو يجلب له المطر ، أو يحفظ له زرعه ، أو قطعان ماشيته ، أو يحمي له أطفاله من المرض والموت . وقد كان هذا الإله ، محدود النفوذ لا يتجاوز القبيلة ، بل إن القبيلة الواحدة كانت تؤمن بعدة آلهة . لكل بطن أو فخذ من القبيلة إله خاص به ، قد يكون بينه وبين إله القبيلة شبه في المظهر العام . ولقد حد من نفوذ هذه الآلهة ، أن الغرض منها كان تحقيق أغراض القبيلة أو أجزاء من القبيلة تتصل بالحياة اليومية ، من توفير الطعام ، وتكثير الماشية ، وري الأرض ، وصيد الأسماك أو الطيور أو الحيوانات . وكان تنافس القبائل على موارد الرزق هذه شديداً ، وكانت المعارك تقع بسببه ،

فكان من الصعب أن يكون لهذه القبائل المتنافسة : إله واحد يظلها جميعاً ويحقق لها مصالحها كلها : فقد كانت مصالح متعارضة لا سبيل إلى التوفيق بينها ولكن كتب الفوز والغلبة لبعض القبائل الكبيرة على ما عداها. ففرضت على القبائل المغلوبة آلهتها وعبادتها ، وطقوس دينها : ولم يلبث هذا النصر أن اتبع بنصر آخر حتى دان الإقليم كله لسلطان قبيلة واحدة . ولإله هذه القبيلة وعقيدتها ومراسم دينها وعرف الإله الواحد للمنطقة ، ثم اتسع سلطان هذه القبيلة بعد أن استحالت إلى دولة ، فانتقلت ثقافتها : ومنها فلسفتها الدينية وآلهتها إلى الدول المغلوبة ، فعرف الناس لأول مرة ، وبسبب سياسى وعسكرى بحت . الإله الذى يظل بظله شعوباً اختلفت عاداتها وثقافاتها . وجنسها ولغاتها . ولكن النعرات الإقليمية حالت دون استتباب الأمر للملك المنتصر ، فى الأقاليم التى لا ينتمى إليها بجنسه ولغته . فرأى احترازاً واتقاء للآثار السيئة الناجمة عن العصبيات الإقليمية أن يرفع نفسه إلى مرتبة الإله فلا يعود منتسباً إلى إقليم ولا إلى جنس . وقد حدث شىء من هذا عندما انتصر الوجه القبلى على الوجه البحرى فى مصر . فأصبح ملك مصر . إلهاً حتى لا يتقاد شعور الوجه البحرى بخضوعه لملك من الوجه القبلى . وفى أكثر الحالات كان الإله ، لا يفرض سلطاته على قلوب وعقول أتباعه : إلا بمراسم تقذف الخوف فى قلوب رعاياه أنفسهم . وتحملهم على تقديم القرابين البشرية له وفى بعض الأحيان كانت هذه القرابين البشرية أطفالا صغاراً يسيل دمهم على المذبح . وفى البعض الآخر كان اله لا يهدأ غضبه إلا إذا نذرت الغوانى الحسان أنفسهن له . فبعشن فى المعبد : لخدمة الكاهن الأكبر ، ولأعوان الكاهن ، ثم إذا تقدم بهن السن قليلا ؛ رحن يمارسن البغاء فى المعبد وما حوله من الأبنية على أن يؤدى لخزانة الإله ، الرسوم التى تدفع لممارسته هذه الرذيلة . وكان الإله ، يعد اتباعه بالنصر إذا ما دفعوا له الضرائب ، وقدموا الإتاوات ، ولا يغير فى الأمر أن تكون حروبهم لسحق

الأعداء الذين لم يفعلوا شيئاً يستحقون معه السحق والبطش بهم إلا أنهم لا يؤمنون بدين الإله ، وأن أرضهم غنية . وأنهم بلاد أرقى من بلاد الإله فى سلم الحضارة والمعرفة . وإذا ضعف نفوذ الملك قليلا هبط من مرتبة الإله إلى مرتبة ابن الإله ثم إلى مرتبة مختار الإله ، ثم الحاكم باسمه فإذا ضعف كثيراً تولى الكاهن الأعظم الملك . وساد الإرهاب الدينى فى البلاد .

وقد بقى من كل هذه الآثار حتى فى الديانات السماوية . حينما نسخ أهلوها الكتب المنزلة ، وحرفوها ، وحينما علا شأن الكهان والأحبار . فأصبحوا هم سادة البلاد فى ميادين الحرب والسياسة . والفكر والثقافة . والمال والاقتصاد ، فاستأثروا بالعلم ، وحالوا بين الشعب وبين قراءة الكتب المقدسة وفهم ما فيها . وملأوا القلوب خوفاً منهم . بمحاكمهم المحوطة بالغموض والظلام . وأحكامهم الرهيبة التى تتسم بالقسوة والعنف .

فإله العبرانيين يعدهم بأن يأخذوا أراضى الغير . ويحرضهم على سرقة الشعوب ، وسلب مواشيها . وأسر رجالها وشبابها أو قتلهم والتمثيل بهم ، واستحياء النساء . والأحبار . والرهبان . يستغلون مسوحهم . فيحرمون على أتباعهم قراءة الكتاب المقدس . ويقيمون المحاكم لمطاردة خصومهم وأحرار الفكر . والعلماء ، ثم يثيرون العامة ، ليعلنوا حروباً يزعمون أنها مقدسة ، وهى حروب سلب ونهب . وهتك للأعراض ، لم تتحرج من الهجوم على ممتلكات دول مسيحية . وتقتيل أبنائها . وتدمير كنائسها وسلب نفائسها فى طريقها إلى بيت المقدس ، ثم إدارة حروب للابادة . ونحن ندع لبانديث نهرو يصف هذه الحروب فى كتابه (لمحات من تاريخ البشرية) :

« لقد طغى الحماس على كثير من الأوربيين فتركوا أوطانهم وممتلكاتهم وساروا إلى الشرق معتقدين أنهم ماضون إلى هدف نبيل . بعد أن أقنعهم البابا بأن ذهابهم هذا يكتب لهم الغفران ، ويمحو الخطايا

والذنوب ، غير أن هناك سبباً آخر للحملات الصليبية ، وهى أن باباً (روما) أراد إخضاع القسطنطينية لأن كنيستها كانت أرثوذكسية ومستقلة عن كنيسة روما ، ولا تعترف بالبابا بل تدعوه محدث نعمة .

« ولقد ولد هذا الموقف حقد البابا على القسطنطينية وصمم على إخضاعها ، ووضعها تحت نفوذه ، ولم يجد البابا ما يتذرع به خيراً من إقامة حرب صليبية والادعاء بمقاتلة الكفار . وهذا المثل هو أحد الأمثلة على دهاء السياسيين وأساليبهم المعوجة . عليك أن تتذكر هذا التنافس بين روما والقسطنطينية لأنه برز فى مناسبات عديدة إبان الحروب الصليبية » .

ثم قال :

يشهد التاريخ أن كثيراً من رجالات الحملات الصليبية قد ارتكبوا أبشع الجرائم وأشنعها . وشغلوا بإجرامهم حتى إنهم لم يصلوا إلى بيت المقدس . وقد انشغل البعض بقتل اليهود فى طريقهم أو ذبح إخوانهم المسيحيين . وقد أثار نقمة المسيحيين فى البلدان التى كانوا يمرون بها مما جعل هؤلاء يهبون لقتل الصليبيين الغزاة وطردهم ، وأخيراً وصل الصليبيون إلى القدس بقيادة جودفرى النورماندى بعد سبعين سنة من الاحتلال فاستولى على المدينة وأقام فيها مذبحة استمرت أسبوعاً ، وقد وصف هذه المذبحة شاهد عيان فرنسى بقوله : وصل الدم إلى رواق المسجد ، وإلى الركب ، وإلى سروج الخيل » .

فلما جاء الإسلام ، يدعو الناس ، إلى الإيمان بإله واحد ، لا شريك له ، ولم يتخذ له صاحبة ولا ولد . كانت دعوته وصولا بفكرة الألوهية ، إلى أقصى مراتبها وأصفاها ، وأنقاها من شوائب الوثنية القديمة والوثنية التى تسللت إلى عقائد وأسلوب تفكير بعض أهل الكتاب ، ومن رواسب الفكر البدائى ، فعلا الله سبحانه وتعالى فى عقيدة الإسلام عن الزمان والمكان ، وعن عصبية الجنس واللون ، وعن التحيز لأمة أو لجماعة أو لطائفة ، وتنزه عن الشكل والمادة ، فهو رب العالمين ، ورب السموات

والأرض ، وما بينهما ، ورب المسلمين واليهود والمسيحيين ، والصابئين ، بل هو رب المشركين والكفار ، والأبرار والفجار ، هو رب الصالحين والأبرار ، والقديسين والشهداء ، والمتقين والعلماء ، هو رب كل شيء ، ما نعرفه وما لا نعرفه ، وما نراه وما لا نراه ، ثم هو عز وعلا ليس كمثله شيء يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار منح الناس السمع والأبصار والأفئدة ، ثم لا تحيط به العقول ، ولا الأفهام .

فأصبحت العبادة ، فى ظل القرآن وبفضل الإسلام ، شيئاً يختلف طبيعة وأسلوباً ، وغاية ومنهجاً ، عن العبادة قبله .

فعبادة المسلمين لربهم ، وإن كانت طاعة كاملة له ، فإنها طاعة لا تقوم على إشعار العابد المؤمن بضعفه . بل تشعره بقوته بالله « لا قوة إلا بالله » . .

فالإيمان بالله يبعث فى قلوب المؤمنين ، شعوراً بالطمأنينة ، والطمأنينة تملؤهم قوة ، وتزيدهم إيماناً « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم» ، « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً » .

ولأن الدين ، طمأنينة وثقة وسكينة ، وليس فزعاً وخوفاً ، وخضوعاً مبعثه الرهبة واتقاء غضب الله وبطشه بعباده ، كانت الرحمة عنوان هذا الدين ، فلله تعالى ، من بين أسمائه الحسنى العديدة ، هو الرحمن الرحيم ، فى أول سورة من سور القرآن وفى مفتتح كل سورة من سوره الأربعة عشر ومائة سورة . ونبى هذا الدين يخاطبه تعالى بقوله : « يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » .

وقد وصف الله عز وعلا ، ذاته بأنه (القاهر فوق عباده) فى سورة واحدة ، فى حين أن اسم الرحمن جاء فى القرآن سبعاً وخمسين مرة ، واسم الرحيم جاء مائة مرة ومرة . كذلك وصف رسول الله صلى الله عليه

وسلم بالبشير النذير أربعة عشر مرة ولم يوصف بالنذير البشير إلا مرتين .
وتمتلئ سور القرآن الكريم ، بالبشريات تزف إلى المؤمنين والمحسنين والمخبتين والمتقين والصابرين .

ولما كان الإسلام قد جاء لينسخ العبادات القائمة على القهر والخوف ؛ وعلى جعل الإيمان بالدين أو الله ، نوعاً من العبودية الشبيه بالرق ، لا بالفقه بالإله ، والاطمئنان له ، واستمداد القوة منه ، فقد جعل الإسلام من خصائص المؤمنين ، والنعم التي أنعم الله بها عليهم ، هي تحررهم من آفتين من أكبر آفات النفس الإنسانية وهما آفة الحزن ، وآفة الخوف .

« من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، « فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، « ياعبادى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون » ، « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

ولذلك جاء بعد « إياك نعبد » مباشرة « إياك نستعين » ذلك ليثبت في الذهن ، والقلب معاً ، أن عبادة المسلمين لربهم ، مؤداها المباشر . ظفرهم بقوة تعينهم ، وتنفى عنهم الضعف ، بل تمنحهم القوة ، إذ تفتح لهم سبيلا ، ينجون منه من الغضب ، ويظفرون بمكانة المنعم عليهم .

والحق أنه ليس ثمة سبيل لمعالجة النفس الإنسانية ، وحمايتها من كل أمراضها ، وبعث القوة فيها ، إلا شعورها بأنها فى هذا الكون الفسيح ، مشمولة برعاية قوة ، هى قوة أقوى الأقوياء ، وقوة باعث الحياة ، وخالق الموت ، وصانع الكون الذى نعرفه ، أو نعرف بعضه ، بل الأكوان الأخرى ، التى لا علم لنا بها والتى نجاهد فى أن نلم بشىء فيما يجرى فيها ، أو يصدر عنها .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد ارتضى لنا أسلوباً للتوجه إليه ، هو أسلوب المتكلم « إياك نعبد ، وإياك نستعين » ، فأغلب الظن ، أن

حكمته قضت بفرض هذا الأسلوب الذى يشعر الإنسان بأنه يخاطب من يستمع . ويستعين بمن يمنح العون . ويثبت الذين آمنوا . ويحميهم ، ويهديهم خير السبل . وقد قال عن ذاته ، عز وعلا ، على لسان نبيه المرسل ، فى كتابه المنزل « وإذا سألك عبادى عنى . فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » . فهذا القرب الذى تعبر عنه عبارتا « إياك نعبد . وإياك نستعين » هو الغاية من تقديم الضمير . أى المفعول على الفعل . لأن الإسلام يقوم على إحداث هذه الصلة الحميمة بين العبد والرب ، وتأكيدها .

ولقد توالت الآيات . لتؤكد هذه الصلة . ولتبعث فيها الحياة ؛ وتجدد فيها القوة . فالله سبحانه وتعالى « يشرك المؤمنين فى عزته » إذ يقول سبحانه وتعالى : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » المنافقون .

بل إنه يسلك شهادته سبحانه وتعالى لذاته بأنه لا إله إلا هو . وشهادة الملائكة ؛ وأصحاب العلم من البشر فى سياق واحد إذ يقول عز وعلا : شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط »

ولعمرى إنه ليس ثمة تكريم للانسان ، أعلى من هذا التكريم ، وليس ثمة تعبير عن هذا التكريم ؛ أبلغ من هاتين الآيتين الكريمتين وبذلك سقطت جميع الحواجز الضعيفة ، التى حققها أحبار وكهان الأديان الوثنية ورهبان وكهان الأديان السماوية التى حرفت كتبها ، وشوهت أحكامها لأغراض الدنيا ، وإن بقيت أصولها نقية وكريمة وسامية .

ولذلك لم يكن عجيباً ، بعد كل هذه الأصول التى أرساها الإسلام ، أن يعقد الله تعالى مع عباده المؤمنين العقود ، أو أن يدعوهم إلى التعاقد والتعاهد معه « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له » (البقرة والحديد والمزمل والمائدة والتغابن).

إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة (التوبة) .

مر بنا أن العبادة فى الإسلام، هى غاية الطاعة والإذعان لله ، وقد أضاف بعض المفسرين ، لفظ التذلل له تعالى . وقلنا إن الإسلام والقرآن بريئان من كل شيء يؤدى إلى إشعار الإنسان بضعفه ، أو خنوعه ، وإن كان الإنسان ضعيفاً حقاً ، أمام خالقه ، فإن هذا الخالق العظيم ، أنزل كتابه ، وأرسل رسوله ، ليشعر عباده بأنهم أقوياء به ، وأن عبادتهم ، وانقيادهم له ، يؤنسهم فى هذا الكون الرحيب الرهيب ، ويشعرهم بأن لهم سنداً ، يرد عنهم العوادى ، ويطمئنهم عند حلول المخاوف ، ويسرى عنهم ، ويقربهم ، ويجدد أملهم ، عند حلول النوازل .

ولكن هل صحيح أن العبادة ، هى مجرد الطاعة الكاملة ، أم أن هناك عنصراً يسبق الطاعة ، ويؤدى إليها : وبغيره تصبح هذه الطاعة ، لوناً من انقياد أفراد القطيع ، لا يفكرون ، ولا يدرون من أمرهم شيئاً ، ولا يعرفون فيم السير ، ولأى غرض يتحركون .

إن العبادة : هى أولا : وقبل كل شىء ، التعرف على الله سبحانه وتعالى . ولما كان الله ، لا يبدو لنا ، جل وعلا ، ولا نملك النظر إليه ، ولا التحدث معه ، وإنما نرى آثاره البديعة فى صنع هذا الكون ، والأكوان التى نعرف وجودها ، استنتاجاً وبالبرهان العقلى ، دون أن نراها بحواسنا القاصرة .

والتأمل والتدبر والتفكير وأعمال القلوب ، والأفئدة ، والجوارح ، هى واجب المسلم الأول ، ليظفر بقبس من نور ، يلمح فى ضوئه ما يستطيع عقله أن يحصله من عظمة الله ، ودقة صنعه ، وثبات قوانينه ، وإحكام سنته . وقد بدأ القرآن ، يصف للمسلمين فى قصار السور الله سبحانه وتعالى ، ويدعونا إلى التأمل فى صنائعه وآثاره . فهو ينتقل بالإنسان من أن الله هو : « ملك الناس إله الناس » إلى أنه أحد . « لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » إلى أنه هو الذى « أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » . ثم عرض على المسلمين العديد من ظواهر الطبيعة التى يمرون بها ،

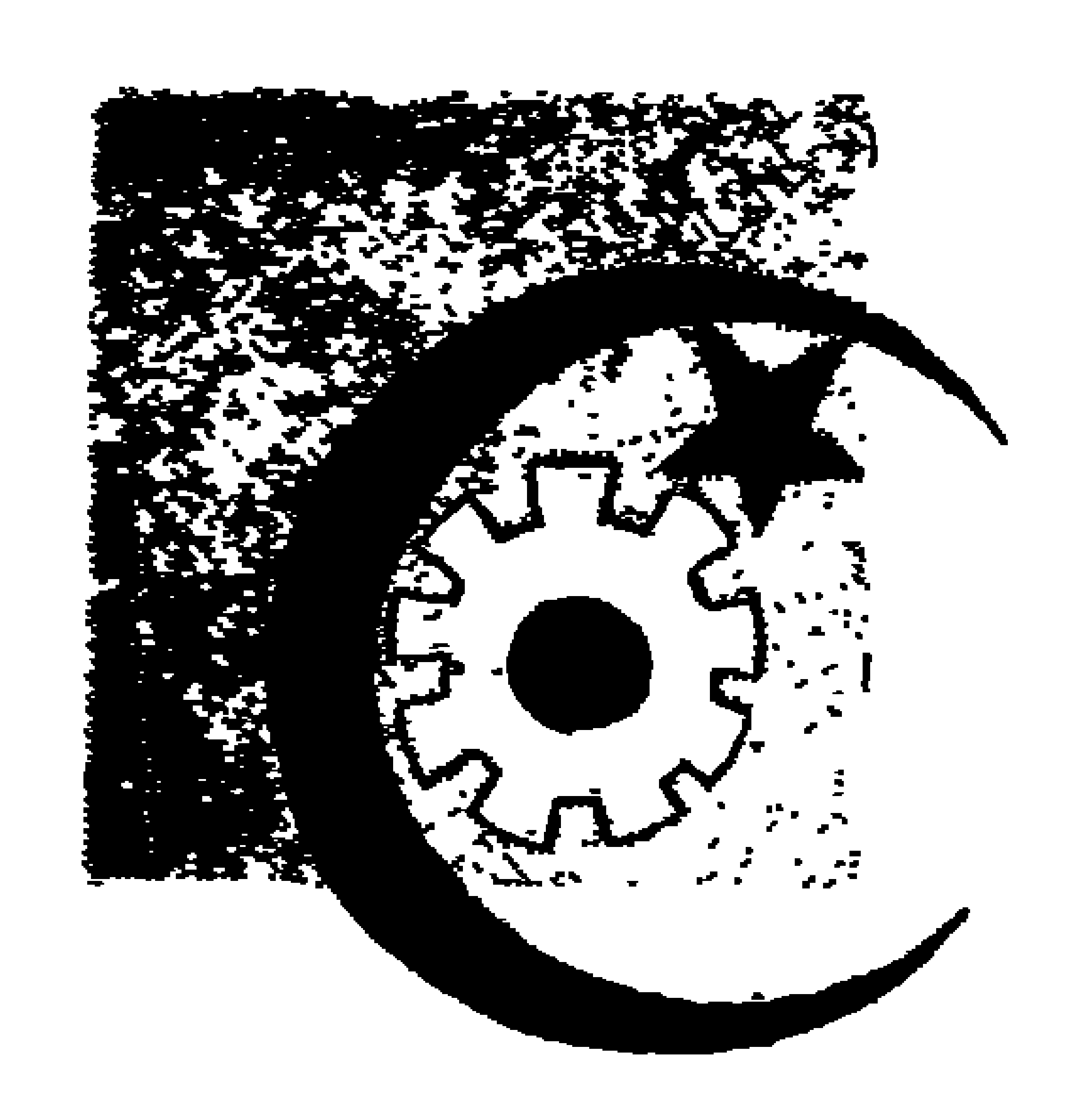
وقد لا يفكرون فيها فأقسم لهم بـ « والضحى والليل إذا سجى » و « والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى » « والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها . والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها » ثم بـ « والفجر » وبـ « والليل إذا يسر » ثم دعاهم إلى التأمل فى خلق الإنسان « ألم نجعل له عينين ، ولساناً وشفتين ، وهديناه النجدين » ثم إلى التأمل فى محيطهم « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت » . واستمر القرآن يقرع ذهن البدوى الذى كان قليل الحظ من العلم ، وإلى القرشى ، الذى كان قليل الحظ من التأمل والتفكير ، لأن الله واتاه بالمال والمكانة والسيادة ، واستمر يعرض على عقولهم وقلوبهم صوراً تأخذ بمجامع القلب : عن البحار وظلماتها : والسماء وبروقها ورعودها ، والنبات إذ ينبت ، والزهر إذ يينع ، والأمطار إذ تنهمر ، وعيون الماء إذ تنبثق . وهكذا وهكذا . حتى عرف الإنسان هذا التصور والتفكر ، فتنبهت نفسه النائمة . وتحرك عقله الساكن : وجاشت عاطفته الخامدة : وأصبح أهلا لعقيدة عظيمة لعقيدة أن لا إله إلا الله ، وأدرك العربى ، فى صحراء الجزيرة وفيافيها . الضارب فى مجاهل بواديها ونواحيها ، أنه شىء يعتد به ، وأنه قادر أن يكون سيد هذه الأرض ، لو أدرك ماذا يعنى القرآن بقوله إن الله سخر له البحار والأنهار ، والسموات والأرض ، والفلك التى تجرى بأمره والسحاب المتنقل فى الأجواء والنجوم التى ازدانت بها القبة الزرقاء .

وانتقل القرآن بالإنسان بعد ذلك إلى طور آخر ، كان من أكبر أطوار الحضارة الإنسانية ، هو إقناع الإنسان بأن الكون الذى يعيش فيه مسخر له فعلا لا قولا . سمع الإنسان فى القرآن : « وسخر لكم الفلك ، لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار » . (إبراهيم) وسمع أيضاً : « وسخر لكم الليل والنهار ، والشمس والقمر » (النحل) » وهو الذى سخر البحر لتأكلوا

منه لحماً طرياً «(النحل)» ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض (الحج).

فبعد الدعوة إلى التأمل والتدبر «أفلا يتدبرون ، أفلا يعقلون ، أفلا يبصرون» أصبح الإنسان مستعدا لأن يدرك معنى أن هذه الأفلاك ، والكائنات ، مسخرة له ، لأن القرآن علمه ، أن لله فى هذا الكون سنة أى نظاماً ، أو قانوناً ، وأنه قانون ثابت «ولن تجد لسنة الله تبديلا» فأخذ يبحث عن هذه السنن ، فلما بدأ يبحث ، كانت هذه البداية ، هى طليعة البحث العلمى الحديث ، القائم على تجميع مفردات المعلومات ، واستنباط القواعد الكلية منها ؛ وقد تتلمذت مدارس البحث فى أوربا ، على العرب فى جنوب أوربا وفى الأندلس ، فكانت النهضة الحديثة .

فعبادة المسلمين لربهم ؛ طاعة قائمة على المعرفة والإعجاب بما فى هذا الكون من بدائع الصنع ، ومن أحكام القوانين ؛ التى تتبدى فى الكائنات الكبيرة كالشمس والسماء والبحار والمحيطات ، وفى الكائنات الصغيرة كالنمل والنحل ، والنبتة تشق سطح الأرض ، وقطرة الماء ، تقف على كأس الزهرة ؛ فتحييها وتزينها وتزيدها جمالا .



الإسراء

جاء فى الآية الأولى من سورة الإسراء ، قوله تعالى :

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا ، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » .

ولم ترد إشارة إلى موضوع هذه الآية ، مع صريح نص كلمة الإسراء ، فى موضع آخر من القرآن الكريم ، ولعل القرآن الكريم ، لم يحتو على آية ، أحدثت ما أحدثته هذه الآية ، فى صفوف المسلمين . فالثابت أن أول من سمع من المسلمين بنبأ ما جاء فى هذه الآية ، من إسراء رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس ، وصلاته ببيت المقدس . وعودته إلى حيث كان يقضى ليلته، هى هند بنت أبى طالب ابنة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان يبيت عندها ، وكان أول ما تبادر إليها هو الإشفاق من تكذيب المسلمين والمشركين معاً لهذا الحديث ، وما يجره هذا التكذيب على ابن عمها ، من المتاعب والآلام ، التى كان قد امتحن بالكثير القاسى منها ، قبل تلك الليلة وقبل هذا الحديث ، فقد قالت له . يا نبى الله ، لا تحدث بهذا الناس ، فيكذبوك ويؤذوك . فقال : والله لأحدثهموه » والثابت أيضاً أن قريشاً حينما سمعت بهذا الحديث ، سرها إذ رأت فيه فرصة ، تشكك فيها فى صدق محمد ، التى لم تكف قط منذ

بعث بدينه ، أن تتهمه بالكذب ، بعد أن كانت لا تعرف قبل هذا الدين أحداً فى مثل أمانته وصدقه ، وكان هذا الحديث يعينها إلى جانب التشكيك فى صدق نبى المسلمين ، التشكيك فى سلامة عقله ، وقد كانت تصر على نسبة الجنون إليه كذلك ، وقد أثبت القرآن الكريم ، كل ما أرجف به المشركون ، فعن تكذيبه قال « وقال الكافرون هذا ساحر كذاب » وعن رميه بالجنون قال : « ويقولون إننا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون » .

وقد صدق حدس هند بنت أبى طالب ، فقد كانت تؤمن بابن عمها ، و بصدقه ، وتخاف عليه عدوان الكفار ، وقد هداها قلبها الصادق والصافى معاً ، إلى ما تحقق فعلا فقد أسرعت قريش إلى أبى بكر صاحب الرسول الأمين الذى لم يهز إيمانه ، ولم ينقص حسن وفائه له ، ما رآه من إجماع قريش على تكذيبه له ، واجترائهم عليه ، وتعذيبهم لمن شايعه . . أسرعوا إلى أبى بكر فى شماتة ظاهرة ، وحملوا إليه نبأ ما يقوله صاحبه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، ليروا كيف يسقط فى يده ، إذ يبدو له ، بما لا يدع مجالا للشك ، أن هذا التأييد الذى لا يعرف ضعفاً ولا تردداً ، وهذا التصديق الذى لا يأتيه الريب من يمين أو يسار ، هو تطوع مسرف ، وقد صدق ما خمنوا ، إذ ما كاد يسمع قولهم ، حتى قام فى يقينه ، أنه افتراء جديد ، فوق ما افتروا عليه من قبل فقال من فوره « بل أنتم تكذبون عليه » فوقع هذا الكلام من نفوسهم أحسن وقع . فقد كان شهادة من أحب الناس إلى محمد ومن أعظم الناس اطمئناناً إليه ، وتصديقاً بدعوته ، بأن محمداً يروى ما لا يصدق ، ويقول ما لا يصح .

ولكن الرجل المؤمن الصادق ، ما كاد يسمع منهم ، ومن أفراد ، لا يظن فى حديثهم الهزل ولا الخفة ، أن ما نقلوه إليه ، هو قول حبيبه وصفيه ، ونبى الإسلام ، ورسول الله ، حتى قال من فوره ، أبلغ ما حفظته كتب تاريخ العقائد والدعوات : لئن كان قال ما ذكرتم لقد صدق ، وخيب هذا الرد الحاسم والعاجل ، أملهم ، ولكنهم ألحوا عليه ، وهم

كالهازئين : أتصدقه على ما قال : » وهم يعنون أتصدق هذا الكلام الذى يشبه تخليط المدخول فى عقولهم ، أو المجانين لصريح دعوة الإسلام ، من أنه بشر ، وأنه لا يصدر عنه ، ولا يحق له ، إلا ما يصدر عن سائر البشر ، فهو يأكل الطعام ، ويمشى فى الأسواق ، وأنه ميت غير مخلد ، وأنه لا يعرف الغيب ، فأضاف إلى رده الأول الحاسم البسيط ، رده الثانى المكمل له ، والشبيه به ، وبقائله : إنى لأصدقه على أبعد من ذلك ، أصدقه على خبر السماء » .

وهذه المقدمة الجليلة لهذا النبأ الفريد فى حياة الدعوة المحمدية ، وتاريخ الحركة الإسلامية ، جديرة بأن تنال من حفاوة ، المؤرخ المسلم ، والمفكر المسلم ، مثلما نالت ، وقائع هذا الحدث ، من انتقال رسول الله من مكة إلى القدس أكان بروحه أم بجسده ، أم بالروح والجسد معاً ، ومتى وقع ذلك ، وماذا رأى عليه السلام بعد أن عرج به جبريل إلى السموات ، حتى بلغ سدرة المنتهى ، ثم مضى إلى أبعد من ذلك ، تكريماً من ربه ، وتأييداً له من خالقه ، فى وجه عناد شرس ، يرفض العقيدة ، ولا يلين للحجة الناصعة ، ولا يجنح لحكم العقل .

إن شك بعض المسلمين ، فى حديث الإسراء ، وارتداد فريق منهم وإن بدأ ظاهرة ، تدعو إلى حزن المسلمين وأسفهم ، إلا أنها آخر الأمر ، دليل على أن دعوة الإسلام ، أثمرت ثمرتها . فقد قام الإسلام منذ تسامع الناس بأمر دعوة محمد ، على أن محمداً هو بشر رسول ، وأنه لا يملك لإقناع العرب ، بصدق دعوته ، وبسلامة دينه ، إلا أمران أولهما : إعلانه الواضح البين ، أنه مرسل من السماء ، وأنه نبى الله ، وأن ما يقوله ، هو كلام الله ، وأن ما يدعوهم إليه ، ويحثهم على الاهتداء به ، هو دين خالق الخلق .

أما الأمر الثانى فهو أن مسند دعوته هو الحجة والبرهان ، وهو التأمل والتدبر ، والتفكر والتعقل ، والنظر فى آيات الله فى السماء والأرض

وفيما يجرى فى حياة الأحياء . وما جرى لآبائهم ، وأجدادهم . ما يؤدى كله ، إلى أن الدعوة التى يدعوهم إليها ، هى دعوة حق ، وأن شريعتها ، هى رحمة بهم . وصلاح لهم ، وتقويم لأمرهم .

وقد استقر هذا فى يقينهم ، وثبت فى إيمانهم ، وقامت عليه عقيدتهم. فلما جاء حديث الإسراء ، بدا لبعضهم ، أن فيه خروجاً عن هذا الأصل الأصيل . وتناقضاً مع بشرية رسولهم ، وعن القواعد المقررة ، فى طريقة الوحى للرسل ، وأسلوبه تبليغهم أوامر الله ، ونواهيه .

حفظ المسلمون آيات من القرآن الكريم ، إحداها فى ذات السورة التى استفتحت بآية الإسراء ، ترد على إلحاح المشركين فى طلب المعجزات المثبتة لصحة دعواه من أنه رسول الله . بأن هذه الآيات لا تنفع فى إقناع كافر ، ولا فى هداية مكابر . وأن الذين قبلهم جاءتهم الآيات المعجزة ، والدلائل الصادعة ، فلم تزدهم إلا عناداً وإصراراً على شركهم .

قال الله تعالى : « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » . « وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذى من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون». وفى السورة نفسها « ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك » وفى الأنعام « وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه ، قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون » ومنها « وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته » وفى سورة الإسراء ، الآية التسعون فيها بيان مبين لموقف المشركين ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى الأصح ، رأى القرآن فى موقفهم هذا من طلب الآيات المعجزة وتعليق إيمانهم عليها ، قال الله تعالى : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى

السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ؛ قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا » .

ولكن هؤلاء الذين هزهم حديث الإسراء ، ونبؤه ، وما لبث أكثرهم ، أن ثابوا إلى إيمانهم القديم ، وعادوا إلى صفوف المسلمين ، صافية نفوسهم ، قوية عقيدتهم ، فقد ظهرت لهم حقيقة كبرى ، هو أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد الإسراء ، هو هو محمد بن عبد الله ، قبل الإسراء ، الرسول البشر ، لا يكلمه الله تعالى إلا وحياً ، فلم يزعم لنفسه صلة مباشرة بالسماء ، ولم تتغير طبيعته ، كواحد من بنى آدم ، اصطفاه الله لرسالته ، فهو يأكل الطعام ، ويمشى فى الأسواق ، وهو ميت كما أن سائر الناس ميتون . وهو كما قال عنه القرآن الكريم لا يعرف ماذا يفعل به ، ولا يعلم الغيب ، «ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير» الأعراف « وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم » الأحقاف .

والمسلمون الذين كذبوا حديث الإسراء ، ورأوا فيه نبوا عن منهج الرسالة التى تلقوها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يكن سبب تكذيبهم . أنهم استكثروا على الله سبحانه وتعالى أن ينقل عبده من مكة إلى القدس ، وإن بلغت هذه المسافة ١٢٣٠ كيلو متراً ، فهم تعلموا من القرآن الذى استمروا يسمعونه ويحفظونه كله أو بعضه ويتدارسون آياته ، ويتناقشون فى معانيها ، أكثر من عشر سنوات ، إذ وقع حديث الإسراء قبل الهجرة بأقل من عامين أن تناقلوا آيات الله فى الكون وهذه الآيات ، تفيض بدلائل قدرته سبحانه وتعالى التى تعلو عن كل قدرة البشر أجمعين ، فهو خالقهم ، وخالق السموات والأرض ، وما بينهما ، وخالق ما لا تراه الأعين ، وما لا تدركه الأفهام . وحسبهم ما جاء فى سورة النحل ، وهى مكية ، من لفت الأذهان وتنبيه العقول ، إلى صور قدرة الخالق الأعظم ، جل وعلا مثل « خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون ، خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، والأنعام خلقها لكم فيها دفء

ومنافع ومنها تأكلون » « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون» .

ولكن الذين لا يستطيعون أن يتصوروا أن يكون فى الإمكان أن ينتقل محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى القدس فى ليلة واحدة : فهؤلاء هم المشركون الذين : وإن عرفوا اسم الله ، فقد أشركوا معه فى إدارة هذا الكون آلهتهم التى ورثوا عن أجدادهم الإيمان والتشفع بها عند الله ، وهم لم يتعلموا منهج الإسلام فى التأمل فى الكون ، وفى استظهار قدرة الله فى مخلوقاته ، وفى آيات هذا الكون فى آفاقه وفى أنفسهم ، ولذلك قالوا ، وهم يسخرون من حديث الرسول : هذا والله الأمر البين . والله إن العير تطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة ، أيذهب محمد ذلك فى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة » . وتطرد أى تتابع سيرها من غير انقطاع ، أو قالوا : أنضرب لها أكباد الإبل شهراً وتدعى أنك أتيتها فى ليلة ؟ » .

هؤلاء هم الذين يحتاجون أن نقول لهم إن رسول الله لم يقطع المسافة بين مكة والقدس فى ليلة واحدة ، وحده ، وإنما الذى نقله إليها ربه ، وأنتم لو تدبرتم خلق السموات والأرض ، ولفكرتم فى أطوار الإنسان منذ يبدأ أطواره من تراب إلى ماء مهين إلى نطفة ، لعرفتم أن صانع هذا كله ومبدعه يكون من أهون الهين عليه أن ينقل فى لحظة لا فى ليلة ، لا فرداً واحداً ، بل أفراداً ، بل أمة بأسرها ، من أقصى الأرض إلى أقصى الأرض لو شاء هذا ، وانصرفت إليه إرادته سبحانه ، ونحتاج أن نقول مثل هذا القول لأهل هذه الأيام ، لأنهم ينظرون إلى الإسراء باعتباره عملا من أعمال الرسول ، لا مظهراً من مظاهر الإرادة الإلهية ، لأنهم ينكرون أصلا هذه الإرادة الإلهية ، ومنهم من يعتبر كل ما ينسب إلى هذه الإرادة ، لوناً من اللغو ، لا يصدر إلا عن ذهن مضطرب ، أو عقل

قاصر تجوز عليه أحاديث المعجزات ، لا يعرفون منها إلا نوعاً واحداً هو معجزات الإنسان أى معجزات العلم الحديث الذى ابتدع الطائرة والصاروخ وصعد إلى القمر ، وغاص فى أعماق المحيطات .

أما مشكلة الإنسان القديم قبل أن يهتدى بنور الدين . هو استكثاره على إنسان مثله أن يكون على صلة بالسماء ، أو أن تختاره السماء ، ليبلغ عنها ، وينقل ، وصاياها ، وهدايتها ، لذلك قالوا : « أبشر يهدوننا ؟» (التغابن) كما قالوا « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء» . وفى سورة إبراهيم « قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا » . « ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم » . «وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا » .

لذلك اطمأنت قلوب المسلمين وعقولهم معاً ، حينما أعلن لهم نبي الإسلام سبحان ربى «هل كنت إلا بشراً رسولا» (الإسراء) . وحينما أمره ربه «قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد». وازداد قلوبهم وعقولهم اطمئناناً إلى قول الله تعالى : «وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب » . فمحمد بن عبد الله ، بشر ، ولا يزعم لنفسه أكثر مما لغيره من الناس من حق ، إلا بما يوحى إليه، وهو مطيع لهذا الوحى ، خاضع له ، مذعن لحكمه ، لا يتميز بشىء إلا بكونه جديراً بأداء هذه الرسالة ، وهى ابتلاء وامتحان ، ومشقة وشدة ، لا تمنحه راحة ، ولا تغدق عليه ، من رغد العيش ولينه ، قليلا أو كثيراً . وقد رأوه يحمل نفسه ، من الحرمان ، ما لا طاقة لهم به ، ولا صبر لهم عليه . ثم جاء حديث الإسراء ، فلم تتهيأ عقولهم ، لحسن استقباله ، فكان منهم ما كان من الخروج من عهدة الإسلام ، لفترة لم تطل فى الأغلب الأعم .

ولكن هل لنا أن نستنتج أن المسلمين الذين ارتدوا ، ساورهم الظن بأن إسراء الرسول إلى القدس ، ثم تعريجه إلى السموات مع جبريل حتى

سدرة المنتهى ، ثم المضى وحده إلى ما بعدها ، هو نسخ لبشرية الرسول ، وأن الرسول ، الذى تتفتح له أبواب السموات ، فيصعد إليها ، ويهبط منها سيحل محل محمد بن عبد الله الذى ألفوا أن يعيش معهم كواحد منهم ، وأن يحمل مثلهم متاعب الحياة الإنسانية فيأبى أن يجعلوا له عرشاً يقيه من أذى الناس ، كما اقترح عليه عمه العباس ، فيأبى إلا أن يبقى معهم : يجاذبونه رداءه ، ويناله غبارهم ، حتى يكون الله فيريحه منهم ، أو كما قال . إلا أن الضجة التى صاحبت حديث الإسراء ، قد هدأت ، فتأمل المسلمون وغير المسلمين ، حياة الرسول ، فإذا هو هو ، لم يتغير من حياته شيء ، ولم تتغير علاقاته بأصحابه وأعدائه ، فهو وفى للأولين ، موطأ الأكناف ، سهل ، يؤثر الرفق فى كل شىء ، ويحبه فى كل شىء ؛ أما أعداؤه ، فهو لا يغفل عما يبثون من شر ، شديد عليهم إذا بدأ منهم : الأذى أو الشروع فيه ، ولكنه مع ذلك لا يغدر ولا يفحش ولا يمثل . إذن رحلة السماء زادت بشريته صفاء ، ولكنها لم تمحها ، وزادته تحملا لمتاعب الرسالة ، وصبراً على أعبائها ، ولكن لم تجعله إلهاً ، أو قريباً من إله ، بل هو يكره من أصحابه أن يبالغوا فى تعظيمه ، كما يفعل الأعاجم مع سادتهم ، وإن كان موضع الحب الذى لا يعدله حب ، وموضع التقدير والتبجيل الذى لا يشبهه تقدير وتبجيل .

لقد كانت رحلة — على ما روته الأحاديث — على ثلاثة مراحل ، الأولى من مكة إلى القدس ، والثانية من القدس إلى السموات حتى سدرة المنتهى مع جبريل ، ثم فيما بعد سدرة المنتهى وحده ، ولكن فى هذه المراحل جميعاً كان محمد بشراً خالصاً لم تتغير طبيعته ، كان بشراً حينما أسرى به من مكة إلى بيت المقدس ، وكان بشراً حينما اجتاز السموات السبع ، وكان بشراً حينما مضى وحده دون أن يشاركه جبريل فى صعوده ، ولا يغير فى الأمر أن يقول جبريل لرسول الله عليه السلام : لو تقدمت أنا لاحترقت وأنت لو تقدمت لاخترقت .

فهذا هو التكريم الذى أراد أن يسبغه رب محمد، على محمد البشر الرسول. وإذا كان محمد رسول الله يملك أن يرتفع إلى ما لا يستطيع ملك، فذلك ليس إلا النتيجة الحتمية لتكريم الله سبحانه وتعالى، لآدم. فقد فضله على الملائكة، وميزه منذ البداية عنهم. علمه الأسماء كلها. وهم لم يعرفوا شيئاً منها، أمرهم أن يسجدوا له، فسجدوا. هذا الإيثار. يكمله ويؤكده أن يكون جبريل قادراً على الصعود إلى موضع فى السماء: وأن يكون الإنسان الرسول، قادراً على أن يمضى فى صعوده إلى ما هو أعلى وأسمى، وأن يرى ويسمع . من ربه، ما لا يقوى الملاك على رؤيته وسماعه، فإذا انسلخ عن طبيعة البشرية، وفى أى مرحلة من مراحل تعريجه إلى السماء. فقد التكريم معناه.

لقد صعد محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام، فى عروجه إلى أعلى المقامات، إنساناً وعاد إلى مكانه فى فراشه البسيط المتواضع فى دار ابنة عمه، أم هانئ، إنساناً. وتحدث إلى أصحابه عما رأى: كما يتحدث الإنسان عن أمور باهرة رآها. وتجارب فذة خاضها، لا يدل بما رآه على الناس، ولكن ليزيدهم إيماناً بالدين الذى يدعوهم إليه: وبالمثل التى يستحث خطاهم، نحوها.

ولست أنسى خطبة ألقاها محمد إقبال الشاعر الباكستانى المسلم، فى جمعية الشبان المسلمين سنة ١٩٣٢ أو نحوها، فقال إن المعراج، فى الإسلام، دلالته إقامة الصلة بين الأرض والسماء، فمحمد الإنسان، أ فمحمد الإنسان، يستطيع أن يذهب فى مراقى التسامى والنقاء والقدرة الروحية إلى أعلى الغايات، وهو بهذا يمثل الناس جميعاً، ويقول لهم إنى، لست سوى المثل الذى يحتذى، والأسوة التى تحاكى. وليس حتماً أن تصلوا إلى مثل ما وصلت إليه، ولكن باب الصعود، مفتوح، والسماء ليست بعيدة عن الأرض، ولكنها تبدو كذلك للضعفاء، الذين، تعوزهم الثقة بالنفس، والثقة بالعقيدة التى أقاموا حياتهم عليها.

على أن من معانى المعراج ، بعد الإسراء التى لا بد أن يهلل لها العقل الإنسانى ، وأن تطيب لها النفس الإنسانية ، ذلك المهرجان الروحى ، الذى عقد فى السماء والذى ضم جميع الأنبياء يصلون خلف خاتمهم ، إعلاناً لوحدة الإنسانية ولوحدة العقيدة القائمة على توحيد الإله ، وتنزيهه عن كل شريك ، وعن الزمان والمكان ، وعن الجنس واللون ، وعن التصور الإنسانى له ، وانقطاع الشبه بينه وبين أى شىء . مما يعرفه الإنسان « ليس كمثله شىء » . هذا المهرجان لا تقع فى تاريخ الإنسانية والعقائد كلها ، صورة تدانيه فى سموه ، وارتفاعه فوق العصبيات والأحقاد . والأغراض الإنسانية ، والأوهام القومية ، وادعاءات الأمم وأكاذيب الشعوب ، ويزيد من جمال هذا المهرجان ، أنه ضم أنبياء اليهود ، هؤلاء الذين لم يكفوا فيما بعد عن تكذيب الرسول ، وتسفيه رأيه ، وإثارة قبائل العرب ضده . واتهامه بأقبح ما ينعت به الرجل دع عنك الرسول ، والذين لم يملوا من عقد المحالفات للقضاء عليه ، وإثارة الفتن من حوله .

والمعنى الثالث ، هو اختفاء فوارق الزمان والمكان . عندما وصل الرسول عليه السلام : إلى أعلى مراتب السمو ، فقد اجتمع فى مكان واحد ، أنبياء ينتمى كل منهم إلى عصر ، وإلى وطن ، أى ينتمى كل منهم إلى مكان ، وإلى زمان ، فى هذا المعنى قال المرحوم محمد حسين هيكل :

« هذا الروح القوى — روح رسول الله صلى الله عليه وسلم — قد اجتمعت فيه فى ساعة الإسراء والمعراج وحدة هذا الوجود ، بالغة غاية كما لها ، لم يقف أمام ذهن محمد وروحه فى تلك الساعة حجاب من الزمان أو المكان أو غيرهما من الحجب التى تجعل حكمنا نحن فى الحياة نسبياً محدوداً بحدود قوانا الحسة والمدبرة العاقلة . تداعت فى هذه الساعة كل الحدود أمام بصيرته واجتمع الكون كله فى روحه ، فوعاه منذ أزله إلى أبده ، وصوره فى تطور وحدته إلى الكمال عن طريق الخير ، والفضل

والجمال والحق فى مغالبتها وتغلبها على الشر والنقص والقبح والباطل بفضل من الله ومغفرة » .

وهذا هو الذى خلص به المسلمون ، من الإسراء والمعراج ، بعد أن اختلفوا فيما إذا كانا قد وقعا بالروح أو بالجسد ، وفيما رواه الرواة من حديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، من وقائعهما ، وفى نصيب الوضاع من هذه الروايات ، فالإسراء والمعراج ، معلمان روحيان من معالم التاريخ الإسلامى، فى جانبه الروحى البحت، فلم يكونا خطوة سياسية كالهجرة ، ولا خطوة سياسية عسكرية كواقعة بدر ، وإنما كانا حركة فى عالم الروح ، ولحسابها ، ليس فيهما من السياسة أو الحرب ، قليل أو كثير .

ولما كنت لا أريد أن أكرر هنا ، وقائع الإسراء والمعراج ، لأنها معروفة وذائعة ، فإنى أكتفى بنقل ما ترجمه المرحوم الأستاذ محمد حسين هيكل صاحب كتاب محمد ، عن (أميل درمنجيم) ، وهو يصف تأثره بهذه الوقائع ، كما اجتمعت عنده من أكثر من رواية ، منها ما صح ومنها ما شابته موضوعات الوضاعين قال :

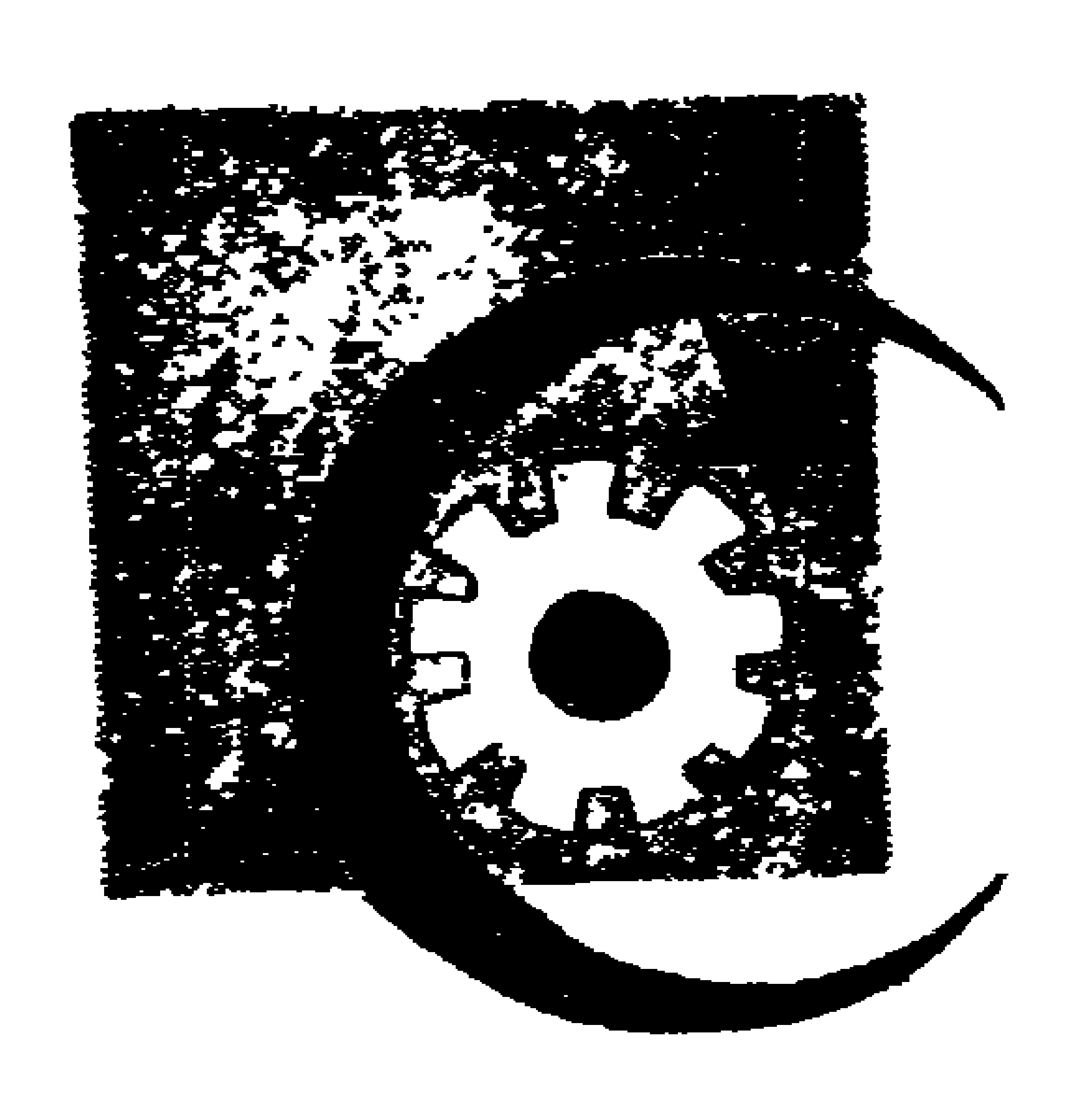
« فى منتصف ليلة بلغ السكون فيها غاية جلاله ، وصمتت فيها طيور الليل ، وسكنت الضوارى ، وانقطع خرير الغدران ، وصفير الرياح ، استيقظ محمد على صوت يصيح به : أيها النائم قم . وقام فإذا أمامه الملك جبريل ، وضاء الجبين أبيض الوجه ، كبياض الثلج ، مرسلا شعره الأشقر ، واقفاً فى ثيابه المزركشة بالدر والذهب ، ومن حوله أجنحة من كل الألوان ترعشها وفى يده دابة عجيبة هى البراق ، لها أجنحة كأجنحة النسر ، انحنت أمام الرسول فاعتلاها ، وانطلقت به انطلاق السهم ، فوق جبال مكة ورمال الصحراء متجهة صوب الشمال . وصحبه الملك فى هذه الرحلة ، ثم وقف به عند جبل سيناء حيث كلم الله موسى ، ثم وقف به مرة أخرى فى بيت لحم ، حيث ولد عيسى ، وانطلق بعد ذلك فى الهواء فى حين حاولت أصوات خفية أن تستوقف النبى الذى رأى

فى إخلاصه لرسالته ، أن ليس لغير الله أن يستوقف دابته حيث شاء . وبلغ بيت المقدس . فقيد محمد دابته ؛ وصلى على أطلال هيكل سليمان ومعه إبراهيم وموسى وعيسى ؛ ثم أتى بالمعراج فارتكز على صخرة يعقوب . وعليه صعد محمد سراعاً إلى السموات. وكانت السماء الأولى فضية خالصة . علقت عليها النجوم بسلاسل من ذهب ؛ وقد قام على كل منها ملك يحرسها حتى لا تعرج الشياطين إلى علو عليها ، أو يستمع الجن منها إلى أسرار السماء . فى هذه السماء ألقى محمد التحية على آدم ، وفيها كانت صور الخلق جميعاً . تسبح بحمد ربها ، والتقى محمد فى السموات الست الأخرى بنوح وهارون وموسى ، وإبراهيم وداود وسليمان وإدريس ، ويحيى وعيسى . ورأى فيها ملك الموت عزرائيل بلغ من ضخامته أن كان ما بين عينيه مسيرة سبعين ألف يوم ، ومن سلطانه أنه كان تحت إمرته مائة ألف فرقة ، وكان يسجل فى كتاب ضخم أسماء من يولدون ومن يموتون . ورأى ملك الدمع يتاو خطايا الناس ، وملك النقمة ذا الوجه النحاسى المتصرف فى عنصر النار والجالس على عرش من لهب . وقد رأى كذلك ملكاً ضخماً نصفه من نار ، ونصفه من ثلج وحوله من الملائكة فرقة لا تفتر عن ذكر الله قائلة : اللهم قد جمعت بين الثلج والنار وجمعت كل عبادك فى طاعة سنتك . وكان فى السماء السابعة مقر أهل العدل ملك أكبر من الأرض كلها له سبعون ألف رأس ، وفى كل رأس سبعون ألف فم ، وفى كل فم سبعون ألف لسان ؛ يتكلم كل لسان سبعين ألف لغة ، من كل لغة سبعين ألف لهجة ، وكلها تسبح بحمد الله وتقدس له .

« ويبدأ يتأمل هذا الخلق الغريب ؛ إذا به ارتفع إلى قمة سدرة المنتهى ، وتقدم إلى يمين العرش وتظل ملايين الملايين من الأرواح الملائكية وبعد أن تخطى فى أقل من لمح البصر بحاراً شاسعة ومناطق ضياء يعشى ، وظلمة قاتمة ، وملايين الحجب من ظلمات ونار ، وماء وهواء ، وفصل يفصل بين كل واحد منهما وما بعده مسيرة خمسمائة عام ؛ تخطى حجب

الجمال والكمال ، والسر والجلال والوحدة ، قامت وراءها سبعون ألف فرقة من الملائكة سجداً لا يتحركون ولا يؤذن لهم فينطقون ، ثم أحس بنفسه يرتفع إلى جنب المولى جل شأنه فأخذه الدهش ، إذ الأرض والسماء مجتمعتان لا يكاد يراهما ، وكأنهما ابتلعهما الفناء ، فلم ير منهما إلا حجم سمسمة فى مزرعة واسعة . وكذلك يجب أن يكون فى حضرة ملك العالم .

« ثم كان فى حضرة العرش . وكان به قاب قوسين أو أدنى ، يشهد الله بعين بصيرته ، ويرى أشياء يعجز اللسان عن التعبير عنها وتفوق كل ما يحيط به فهم الإنسان . ومد العلى العظيم يداً على صدر محمد والأخرى على كتفه ، فأحس النبى كأنه أثلج إلى فقاره ، ثم بسكينة راضية ففناء فى الله مستطاب » .



فرعون مصر

لأهل مصر أن يدلوا على غيرهم من إخوانهم فى الإسلام : بأن الله ذكر بلدهم فى القرآن الكريم . فى حين لم يذكر بلداً آخر ، لا فى الشرق ولا فى الغرب حتى ولا بلداً مما عرف العرب ، واتصلوا به وأختلفوا إليه . كاليمن والشام ، التى كانت قوافل العرب وفى مقدمتهم قريش تروح إليها ، وتغدو منها ، فى الصيف مرة، وفى الشتاء مرة ، فقد اكتفى القرآن الكريم، بالإشارة إلى هاتين الرحلتين السنويتين دون الإفصاح عن اسم البلدين اللذين تتجه إليه الرحلتان « لإيلاف قريش ،إيلافهم رحلة الشتاء والصيف » . بل إن مكة ، مسقط رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومرتع صباه وشبابه . التى شهدت نزول الوحى ، وبدء البعث . لم تظفر من آيات القرآن بغير آية واحدة « إن وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة » وقد جاء ذكرها مرة أخرى باسم « بكة » : أن أول بيت وضع للناس الذى ببكة » أما المدينة . مقر الدعوة بعد الهجرة . وعاصمة المجتمع الإسلامى ، التى شهدت وقائع « نصر الله والفتح » ورأت غزوات الرسول وسراياه ، تخرج فى كل اتجاه ، حاملة راية الدين ، منذرة ومبشرة ، تتعقب فلول الشرك ، وتضيق الخناق على الكفر : . المدينة هذه أشارة إليها الذكر الحكيم

مرتين اثنتين فقط . مرة فى الآية الحادية بعد المائة فى سورة التوبة « وممن حولكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق » وفى الآية العشرين بعد المائة من السورة ذاتها « ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله » .

أما ما عدا ذلك من الدول والبلدان ، والأقطار والأمم — بعد ذكر الروم مرة واحدة فى سورة الروم — فلا يذكر من أسمائها شىء ، كما لا يذكر شىء عن مواقعها ، ولا خصائصها جنساً أو لوناً أو لغة أو عدداً ، فقد خلا القرآن الكريم من كل ذلك ، واقتصرت آياته على أقوام هود وصالح ونوح ولوط ، وهم عاد وثمود وقوم تبع والمؤتفكات ، وهى قبائل بادت ، وزالت آثارها ، وهى لا تكاد تكون أمة ولا شعباً . وقد ذكر القرآن موقعاً واحداً هو مدين ، دون أن يقرنه بوصف ولا بيان يدل على كنه وصفه أهو قرية أو مدينة ، أو قبيلة ، فأسلوب القرآن الكريم مضطرد على منهج واحد ثابت ، يجهل معه أسماء الأماكن ومواضعها — كما قلت — وحكمة الذكر الحكيم فى هذا المنهج قائمة على ألا يصرف البيان الوارد فى السورة أو الآية ، عن الغاية من الحكاية أو القصة القرآنية . فقد يحاول قارئ القرآن أو سامعه أن يستظهر حقائق الحكاية من حيث اسم من دارت عليه هذه الحكاية وأسماء من شاركوا فى وقائعها ، وصفاتهم ، وقد يختلف المسلمون فى هذه الفروع الثانوية ، وينسون الكليات الأساسية وقد حدث شىء من هذا ، بسبب التفاصيل الذى أوردها بعض المفسرين ، بغير سند أحياناً كثيرة — فقد ألفت البحوث ، واشتد الجدل بين علماء المسلمين فى العصور المتأخرة ، فى هذه التوافه التى لا تمت إلى جوهر البيان القرآنى ، ولا تعظ أحداً ، ولا تجلو غامضاً ، ولا تصلح فاسداً . والأمثلة على منهج القرآن ، فى إغفال هذا العرض لا تحصى فالقرية فى الآية الثانية والستين بعد المائة فى سورة الأعراف يشار إليها بقوله تعالى « واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر » والمدينة التى يأتى ذكرها فى سورة يس يقول عنها تبارك

وتعالى « وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى » والمكان الذى عقد الخضر العزم أن يبلغه في سفره يذكر القرآن في سورة الكهف بأنه مجمع البحرين. ولا زيادة « وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين » وإذا تحدث القرآن عن قرى فسد أهلها واستحقت العذاب قال عنها « وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا » وإذا جاء ذكر (ذى القرنين) . فلا ينسب إلى عهد ، وإلى قوم . ولا إلى موطن . ولا يقترن اسمه بشيء يخصصه بصفة من صفات البشر . مع أنه ذكر في التنزيل الكريم رداً على سؤال السائلين فأجاب سؤالهم بقوله « إنا مكنا له في الأرض . وآتيناه من كل شيء سبباً » ثم إذا تحدث عن نشاطه وتجواله شرقاً وغرباً قال « حتى إذا بلغ مغرب الشمس » أين ؟ لا جواب ثم « حتى إذا بلغ مطلع الشمس » أين ؟ لا جواب .

وإذا كنت قد أطلت في بيان منهج القرآن في إيراد أسماء الأماكن والأشخاص . غفلا من بيان الصفات والمواقع . فليس القصد هو توضيح هذا المنهج في ذاته ؛ بل لبيان مقدار تكريم مصر . إذ ذكر اسمها في القرآن الكريم خمس مرات . وفي أربعة مواضع . فهذا الاستثناء ، هو هو أبلغ ما ظفر به موقع في الأرض . أو موطن للناس . أو بلد في الدنيا .

وكان أول موضع ذكر فيه اسم (مصر) . الآية السابعة والثمانين من سورة يونس : « وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً » وقد ترى أنه إذا سقط اسم مصر من الآية ؛ لما نقص من معناها في الظاهر شيء . ولكن مصر . عند القرآن ، جديرة بالذكر وقد كشفت السنة عن سبب هذه الحفاوة . فقد كانت قبلة الأنبياء . وموطنهم . جاء إليها إبراهيم من أقصى الشرق . وحمل معه جاريته هاجر . التى ولدت إسماعيل ، الذى ولد محمد بن عبد الله ؛ رسول الإسلام وخاتم النبيين . ثم جاء من بعد إبراهيم حفيده يعقوب بن إسحق . فيوسف بن يعقوب وإخوته الأسباط ؛ ثم ولد فيها موسى ؛ واحتمى بها عيسى ، وأخيراً أصهر

إلى أهلها ، محمد صلى الله عليه وسلم .

والموضع الثانى هو الآية الحادية والعشرون من سورة يوسف « وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه » وهنا أيضاً يبدو لنا ، إن الآية كان يمكن أن تأتى ، بغير بيان لموطن من اشترى يوسف . كذلك الأمر فى الآية التاسعة والتسعين من سورة يوسف « فلما دخلوا على يوسف أوى إليه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » ، ولا يفوتنك ما جاء على لسان يوسف فى الآية التى تليها مباشرة ، إذ قال وهو يتحدث عن فضل ربه عليه وعلى أبويه « وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن . وجاء بكم من البدو » فالقارئ ينتظر وقد ذكر اسم مصر فى الآية السابقة ، أن يذكر اسم الموضع الذى جاء منه أبوا يوسف وإخوته ، ولكن الآية الكريمة جرت على سنة القرآن . بالقول « وجاء بكم من البدو » أى من البادية ، وبوادى الله كثيرة فى أرض الله الواسعة .

وفى سورة الزخرف ، الآية الحادية والخمسون ، يباهى فرعون بملكه العظيم فى مصر « ونادى فرعون فى قومه قال ياقوم أليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحتى » وحين ذكر أن غير فرعون ، ممن ملكوا الأقطار ، وعلوا فى الأرض ، تحدثوا عما ظفروا به مما جاء فى الآية السادسة والسبعين من سورة القصص عن قارون « إن قارون كان من قوم موسى . فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة » .

وآخر ما ذكر فيه اسم مصر ، الآية الحادية والستون من سورة البقرة ، الخطاب الذى وجهه موسى إلى قومه حينما طلبوا أن يغير لهم طعامهم من المن والسلوى ، بدعوى أنهم لن يصبروا على طعام واحد ، وأن يخرج لهم ، من الأرض ، ماتخرج من بقل وقثاء وفول وعدس وبصل ، فقد قال لهم « اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم » وهذه الآية ، وإن دل ظاهر معناها ، على أن العودة إلى مصر ، نوع من العقاب لبنى إسرائيل ، الذين بطروا

معيشتهم ، وكفروا بأنعم الله عليهم ، إلا أنها تبين مدى حب الناس ، لمصر وطعامها ، حتى لو نالهم الخسف فيها . وران عليهم العذاب من حكامها وأصحاب السلطان عليها .

وبقدر ما شرف المصريون بذكر موطنهم العظيم ، فى التنزيل الكريم ، دون غيره من أسماء الأقطار والبلدان طراً ؛ فقد ثقل عليهم أن يكون ملك من ملوكهم القدامى ، فى عصر من عصورها الغابرة ، مثلا للكافرين الذين استحقوا لعنة الله ولعنة المرسلين والناس أجمعين وقد ذكر ملكهم هذا فى ستة وثلاثين موضعاً من القرآن ، فى أربع عشرة سورة .

ولكن المصريين أولى أن يسرى عنهم ، أن يكون فرعون المذكور فى القرآن واحداً من مئات من ملوك مصر ، فى ذلك العهد الغابر ، الذين حكموها ، فعمروها ، وأقاموا فيها من آيات الحضارة ، وآثارها ، ومن دور العلم والمعرفة ومعاهدها وقصورها ، ما عم خيره خلق الله إلى اليوم ، وإذا كان فرعون قد ذكر مقروناً اسمه بما يستحق من اللعن لكفره وتألهه ، واستعلائه على الناس : فقد علمنا القرآن ألا تزر وازرة وزر أخرى ، فلا يكون الغضب على واحد من فراعين مصر ، أن يكون كل حكامها على شاكلته ، وأن ينسحب عليهم جميعاً حكم واحد منهم ، فضلاً عن أن ينسحب هذا الحكم على مصر وأهلها وشعبها ، وقد حالت آيات الكتاب الكريم نفسه ، أن يتصور متصور أن الغضب على فرعون ، غضب على مصر ، فقد وصف الله تعالى مصر هذه ، فى سورة الدخان ، بعد أن أنزل عقابه بفرعون فقال ، وهو أصدق القائلين : « كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم » وهذا الوصف ذاته هو وصف الجنة بعينها فى سورة الدخان كذلك « إن المتقين فى مقام أمين ، فى جنات وعيون » .

على أننا لا ننسى أن من ذوى قرابة رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم : من آذى الرسول وكان عليه حرباً ، ومن بلغ فى الشرك والكفر

والجحود ، ما استحق أن يلعن بما لم يلعن به كافر أو مشرك ، فلم يغض ذلك كله من دور سائر العرب، ممن حملوا بعد ذلك راية الإسلام ونشروا نوره ، ورفعوا كلمته .

والذى يستوقف نظر الإنسان ، أن القرآن الكريم بقدر ما لعن فرعون ، زكى مصر ، والمصريين ، وأحسن فيهم الشهادة ، وهى شهادة تبلو فى بعض آيات الكتاب ناطقة ، وتبدو فى البعض الآخر ، فى تضاعيف ألفاظها ، وثنايا معانيها .

فأول ما يطالعنا به كتاب الله العزيز ، عن فرعون موسى ، ما اقترحته امرأة فرعون نفسه ، على زوجها ملك مصر وسيدها ، أن يبقى على حياة الطفل الذى دفعه التيار محمولا فى التابوت الذى أودعته فيه أم موسى ، قال الله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ، ولا تخافى ولا تحزنى . إنا رادوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين» فالتقطه آل فرعون» « وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » وقد استجاب فرعون لهذا الاقتراح الخير . وقد كان جديراً أن يرفضه فقد أزعجته رؤيا ، فسرها له المفسرون على وجه أخافه من كل ذكر يولد لبنى إسرائيل فى مصر ، وإذا عللنا استجابته لهذا الاقتراح الخير ، هو حبه لزوجته : وتأثره بما تطيب له نفسها وكان ذلك شهادة حسنة لأهل مصر الذين يكبرون من شأن الحياة الزوجية ويعلون من قدر المرأة ، أما إذا عللناها ، بالإشفاق على الطفل ، والأمل فى أن يتخذه ولداً ، كانت الشهادة أسمى دلالة ، وهى شهادة لتقاليد المصريين وما طبعوا عليه من سماحة الخلق ، والحدب على الأطفال .

وفى سورة (القصص) لمحة أخرى من لمحات الإنسانية ، تبدد ظلام بيت فرعون الذى علا فى الأرض . قال الله تعالى فى قصة موسى ، بعد أن وضعته أمه فى التابوت الذى ألقت به فى النيل ، عملا بوحى الله « وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ، وحرمنا عليه المراضع

من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق» فمن هذه الآية: نعلم أن موسى الطفل . كره أن ترضعه امرأة غير أمه، وأن يطعم بغير لبنها : فلما عرضت أخت موسى : لأصحاب الأمر فى بيت فرعون وقصره الملكى . أن تدلهم على أهل بيت يكفلونه ، وهم له ناصحون . قبلت هذه الفكرة فى التو . من فرعون وزوجته معاً ، ولا يستغرب هذا القبول من زوجة فرعون : فقد كانت امرأة مؤمنة وضرب الله بها وبمريم أم عيسى المسيح المثل للمؤمنين ولكن وجه الاستغراب أن يقبل فرعون الذى علا فى الأرض . واستبد بالناس . ما قبلته زوجته ، ولا تفسير لهذا القبول . إلا أن التقاليد السائدة بين أبناء شعبه . غلبته لأنها القانون الذى يعلو على كل قانون . على أنه يمكننا أن نتساءل : كيف استطاعت أخت موسى . وهى فتاة فقيرة ، تنتمى إلى أقلية مضطهدة ، أن تنفذ من أسوار قصر فرعون ، وأن تتسلل من بين حراسه ، حتى تصل إلى القصر نفسه ثم حتى يبلغ صوتها الضعيف أذن فرعون العالى . ولك أن تعجب ، كيف أصبح هذا الطفل الذى التقط من الماء . والذى لا يعلم أحد أباً له ولا أماً ، شغلا شاغلا للقصر الملكى . وهل يمكن أن يحدث هذا كله : فى شعب . لم يصل إلى أقصى الغاية فى الرفق واللطف الإنسانى . وفى سورة الشعراء ، آيات تقص ما جرى بين فرعون . وموسى كليم الله، فترى فى هذه الآيات . ما يستوقف النظر حقاً ، فقد قال فرعون لموسى : « ألم نربك فينا وليداً ، ولبثت فينا من عمرك سنين . وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين ». وأقر موسى عليه السلام فى الحال بما أراد فرعون أن يذكره به : قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين ، ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكماً ، وجعلنى من المرسلين » .

وإذا كان فرعون قد اصطنع هذا الأسلوب الرقيق فى مخاطبة موسى ، عليه السلام ، لأن موسى كان من فرعون بمثابة الابن ، وأنه على حد ما

ذهب إليه بعض مفسرى القرآن الكريم . كان لايقوى على فراقه ، فى رحلة من رحلاته ، فكان يصطحبه فيها ، ويدنيه من مجلسه فإن موسى كان قد شب ، وأصبح زعيم طائفة يكرهها فرعون ، وقد جاء يطلب باسمها مطالب نسميها الآن مطالب سياسية : فقد اختفى الابن ، الذى نشأ فى أحضان فرعون طفلا . وحل محله رجل مكتمل الرجولة يؤدى رسالة عظيمة الخطر ، تتناول نظام الحكم الفرعونى من أساسه . فهذه الرقة فى الخطاب ، كانت غايتها أن تخفف من حدة موسى فى الدعوة ، وأن تستثير فى نفسه عواطف البنوة ، وتذكره بأفضال فرعون عليه ، وبأنه واقع تحت طائلة القانون وأن فرعون مع ذلك يفسح له صدر العذر ، ولا يأخذه بما يقضى به النظام . وإذا كان الله تعالى قد أوحى لموسى ، أن يذهب وأخوه هارون إلى فرعون ، وأن يدعواه إلى الإيمان برب العالمين . فقد نصحهما أن يقولا له (قولا لينا) لسببين أولهما أن الدعوةالربانية ؛ وسبيلها « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة» وثانيهما أن موسى لم يكن غريباً عن فرعون و بيته وأهله ، وأن القانون الإلهى ، يقضى على الأبناء ، يحسنوا إلى الأباء : « وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم ، فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً »

ولا شك أن فرعون ، قد كبر عليه ؛ أن يقف منه موسى موقف الهادى والمرشد ، فقد أبى الناس جميعاً ، مهما صغرت مراتبهم ، وقلت حظوظهم فى الدنيا ، أن يتقبلوا الهداية من بشر مثلهم « أبشر يهدوننا ، فكيف يكون حال سلطان يعبده أهله من دون الله ، وهو يتلقى الهداية ، على يد رجل ، من طائفة من المستضعفين ، وقد نشأ فى ظله . ونمى فى بيته كواحد من أهله . لذلك كان طبيعياً أن يقول فرعون وملأه أى جماعته : « أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون» .

ولذلك انتقل فرعون فى حواره مع موسى عليه السلام إلى السؤال الذى لم يكن ثمة مفر من الوصول إليه ، وهو (ومارب العالمين) الذى جاء موسى

مبشراً به ـ وداعياً إلى الله ، فأجاب موسى : « رب السموات والأرض وما بينهما» فكان طبيعياً من فرعون أن «قال لمن حوله ألا تستمعون قال ربكم ورب أبائكم » نعم «إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون» وخلص إلى النتيجة الحتمية « لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين » .

ولا شك أن هذا التهديد ، دون ما كان يهدد به فرعون ، رجلا آخر غير موسى عليه السلام ، وأنه لكلام دون ما قاله موسى بكثير . فإن ما جاء به موسى عليه السلام هو الثورة بعينها على فرعون ونظامه ، ودينه ، وهو نهاية سلطانه ، وجزاء هذا التمرد السافر ، لايكون إلا التمثيل بمن أجترأ عليه . ثم قتله شر قتلة ، ولكن فرعون اكتفى بالتهديد (بالسجن) وسنرى بماذا هدد فرعون السحرة الذين آمنوا برب موسى ، وسيبدو الفارق واضحاً ، بين هذا التهديد وما يجرى فى مثل هذه هذه المواقف إذ ذكرنا ما كان من قوم إبراهيم « فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أوحرقوه » وقد ألقوا بإبراهيم فعلاً فى النار . وإن كان فرعون قد قال فى موضع آخر « ذرونى أقتل موسى » إلا أنه فى الحالتين لم ينفذ تهديده ، فلا هو قتله ، ولا هو سجنه . واستمر موسى عليه السلام يدعو إلى دينه . ويجمع قومه ، ويدعوهم للخروج من مصر كما استمر فى جداله مع فرعون فقد قال له : « أو لو جئتك بشىء مبين » فقبل فى التو هذا العرض وقال « فأت به إن كنت من الصادقين » ولعل فرعون حسب أن موسى سيأتيه بحجة لايجد لها رداً ، ويذكر القرآن تلك الحجه بقوله « فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين » « ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين » ولم يفطن فرعون إلى دلالات هذه المعجزات الربانية ، وأخذها على ظاهرها المادى ، وقاسها بمقاييس البشر فكان قوله « للملأ حوله ، إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره » ثم أضاف « فماذا تأمرون » وهذه شهادة من كتاب الله لشعب مصر ، فحتى فرعون الذى كان مثلا من أمثلة الكفر والشرك ، لم يستطع أن يخرج عن تقاليد المصريين ، فى الإعلاء من شأن الشورى ،

ولما كان الأمر قد بدا لأصحاب مشورة فرعون ، سباقاً بين سحرة ، فقد « قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل سحار عليم» فنفذ فرعون ما أشار به أصحابه وجمع السحرة . فكان ما كان من غلبة نبى الله موسى ، بفضل الله ، على السحرة أجمعين .

ولقد قص علينا القرآن الكريم ، من حياة موسى عليه السلام ، ما يكشف جانباً آخر من جوانب رفعة الحياة العامة فى مصر، فى ذلك العهد السحيق ، ففى سورة (القصص) عن موسى أنه « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتلان : هذا من شيعته . وهذا من عدوه . فأستغاثه الذى من شيعته ، على الذى من عدوه فوكزه موسى ، فقضى عليه . قال هذا من عمل الشيطان ، إنه عدو مضل مبين» « فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب » « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى . قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين . فخرج منها خائفاً يترقب ، قال رب نجنى من القوم الظالمين » .

فالمفهوم من هاتين الآيتين الكريمتين أن موسى نشأ فى بيت فرعون مصر ، بوصفه ابناً من أبناء الأقلية الصغيرة المضطهدة التى تتكون من الإسرائيليين ، ومع ذلك فقد شملته رعاية أهل البيت الملكى . فلم يشمله حدب الملكة زوجة فرعون وحدها ، بل عطف الملك نفسه ، وبطانته وحاشيته ، إذ لم يكن فى الوسع أن يترعرع حراً ، واثقاً من نفسه فى القصر والمدينة كلها . والملك يضيق به أو يضيق عليه والدليل على أن موسى كان يعيش فى القصر والعاصمة إسرائيلياً نص الآية الكريمة «فوجد فيها رجلين يقتلان ، هذا من شيعته وهذا من عدوه . فاستغاثه الذى من شيعته » فالذى من شيعته هو إسرائيلى بطبيعة الحال ، ولو لم تكن إسرائيلية أو يهودية موسى عليه السلام ، معروفة وذائعة ومعلنة يصعب على رجل من عامة أهل المدينة يقتتل ويتشاجر فى الطريق أن يعرف هويته ، ويطلب منه النجدة فى صراعه مع مصرى .

ولقد بلغ من عظمة مكانة موسى عليه السلام فى بيت الملك وعند أهله واستظلاله برعايته، واصطناعه لحجة المصريين وزيهم ، وإحاطته بعلمهم وثقافتهم ، ووقوفه على دينهم وطقوسهم ؛ وأخذه ورده على أخبارهم وكهانهم. أن تصور عالم إسرائيلى شهير هو (سيجموند فرويد) صاحب نظرية العقل الباطن والتحليل النفسى ، أن موسى عليه السلام ، لم يكن يهودياً قط ، وأنه كان مصرياً ، بل كان أميراً من أمراء المصريين ، وأنه تزعم ثورة بنى إسرائيل على فرعون مصر . لكرهه ظلم فرعون لبنى إسرائيل ، واضطهاده إياهم . ويقول فرويد فى كتابه «موسى والتوحيد» إن الدليل على مصرية (موسى) اسمه ، فمقطع « موسى » معناه الطفل أو الابن وإن هذا المقطع ذاته يتكرر فى العديد من أسماء ملوك مصر مثل (أح — مس) وتحوت — مس ورع — موسى رعمسيس أورمسيس .

ويمضى فرويد فى عرض نظريته فيقول : إن الإسرائيلية لم تكن عقيدة دينية فى تلك الفترة فترة الخروج من مصر . فهداهم موسى إلى عقيدة (أتون) لاعقيدة آمون ، ولذلك فالخروج أى خروج اليهود من مصر ، وقع فى عهد ما بعد الملك إخناتون، لا فى عهد منفتاح ، وهو الشائع فى كتب المفسرين والمؤرخين .

ولسنا — بطبيعة الحال — فى صدد عرض نظرية فرويد ، ولسنا — على سبيل القطع — من مؤيديها ولا المعتنقين بصحتها ، وإنما نحن نشير إليها ، كدليل على مدى انتفاع موسى عليه السلام . قبل النبوة والرسالة ، بتقاليد المجتمع المصرى . وعلمه وأسسه الفكرية ، ومدى انخراطه واندماجه فى هذا المجتمع ، وهو المدى الذى أوهم عالماً يهودياً كبيراً بأنه من المصريين وأنه بشر بعقيدة إخناتون .

ولست تجد دليلا ، على تسامح المصريين الفكرى، مثل دليل نشأة موسى عليه السلام فى بيت فرعون حراً قوياً ، على أن هذا الدليل نفسه ينطوى على معنى آخر لا يقل عنه جلالا ولا سمواً ، ذلك هو أن نسبة

(موسى) إلى قصر الملك ، وترعرعه فى قصره، أشبه شىء بابن الملك والملكة لم يحل دون أن يتعقبه القانون من جهة ، وأن يتعقبه خصومه من جهة أخرى. والأمران متكاملان فإن تعقب القانون معناه أن الملك وبطانته لا يملكان أن يحميا قاتلا ، ولو كان مشمولا برعاية الملك نفسه ، كما أن خوف هذا الابن أو المتبنى من القانون وهروبه من وجه العدالة ، كشف رائع عن سمو هذا القانون ، ونفاذ كلمته ، وطول باعه ، وشدة بأسه .

أما أن يبلغ الخوف من موسى عليه السلام إلى حد أن يفر على وجهه ، تاركاً وطنه ، وأمه وأباه ، ومتجاوزاً الحدود حتى يصل إلى أرض (مدين) فمعناه أن أصحاب الدم الذى سفكه ، يستطيعون أن يضعوا اليد عليه ، وأن ينالوه بسوء ، إما بقصاص الحاكم العام وإما بيد الانتقام الشخصى . وكل ذلك شهادة لاتعلوها شهادة لمجتمع العدالة التى كان المصريون يقدسونها ، ويطلقون اسمها (معات) على العدل ، وحب الخير ، وقد كان الملوك والأمراء يؤكدون فى نقوش قبورهم ، وما خلفوه من آثار مكتوبة ، أنهم احترموا كلمتها ، ونزلوا على مقتضى حكمها .

وفى سورة غافر ، شهادة أخرى لمصر ، فى ذلك العهد القديم ، الموغل فى القدم ، فقد جاء فيها قول الله تعالى :

« وقال رجل مؤمن من آل فرعون ، يكتم إيمانه ، أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذباً فعليه كذبه . وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لايهدى من هو مسرف كذاب» ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض ، فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ، قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ، وقال الذى آمن ياقوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب » ولا يستطيع إنسان قرأ تاريخ الملوك ، وعرف أسلوب الطغاة فى الضيق بنصح الناصحين ، والبطش بمن يعصى لهم هوى ، أو يناقش من ورائهم أو أمامهم أمراً ، لن يملك نفسه من الإعجاب بنظام المصريين

حتى قبل أن تأتيهم هداية السماء . هذا النظام الذى يستطيع معه رجل من آل فرعون ، أن يوجه هذا النصح الصريح ، — المقرون باللوم القاسى ، والتوبيخ الرادع — إلى الملك الإله ، دون أن يخشى عاقبة هذا النصح ، ولو كان فرعون أصابه بسوء لذكر القرآن الكريم ذلك ، فإن ذلك ختام القصة ، لايغفله القرآن . وغايته من إيرادها ، تعليم الناس ، الإيمان بواجب النصح للحكام ، والأخذ على أيديهم . إذ يتجاوزون حدودهم ، ويتورطون فى الخطأ .

ولقد روى لنا القرآن الكريم . قصة مؤمنين آخرين ، من المصريين ، تحدوا إرادة فرعون وخرجوا على حكمه ، وأعنى بها قصة السحرة الذين دعاهم فرعون للدخول مع نبى الله موسى عليه السلام فى مسابقة . وكيف لم يحفلوا بما هددهم به فرعون من عذاب مبين :

قال الله تعالى فى سورة طه موجها الخطاب إلى موسى عليه السلام :

« وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى . فألقى السحرة سُجّداً ، قالوا آمنا برب هارون وموسى قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى ، قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا ، فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا » .

إن هؤلاء السحرة هم ممثلو الشعب المصرى الحقيقيون ، فهم من عامة الشعب ، يفكرون لأنفسهم ، دون قيد على تفكيرهم من مصلحة كبرى يتحرونها ، فقد جمعهم أعوان فرعون من كل حدب وفج ، وقد كانوا يحصلون على قوت يومهم ، مما يحصلونه عليه من قروش أبناء الشعب ، فى القرى وأحياء المدن ، فليسوا خداماً للسلطان ، ولا يطمعون منه فى شىء ، ولقد أنطقهم اقتناعهم ، فور اللحظة بما ينطق به كل إنسان خلصت نفسه من دواعى الخوف أو الطمع ، واعتصم بفطرته ، واستمع إلى وحى عقله .

ولقد ضمت هذه الآيات ، من دلائل سلامة فطرتهم الكثير ، فقد أدركوا أموراً ، فى فترة قصيرة من الزمن ، يحتاج الكثيرون إلى وقت طويل لإدراك مدلولها ، فقد شعروا بأن غلبة موسى عليهم ، وهم أساتذة السحر الذين يعرفون أسراره وأنواعه ، ليس مردها مهارة فى السحر ، وإنما قوة أعلى من براعة اليد ، وحذق الصنعة ، فعرفوا أن هذه القدرة غير البشرية ، هى بينات أى دلائل ، وأن هذه الدلائل قاطعة بحيث لا يمكن تجاهلها ، فإذا كانت أقنعتهم ، فمن الخطل وسوء الرأى ، أن يترددوا فى الذهاب إلى آخر الشوط ، بما توحى به هذه البينات ، فإذا كان فرعون قد هددهم بالموت والعذاب ، والصلب ، فهو تهديد صادر ممن هو أضعف بكثير من صاحب هذه القوة الخارقة ، التى تعلو القوة البشرية وتتجاوزها .

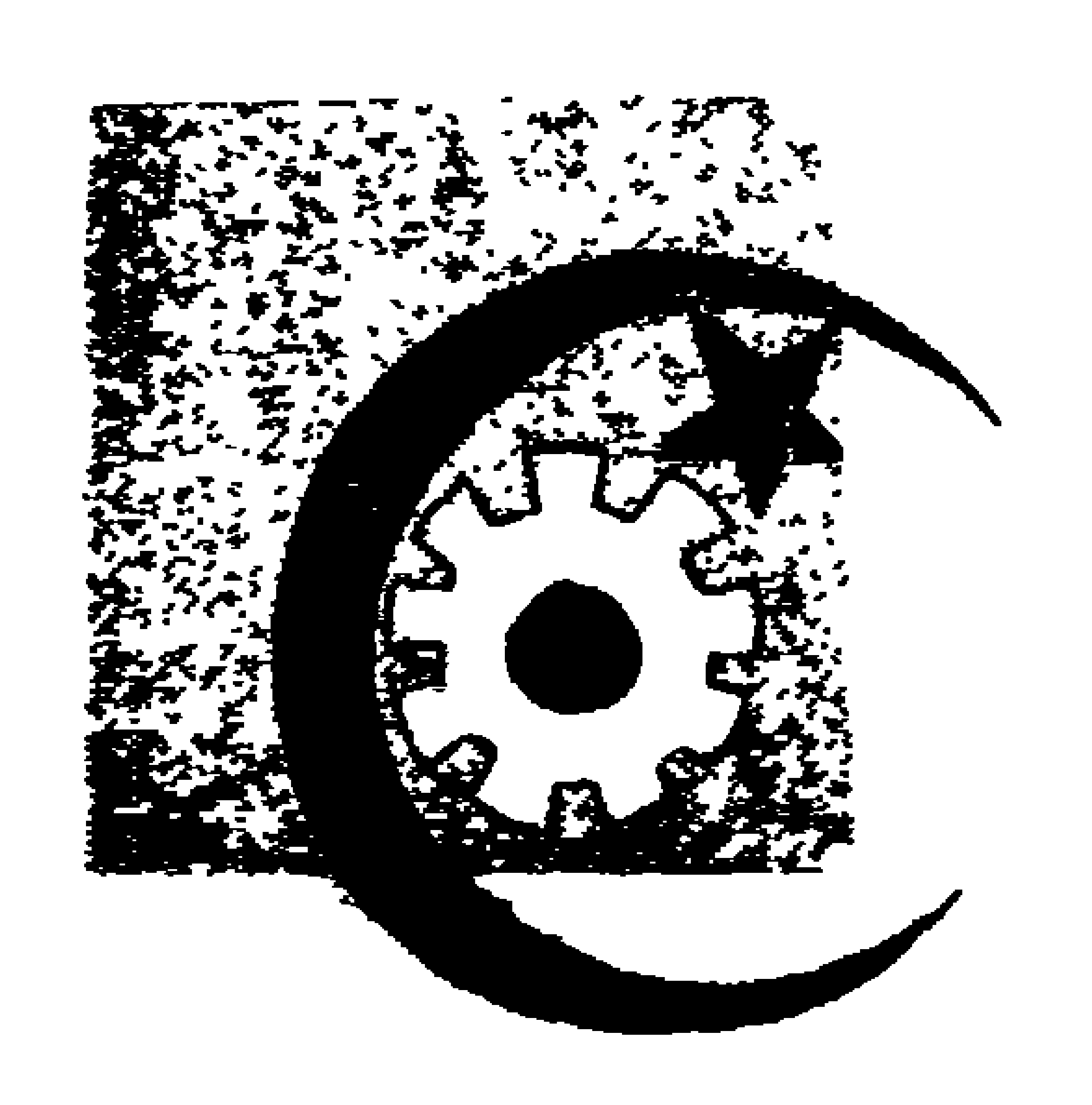
ولست تجد شيئاً أجمل ولا أسمى من قول هؤلاء السحرة على الفور « فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا » فالسحرة المصريون قارنوا بين الماديات الزائلة ، والمثل الأعلى ، فانحازوا إلى المثل الأعلى ، وكانوا بذلك خير من يمثل شعباً ، عاش حياته على مدى العصور والحقب يتعلق بالمثل الأعلى ، ويفنى فيه ، ويدفع بالمهج والأرواح دفاعاً عنه .

وما نخلص إليه من الحديث عن فرعون مصر فى القرآن أن القرآن الكريم ، كرم ، وكرم أهلها ، وكرم تقاليدها ، وإذا كان قد لعن فرعون مصر فقد رفع قدر زوجته .

آخر الأمر ، قد يقول قائل ، ما هذه الحماسة فى الدفاع عن المصريين فى ظل القرآن ونصوصه ، والقرآن لا يعرف الشعوبية ، وأشهد الله أن هذا الذى قلته عن مصر ، ليس من الشعوبية فى شىء ، فالقرآن يدعونا إلى التحدث بنعمة الله « أما بنعمة ربك فحدث » ومن نعمة الله علينا أن نذكر وطننا بما لم يذكر به وطناً آخر ، فى كتابه المنزل على نبيه المرسل ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، قد فرق رسول الله عليه الصلاة والسلام ، بين عصبية جاهلية ، يكره بها الإنسان غير قومه ، وأخرى ،

يحب بها قومه ، يدفع عنهم ، ويحسن إليهم ، وينصح لهم ، ولا يبغض سواهم .

حمانا الله من عصبية الجاهلية ، ووقانا شرها ، وجعلنا ، من يحبون الناس جميعاً متأسين بقول الله تعالى «يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل ، لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » :



إسرائيليات

من آفات بعض كتب التفسير الكبرى ، وعاهاتها التى أرقت المسلمين ، وأقضت مضاجعهم ، ماتواضع علماء التفسير على تسميته « بالإسرائيليات » .

« والإسرائيليات » جمع إسرائيلية ، نسبة إلى إسرائيل ، وإسرائيل هو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام ، والمقصود بإسرائيل فى هذه النسبة الاصطلاحية ، بنو إسرائيل لا جذهم يعقوب وحده .

وتطلق الإسرائيليات على تفسير بعض ما جاء فى القرآن الكريم ، بأقوال عددمن أهل الكتاب الذين اعتنقوا الإسلام فى عهده الأول كوهب ابن منبه ، وكعب الأحبار ، وتميم الدارى وعبد الله بن سلام ، ينقلها عنهم بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتختلط بما يقوله هؤلاء الصحابة الأخيار الصادقون ، فلا تعرف هذا من ذاك ، ثم أتى جيل ، ظهر فيه رواة ، لا يتحرجون من الكذب على الله ورسوله ، فاتخذوا من روايات أهل الكتاب ممن دخلوا فى الإسلام صادقين أو مرائين سبيلا للكيد للمسلمين ولدينهم ، بنسبة ما لا يصدقه عقل ، ولا يسيغه ذوق ، ولا يجيزه دين ، إلى أصحاب رسول الله ، وإلى التابعين ، وقد تبلغ بهم

الجرأة : فينسبون هذا الكذب الصراح ، وذلك الإفك المفضوح ، والهراء الساقط إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه ، وهذه الروايات المفتراة كلها : جزء من الإسرائيليات .

فهناك ضرب آخر من الإسرائيليات . يسمى بالموضوعات ، والموضوعات أحاديث مفتراة على الرسول عليه الصلاة والسلام : لا تدور حول أنباء أنبياء اليهود وقصصهم الواردة فى القرآن . وإنما تشرح جوانب أخرى : من القرآن الكريم . عن الكونيات ، وأصل الإنسان ، وبدء الخليقة ، ومظاهر الطبيعة الموصوفة فى الذكر الحكيم من رعد وبرق : ومطر ، وسحاب . أو أنباء الأمم البائدة وحكاياتها كعاد وثمود ، وقصورهم ودورهم . وحالاتها ومظاهر عظمتها ، وصور بذخها ، كذلك غيرها من قصص القرآن كقصة أهل الكهف وذى القرنين ويأجوج ومأجوج ، فأما أعداء الإسلام الذين تزيوا بزيه : وتنكروا بأسماء المسلمين ، اتخذوا من هذه الإشارات القرآنية مجالا ، ليصوغوا هراء تندى له الوجوه ، ونسبوه إلى الرسول وأصحابه ، وذكروا فيه من التفصيلات وتزيدوا فى بيانها وسودوا به صفحات من كتب التفسير ، لا يقرؤها قارئ ، حتى يقع فى يقينه أن المسلمين أمة من المعتوهين ، يصدقون ما لا يصدق ، ويسيغون ما لا يقبل ، ويجعلون فى شرح كتابهم الأسمى ، ما خلت منه كتب الزنادقة والملاحدة ، وأمم لم تصب من الحضارة والمدنية ، ما أصابت أمة العرب الإسلامية ، أقامت من دور العلم ، ونشرت من منافع المعرفة ، مالم تفعل عشر معشاره أمة أخرى .

ويدخل فى نطاق هذه السموم العقلية ، ما رواه مسحيون دخلوا الإسلام فى شرح ما جاء فى القرآن الكريم ، عن المسيح عيسى ابن مريم ، وعن أمه ، وذوى قرابته كزكريا ويحيى ونقله عنهم رواة الحديث ، أو رواة التفسير المنقول ، أى المنقول عن أهل الصدر الأول .

فالإسرائيليات ليست وقفاً على المنقول عن الإسرائيليين سواء من

أسلم منهم أو من لم يسلم ، أو ما نقل عن كتبهم ؛ مما وقع فى يد المسلمين فترة وضع كتب التفسير الأولى أو جمع وتدوين أحاديث لرسول الله . ولا سيما ما كان منها متصلا بتفسير القرآن الكريم . ولقد أحسن علماء التفسير الأوائل ، ومن جاء بعدهم ، حتى سمو هذه الموضوعات جميعاً : بالإسرائيليات ، فقد قال الله تعالى - وهو أصدق القائلين « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود » وقد كاد اليهود لمحمد صلى الله عليه وسلم ، منذ الأيام الأولى لهجرته من مكة إلى المدينة فقد عاهدوه وواعدوه ثم نقضوا عهودهم ومواثيقهم ، وحرضوا عليه القبائل ، وألبوا عليه الناس : سافرين ومستترين ، وجادلوا فأكثروا جداله ، وأرجفوا بالإشاعات ، والأكاذيب ، وشككوا فى صدقه ، وفى علمه ، فلما هزمهم الله بيد محمد والذين معه ، ورد كيدهم فى نحرهم ، بقوا يطوون صدورهم على أشد الكره للإسلام ونبيه ودينه وعلمه وحضارته وأدبه وفكره وفقهه ، لا لأنه أجلاهم عن أرض العرب ، وأنزلهم من صياصيهم ، بل لأنه الدين الذى امتاز به المؤمنون بوحدة فى الفكر والعقيدة وفى الأسلوب والعلم لم يتمتع بها دين ولا مذهب دنيوى آخر ، فقد اختفت من صفوف المسلمين ، الفرق التى مزقت غيره من الأديان والمذاهب ، وكادت تنعدم الفوارق بين السنى والشيعى ، ولم يعد للفرق الكبرى من معتزلة وخوارج ، ومرجئة ورافضة ، من أثر فى حياة المسلمين العقلية أو التعبدية ، إلا ما يشبه الذكريات التى يحفظها التاريخ ، بياناً لمراحل مرت وانفضت ، ووحدة المسلمين ، كانت فى بداية عهدهم بالمدينة ، أعظم وضوحاً ، وأكثر تماسكاً ، وكان هذا أمراً يطير له صواب اليهود الذين لا يهدأون إذ لم يجدوا منفذاً إلى فتنة يثيرونها ، أو حرب يؤججونها « كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون فى الأرض فساداً » .

وإطلاق الجزء على الكل من أساليب اللغات كلها ، وفى مقدمتها اللغة العربية ومن أمثلة ذلك « يجعلون أصابعهم فى آذانهم » فإطلاق

الإسرائيليات على كل ما هو افتراء على الإسلام أيا كان مصدره منهج سليم جاء فى دائرة المعارف الإسلامية تحت لفظ (تفسير) تعليق بقلم الأستاذ أمين الخولى عليه رحمة الله قال فيه :

وهكذا نجد غير قليل من النقد التفصيلى لرواة التفسير النقلى — أى التفسير المنقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته وتابعيهم ومن يروى عنهم — كما نجد النقد الإجمالى لهذه المرويات ، فالإمام أحمد ابن حنبل له الكلمة المعروفة : ثلاثة ليس لها أصل : التفسير والملاحم والمغازى (أى ليس لها إسناد) . ويقول ابن تيمية بعد ذكر وضع الحديث والأدلة القاطعة على كذبه « وفى التفسير من هذه الموضوعات قطعة كبيرة » كما يقول : « والموضوعات فى كتب التفسير كثيرة » وهكذا لم يعتمد النقل التفسيرى على أساس من الثقة وطيد ، كما سمعت من النقاد منذ الدهر الأول ، فإذا تساءل النقاد المحدثون عن قيمة الأحاديث الواردة فى هذه الكتب ، ولم يصلوا بعد إلى رأى يعززها كما يقول (كارادى فو) فإن هؤلاء النقاد المحدثين لم يجيئوا بجديد فى هذا على ما ترى . إذ أن الاتهام قديم » .

« وقد كان من وراء ذلك أن تأثرت تلك المنقولات بكل ما فى البيئة الإسلامية من متناقل القصص الدينى محمولا إليها من مختلف الأنحاء ، وقد كان اليهود فى ماضيهم الطويل قد شرقوا راحلين من مصر ، ومعهم آثار حياتهم فيها ما معهم ، ثم أبعدوا مشرقين إلى بابل فى أسرهم ، ثم عادوا إلى موطنهم فقد حملوا من أقصى المشرق فى بابل ، والمغرب فى مصر ، ما حملوا ، وجاء البيئة العربية الإسلامية ، من كل هذا مزيج ما جاء ، إلى جانب ما بعثت إليها الديانات الأخرى التى دخلت تلك الجزيرة ، وألقت إلى أهلها ما ألقت من خبر أو قصص دينى ، وكل أولئك تردد على آذان قارئى القرآن ومتفهميه ، قبلما خرجوا إلى ما حول جزيرتهم شرقاً وغرباً فاتحين ، ثم ملأ آذانهم حين خالطوا أصحاب تلك البلاد التى

نزلوها وعاشوا بها ، وإن كان الذى اشتهر من ذلك هو اليهودى ، لكثرة أهله ، وظهور أمرهم فدعيت تلك التزايدات التى اتصلت بمرويات التفسير النقلى بالإسرائيليات » .

فالأستاذ الخولى قد سبق إلى ما نقوله الآن من أن الإسرائيليات فقط ليست المروى من مسلمى أهل الكتاب من اليهود ؛ ولا هى مقصورة على ما روى من ذلك ، خاصاً بأخبار أنبياء بنى إسرائيل فى القرآن ، بل تشمل كل ما روى منقولا عن أهل الصدر الأول – بحق أو بباطل – مما يحتوى على أخبار وقصص وأمور تذكر أرقاماً وأعداداً وأبعاداً كما تورد صوراً لفظية للأماكن والمنازل ، والأشخاص والرجال ، وأحوال المدن البائدة ، والجيوش المحاربة وقوة القادة وسطوتهم الخارقة ؛ وغنى الملوك وقصورهم الباذخة وما احتوت عليه من الأبهاء المبالغ فى اتساعها وتراميها ، والأعمدة التى لم يشهد أحد شيئاً فى مثل ضخامتها وإرتفاعها وكثرتها وبريقها ، والحدائق والبساتين ، التى تضوعت برائحة فواكه ورياحين غريبة الجسم والشكل مما يرتاح له خيال العامة ، ويطيب سماعه لطالبى التسلية والتسرية تخفيفاً لأثر الموعظة ، وفراراً من أسر الواقع .

وقد أورد بعد ذلك الأستاذ أمين الخولى عن ابن خلدون فى صدد هذه المرويات :

وابن خلدون فى مقدمته يذكر من أسباب الاستكثار من هذه المرويات اعتبارات اجتماعية ودينية ، أغرت المسلمين بهذا الأخذ والنقل الذى اتسعت له كتب التفسير المروى ، فاشتملت على الغث والثمين ، والمقبول والمردود ، فيعد ابن خلدون من الاعتبارات الإجتماعية غلبة البداوة والأمية على العرب ، وتشوقهم لمعرفة ما تتشوق إليه النفوس البشرية فى أسباب المكونات وبدء الخليقة ، وأسرار الوجود ، وهم إنما يسألون فى ذلك أهل الكتاب ، قبلهم ثم يذكر من الاعتبارات الدينية التى سوغت عنده هذا التلقى الكثير لتلك المرويات فى تساهل وعدم تحر للصحة ، أن هذه

المنقولات ليست مما يرجع إلى الأحكام فتتحرى فيها الصحة التى يجب العمل بها ؛ فتساهل المفسرون فى مثل ذلك ، وملئوا كتبهم بمنقولات عن أهل التوراة الذين كانوا بين العرب ، وكانوا بداة مثلهم لايعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ولاتعلق لها بالأحكام الشرعية التى يحتاط لها :

ثم يقول الأستاذ أمين الخولى :

« وسواء كانت هذه كل ما هيأ لذلك من الأسباب أو كان وراءها أسباب أخرى فى حياة الرواية ، وحياة العقيدة ، وضرورة تأثرها بما حولها فقد اتسعت على كل حال تقول التفسير لمثل هذه المرويات التى يبين البحث أنها اشتملت مزيجاً متنوعاً من مخلفات الأديان المختلفة التى ترامت إلى علم العرب » .

ومما تقدم ترى أن ظاهرة تقبل المسلمين هذه المرويات ، وعدم رفضها ، وكثرتها ، شغلت الذين تأملوا فى تاريخ العقيدة الإسلامية فى عهودها الأولى . والتمسوا لها الأسباب والعلل ، وهى فى حقيقة الأمر ، جديرة بهذا الاهتمام . ونضيف نحن ، أن العرب الأقحاح لم يكن لهم يد فى نشوء هذه الظاهرة المؤسفة ، وفى استفحالها ، وسنبين ذلك بعد قليل .

ولكن قد يحسن أن أورد لك نماذج مما جاء فى كتب التفسير الجليلة فى هذه الأباطيل الموضوعة والأحاديث المصنوعة ، لنتعرف معاً مصدرها العقلى .

فى سورة المائدة الآية الثانية والعشرون ونصها : قالوا ياموسى إن فيها قوماً جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون » . والغاية من هذه الآية ، بيان أن بنى إسرائيل عصوا نبيهم ، وأنهم أبوا أن ينفذوا أمره ، خوفاً من أن يحل بهم الموت ، أو يصيبهم الضر ، على يد أقوام جبارين كانوا فى مدينة (أريحاء) وذلك لنقص إيمانهم بالله ، ولايحتاج المسلم ليفهم هذه الآية ولينتفع بها ، إلا أن

يعرف منها هذا المعنى ، و إن ابتغى شيئاً وراء ذلك ، فلا يجب أن يزيد عن السؤال عن اسم المدينة ، وعمن يكون هؤلاء الجبارون ، وحتى هذا القدر الأخير فيه تزيد ، ولكنه تزيد تقره طبيعة الفضول الإنسانى ، وحبه للاستزادة من العلم بالواقعة التى هو بصددها ، ولكن بعض المفسرين لم يقنعوا بالوقوف عند هذا الحد المقبول والسائغ ، شغلتهم صفة هؤلاء الجبارين ، وراحوا يضفون عليهم من الأوصاف ومن تحديد خصائصهم طولا وعرضاً ، وحدود قدراتهم وجبروتهم ، وليتهم قالوا فى هذا كلاماً يصح فى العقل ، أو ليتهم استخرجوا هذا الكلام بدليل أو بسند ، بل راحوا يؤلفون من الخيال ، شيئاً تعجب من وروده على عقل من قرأ القرآن ، وتأدب بأدبه ، أورد الجلال السيوطى فى الدر المنثور مانقله عن أبى الحكم عن أبى حمزة : استظل سبعون رجلا من قوم موسى فى خف رجل من العماليق وأخرج البيهقى عن يزيد بن أسلم قال : بلغنى أنه رؤيت ضبعة وأولادها رابضة فى فجاج عين رجل من العماليق ، وما رواه ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال : أمر موسى أن يدخل مدينة فيأتوه بخبر القوم ، فدخلوا المدينة فرأوا أمراً عظيما من هيبتهم وجسمهم وعظمهم ، فدخلوا بستاناً لبعضهم ، فجاء صاحب الحائط أى البستانى ليجنى الثمار ، فنظر إلى آثارهم فتبعهم ، فكلما أصاب واحداً منهم أخذه فجعله فى كمه مع الفاكهة ، وذهب إلى ملكهم فنثرهم بين يديه فقال الملك لهم : قد رأيتم شأننا وأمرنا ، اذهبوا وأخبروا صاحبكم » ومعنى هذا الكلام أن العملاق كان يضع الرجال فى كمه حتى أصبح فى كمه الواحد عدد من الرجال ، ثم نثرهم كما تنثر حبات الرمان .

- وقال ابن جرير عن مجاهد : إن عنقود عنب هؤلاء العماليق لا يحمله إلا خمسة أنفس ، بينهم فى خشبة ، ويدخل فى شطر الرمانة إذا نزع حبها

خمسة أنفس أو أربعة[١] .

ومن نماذج هذه الإسرائيليات أيضاً ، قصة عوج بن عنق فقد رووا أن عوج بن عنق كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وأنه كان يمسك الحوت فيشويه فى عين الشمس ، وأن طوفان نوح لم يصل إلى ركبتيه وأنه امتنع عن ركوب السفينة مع نوح ، وأن موسى كان طوله عشرة أذرع ، وعصاه عشرة أذرع ، ووثب فى الهواء عشرة أذرع ، فأصاب كعب عوج فقتله فكان جسراً « لأهل النيل[٢] » .

كما روى ابن جرير الطبرى عن عوج هذا ما نصه : فلقيهم رجل من الجبارين يقال له عوج : فأخذ الاثنى عشر نقيباً (الذين يمثلون أسباط بنى إسرائيل) فجعلهم فى حجزته أى فى رباط سرواله ، فانطلق بهم إلى امرأته ، فقال : انظرى إلى هؤلاء القوم الذين يزعمون أنهم يريدون أن يقاتلونا فطرحهم بين يديها ، فقال : ألا أطحنهم برجلى . فقالت امرأته : بل خل عنهم حتى يخبروا قومهم بما رأوا ففعل ذلك[٣] .

وروى ابن جرير أيضاً عن وهب بن منبه وهو يشرح لفظ (طوبى) فى الآية التاسعة والعشرين من سورة الرعد : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب »[٤] .

« إن فى الجنة شجرة يقال لها طوبى : يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها ، زهرتها رياط وورقها برود ، وقضبانها عنبر ، وبطحاؤها ياقوت ، وترابها كافور ، ووحلها مسك يخرج من أصلها أنهار الخمر ، واللبن والعسل وهى مجلس لأهل الجنة ، فبينما هم فى مجلهم إذ أتتهم ملائكة من ربهم يقودون نجباً (إبلا) مزمومة بسلاسل من ذهب وجوهها كالمصابيح حسنا ، وبرها كخز المرعزى من لينه عليها رحال (سروج) ألواحها من ياقوت ، ودفوفها من ذهب وثيابها من سندس ، وإستبرق . . إلخ » .

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) الموضوعات فى كتب التفسير للأستاذ محمد محمد أبو شهبة .

والذى يستوقف النظر حقاً أن هذه المبالغات التى يأبى كل عقل ، هى وما ورد فى القصص العربية الخيالية من نسج واحد ، فكان هذه فى كتب التفسير وتلك فى القصص شىء واحد ، توزع على مؤلفات المفسرين ، وحكايات المتخيلين ، ويزيد عجبك حينما ترى أن هذا المنهج من ذكر المستحيلات والخوارق قد أخذ سبيله إلى كتب هى إلى العلم التقريرى المادى أقرب ، ككتب التاريخ ، وتقويم البلدان الذى تواضعنا على تسميته الآن بعلم الجغرافيا . مما يقطع بأن ظاهرة الكلف والغرام ، بحكاية هذه الغرائب ، مردها عقلية واحدة ، هى التى سعت إلى سماعها ، وإثباتها ، فى كل موطن استطاعت الوصول إليه . وسأنقل إليك فيما يلى نماذج مما ورد فى القصص العربى . وفى كتب الرحلات وعجائب البلدان لترى أن كاتبها جميعاً على اختلاف العصور ، وتباين الأوطان ، قد غمس قلبه فى حبر واحد ، وأجراه على ورق واحد .

جاء فى الليلة السادسة والعشرين من ليالى ألف ليلة على لسان السندباد البحرى .

قمت وتمشيت فى الجزيرة يميناً وشمالا ، وأنا لا أستطيع الجلوس فى محل واحد ، ثم دققت النظر فلاح لى فى الجزيرة شبح أبيض عظيم الخلقة فنزلت من فوق الشجرة وقصدته ولم أزل سائراً إلى أن وصلت إليه ، وإذا به قبة كبيرة بيضاء شاهقة العلو كبيرة الدائرة فدنوت منها ، ودرت حولها فلم أجد لها باباً ، ولم أقدر على تسلقها لشدة نعومتها ، فعلمت مكان وقوفى ، ودرت حول القبة أقيس دائرها فإذا هو خمسون خطوة وافية ، وبقيت أفكر فى حيلة لدخولها حتى قرب زوال النهار ، وغروب الشمس ، ثم أظلم الجو فجأة ؛ واحتجبت الشمس وكان ذلك فى زمن الصيف ، فتعجبت وتأملت ما حولى ، فرأيت طائراً عظيم الخلقة ، كبير الجثة ، عريض الأجنحة طائراً فى الجو وهو الذى حجب عنى الشمس ، ولما زاد عجبى من ذلك الطائر تذكرت حكاية أخبرنى بها قديماً أهل السياحة والمسافرون وهى أن فى بعض

الجزائر طائراً عظيم الخلقة يقال له الرخ يزق أطفاله بالأفيال «أى يغذى الأطفال بالأفيال» فتحققت أن القبة التى رأيتها هى بيضة من بيض الرخ» .

فإذا انتقلنا إلى كتب هى بالعلم أشبه ، ومن تقرير الحقائق أقرب ، (كآثار البلاد) (وعجائب المخلوقات) للقزوينى ، و (معجم البلدان) لياقوت الحموى و (مختصر البلدان) لابن الفقيه (ومروج الذهب) للمسعودى و (نزهة المشتاق) للإدريسى ، و (خريدة العجائب) لابن الوردى و (مختصر العجائب) لابن وصيف شاه . فإننا واجدون فيها مثل هذه المبالغات بنفس الأسلوب ، وأحياناً بنفس الألفاظ .

جاء فى كتاب عجائب الهند، على لسان أبى الحسن محمد بن عمر السيرافى أنه رأى بعمان فى سنة ثلثمائة سمكة وقعت ببعض سواحل عمان فصيدت فشحنت إلى البلد ، فركب أحمد بن هلال الأمير والعسكر معه ، وحضر الناس للنظر إليها ،وكان الفارس يدخل من فكها و يخرج من الجانب الآخر وهو راكب »

« وحدثنى بعض العراقيين أنه رأى باليمن عند بعض إخوانه رأس سمكة قد ذهب لحمه ، وبقى عظمه صحيحاً ، فدخل الرجل من إحدى حدقتيها وخرج من الجانب الآخر ، وهو قائم من غير أن ينحنى » .

وحدث أبو محمد الحسن بن عمر بما يلى أيضاً فى كتب القصص الخيالية :

« حدث أن مركباً خرج من بلاد الهند إلى بعض النواحى فذهب من يد صاحبه بقوة الريح ، فاضطر الربان إلى الرسو بجوار جزيرة صغيرة لا ماء فيها ولا شجر ، وخرجوا إلى البر واشتغلوا بإصلاح المركب ، ثم حملوا من خشبات المركب وبعض خوص وقماش وأوقدوه ، فتحركت الجزيرة بهم ، فأسرعوا وألقوا بأنفسهم إلى الماء ورأوا الجزيرة تغوص تحت سمعهم وبصرهم . . وكانت سلحفاة نائمة على وجه الماء أحست بحر النار فهربت »

فما سر ظاهرة هذه المبالغات ، التى أوردنا صوراً منها ، فى ثلاثة

مواطن : كتب التفسير وكتب العلم وكتب القصص الخيالية ؟

للرد على هذا السؤال يجب أن نستحضر فى الذهن ما قاله ابن خلدون : إن القرآن أنزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم ، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه فى مفرداته وتراكيبه »

وما قاله « ابن قتيبة فى رسالة (المسائل والأجوبة) إن العرب لاتستوى فى المعرفة بجميع ما فى القرآن ، من الغريب والمتشابه ، بل إن بعضها يفضل فى ذلك على بعض ، وما قاله الشيخ الأستاذ محمد محمد أبو شهبة إن المسلمين الأوائل فهموا الكثير من آياته بمقتضى فطرتهم اللغوية وعلم الشريعة رأوا ألا حاجة لنقل كل ما يتعلق بتفسير القرآن عن رسول الله ظناً منهم أن من يأتى بعدهم فهو مثلهم أو يدانيهم » .

وهذه النصوص على اختلاف حدود مدلولها من التعميم والإطلاق ، إلى التحديد والتدقيق ، تدل على أن العربى المسلم الأول ، الذى شهد البعثة ، ووقائعها ، ورأى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وسمعه ، يقرأ القرآن بلسانه ، ويشرحه ، ويجيب على أسئلة السائلين ، وسمع الصحابة يجيبون الناس على ما غمض عليهم ، كما رآهم يتبادلون الرأى ، ويتناقشون . وكان هو على الفطرة العربية ، لا يخالط إلا عرباً ، ولا يسمع إلا عرباً ، ولا شغل يشغله عن الدين وتلقى أحكامه والتفقه فيه ، والعمل به ، والدعوة إليه ، والدفاع عنه ، من مذاهب تفرقت بالناس ، ومصالح توزعتهم ، وأوطان باعدت بينهم ، وأقوام خالطوهم ، بلهجات ورطانات ومذاهب وعقائد ، وأساليب عيش ، وطرائق حياة ، أنقصت من صفاء فطرتهم ، وقللت من سهولة لفظ القرآن . كان العربى المسلم فى العهد الأول ، يجد حاجته من القرآن ، بأقرب سبيل ، فهو يعلم أنه كتاب هداية ، وأن ما فيه من أحكام وأمثال ، ومن قصص وأصول ، غايتها أن نعدل عن الشرك إلى التوحيد الصافى النقى ، ومن غموض فكرة الإله ، إلى وضوح ، أشبه شىء بالشمس فى رائعة النهار . فلا يهمه قط أن يعرف صفة كلب أهل الكهف ولا اسمه أهو قطمير أم غير ذلك ،

ولا يشغله من إرم ذات العماد، مما بنيت ولا كيف بنيت، ولا متى هدمت ولا عدد حجراتها وأبهائها، ولا مادة بنائها ومما أخذت، ولم يكن يشوقهم أن يسمعوا شيئاً عن مداخلها ومخارجها، ولا يهمهم أو يطرفهم أن يقال لهم إنها صنعت من أحجار صيغت من ذهب وفضة مثلا، فكل هذه أمور سكت عنها القرآن، وسكت عنه لحكمة، تتفق مع حكمته وغايته وأساوبه ومنهجه، ذلك لأن هذه التفاصيل إن ملأت كتاب الله، صرفت الأذهان، والقلوب معاً، عن حكمة التوحيد، وعن التهيؤ لفضائل الإسلام وأخلاقه. ولتنافس بعض المسلمين فى حفظ هذه الأرقام والأعداد، وكان القرآن نزل ليعلمهم إياها، ويفاضل بينهم بقدر حفظهم لها: إنتفاعهم بها، وهو أمر، تنزه عنه كتاب الله العظيم.

ومن هنا نستطيع أن نعرف لماذا ضرب عمر رضى الله عنه امرأ بدرته حينما سأل عن معنى « أبّا » وقال له: وماذا عليك ألا تعرف ماذا تكون أبّا. يعنى ماذا عليك ألا تعرف معنى هذا اللفظ إذا عرفت معنى الآية التى ورد فيها هذا اللفظ، وهى الآية التى يقول فيها الله تعالى: (فلينظر الإنسان إلى طعامه، أنا صببنا الماء صبّا، ثم شققنا الأرض شقّا، فأنبتنا فيها حبّا، وعنباً وقضباً، وزيتوناً، ونخلا، وحدائق غلباً، وفاكهة وأبّا متاعاً لكم ولأنعامكم) فالعربى حينما يسمع هذه الآية، يعرف فى الحال، ومن أقرب السبل، أن الله تعالى يعدد لعباده آياته وأفضاله عليهم، ليزدادوا إيماناً به، وليزدادوا بعداً عن الشرك، وإدراكاً لفساده وبطلانه. وهذا وحده يكفى فى فهم القرآن والانتفاع به. ومعرفة لفظ واحد فى هذه الآية، وعدم معرفتها لا يقدم ولا يؤخر.

ولقد نزل القرآن أول ما نزل على العرب وهم أهل بداوة، وكانت مدنهم الكبرى كمكة ويثرب والطائف، كالقرى، وكانوا أميين لا يقرأون ولا يكتبون، ولذلك كانوا آية فى البساطة، والبعد عن التكلف والتصنع،

وجاء دين الإسلام به خصائصهم : البساطة ، والوضوح ، والتيسير ، والاحتفال بالاعتبارات الواقعية والعملية .

ولقد صدق الله العظيم إذ وصف الإسلام بأنه دين الفطرة فى قوله تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها) وشرح رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى الفطرة بقوله : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، وينصرانه ويمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة حمقاء ، هل تحسون فيها من حبساء » .

ويعنى عليه الصلاة والسلام ، أن الإنسان يولد سليماً خالياً من العيوب والآفات النفسية ، مستعداً لتلقى الحقائق . والتصديق بها والعمل بمقتضاها ثم يتناوله المجتمع فيلقنه مبادئ ومذاهب ، منها الصالح ، ومنها الفاسد ، وبقدر حظه من هذه المبادئ الصالحة يصلح ، وبقدر نصيبه من المبادئ الفاسدة يفسد . والبهيمة التى هى دون الإنسان استعداداً للتلقى والترقى ، تلد ما تلد ، سليما مستكملا لأعضائه ، ولقدراته . وكما وصف القرآن الكريم ، الإسلام بأنه دين الفطرة ، فقد وصف رسول الله هذا الدين بأنه من غير المتكفلين : (قل ما أسالكم عليه من أجروما أنا من المتكلفين) .

وقد كان تفسير القرآن حقيقاً أن يبقى على بساطة الدين وسماحته الأولى ووضوحه الأصيل ، ولكن الذى حدث أن الناس دخلت فى دين الله أفواجاً وكان أكثر المسلمين من غير العرب ، وكان بالتالى أكثر المفسرين من هذه الشعوب التى دخلت إلى الإسلام ، وهى شعوب لها قدم راسخ فى الحضارة ، وهى حضارات ، تختلف منشأ وطبيعة ، عن بساطة الإسلام واستناده إلى الفطرة ، وبعده عن التكلف ، وخلوه عن التعقيد . لم يعرف هؤلاء المفسرون الكبار ، على رجاحة عقولهم ، وقوة طبعهم ، وواسع علمهم بالقرآن وبالعربية ، وغزير مادتهم ، وتنوع معارفهم ، حملوا معهم من حيث لا يدركون ولا يشعرون ، خصائص أقوامهم العقلية ، وتأثروا بحضارة بلادهم وبنى وطنهم ، ونشأوا فى بيئات ليس لها نقاوة البيئة البدوية

العربية بيئة الأوائل السابقين من صحابة رسول الله ، الذى قام هذا الدين على جهادهم وإليك البيان :

ولد أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى واضع تفسير جامع البيان فى تفسير القرآن فى سنة ٢٢٤هـ فى بلدة (آمل) بطبرستان وتوفى سنة ٣١٠ .

وولد أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابورى صاحب الكشف والبيان فى بلدة (نيسابور) وتوفى سنة ٤٢٧ .

وولد أبو محمد الحسين بن مسعود البغوى فى بغ أو نغو وهى بلدة بين مرو وهرات وتوفى سنة ٥١٠ .

وولد محمود بن عمر بن محمد الزمخشرى ببلدة زمخشر بنواحى خوارزم. وهو صاحب الكشاف عن حقائق التنزيل — وكان ميلاده سنة ٤٧٦هـ ووفاته سنة ٥٣٨ .

وولد فخر الدين محمد بن ضياء الدين عمر الرازى فى الرى عاصمة العراق العجمى وتنقل بين الرى وخراسان وبخارى وكان استقراره بخوارزم ثم استوطن هرات الأفغانية — وكان ميلاده سنة ٥٨٣ وكانت وفاته سنة ٦٠٦ .

وولد ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد بن على البيضاوى فى شيراز بجنوب إيران وتوفى سنة ٦٨٠ هـ .

وولد أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى فى بلدة نسف وهى من بلاد ماوراء النهر، وتوفى سنة ٧١٠ ,وهو صاحب التفسير المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل.

كما ولد عبد الرحمن بن أبى بكر محمد السيوطى صاحب الدر المنثور فى التفسير بالمأثور بسيوط فى صعيد مصر سنة ٨٤٩ وتوفى سنة ٩١١ هـ.

وأنت ترى من هذا البيان أن أكابر المفسرين وعظماءهم فى الأغلب الأعم كانوا من غير العرب ومن كان منهم عربيـًا حقـًا كابن كثير القرشى ، أو محمود بن عبد الله الألوسى العراقى البغدادى ، فقد نجا تفسيره من

الإسرائيليات بل كان حرباً عليها . أما المنحدرون من أصلاب غير عربية ، أوالناشئون فى غيربيئة عربية غلبت عليهم دماؤهم ، أوخصائص الأمم التى نشأوا بين ظهرانيها ، والتى رضعوا لبان ثقافتها .

لقد خلا تاريخ الأدب والفكرالعربى ، قبل البعثة الإسلامية وبعدها ، من القصص والأساطير ، وكانت العقيدة ركن الزاوية فى صرح هذا الأدب ، وكان الشعر ديوان العرب ، ومستودع ثقافتهم ، والسبيل لإذاعة مفاخرهم وتسجيل أيامهم وقد بدأت بدعة القص فى آخر عهد عمر رضى الله عنه ، وكان القصاص يجلسون فى المسجد . وصار القص حرفة ، فنعهم الخليفة من ذلك.

أما القصص الخيالى العربى ، وفى مقدمته كتاب ألف ليلة وليلة ، فالثابت أن أصله فارسى والراجح أن أصله كتاب « هزارا فسانه » ومعناه « ألف خرافة » وقد ذهب إلى ذلك الرأى المسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ هـ وكان فى هذا مؤيداً لما قاله محمد بن إسحق المعروف بابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ هـ فى كتابه الفهرست ، وقد أيدت هذين الرأيين بحوث المستشرقين الحديثة كبحوث ، « سلفستر دى ساس » وملر[1] .

وأرجح أن القصص الطويلة التى وضعها العرب كقصة بكر وتغلب ، وقصة شيبان مع كسرى أنوشروان ، متأخرة ، وأنها لم تكن جاهلية ، ولا من إنتاج صدر الإسلام أو عهد الخلفاء الراشدين ، وهى بلاشك ثمرة اختلاط العرب بعد عصر الفتوح العظمى .

وكانت الخطبة ، الوسيلة الأدبية الثقافية عند عرب الجهالة وعرب صدر الإسلام بعد القصيدة ، وفى عهد الأمويين والعباسيين بدأ دور كتابة الرسائل وظهر كتاب عظماء كعبد الحميد ثم ابن المقفع وغيرهما. وقد كان تجميع السنة ، وشرح القرآن بها بداية التأليف ، وقد أعانت على تنشيط التأليف ، والاهتمام بالنثر بعد الشعر ، نشوء الأحزاب السياسية منذ مقتل

---

(١) مقدمة طبعة دار الهلال أغسطس ١٩٥٥ للمرحوم طاهر الطناحى.

عثمان رضى الله عنه، فلما اشتد ساعد تلك الأحزاب وتعددت أسماؤهم وأهدافها ووسائلها، تبنت الفرق والمذاهب ، لتفلسف مناهج هذه الأحزاب السياسية ، وتقيم لها سنداً من القرآن والسنة، وتخلق لها فقهاً ، فقامت الحاجة إلى الاستعانة بالفلسفات الأجنبية من يونانية وفارسية وهندية ، وتوثقت العلاقة بين المفكرين الإسلاميين والمدارس المنبثة فى الشرق العربى فى عواصم الرأى ، والكنائس والأديرة . تأثر المسلمون بكل هذا واندس فى صفوفهم خلال هذه الحركة النشيطة الواسعة عشرات ومئات ممن تزيوا بزى الإسلام ، ومن لهجوا لهجته ، وأتقنوا فقهه ، وأحسنوا تدريب الألسنة على منطقه ومصطلحاته ، فانفتح باب واسع للوضاع يؤلفون الحديث وينسبونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لألف غاية وغاية ، وتسربت الإسرائيليات وكثرت وتضخمت ، وتهيأت لسماعها وقبولها وتصديقها ، أذهان وأسماع بعدت عن عهد الفطرة ، وكل هذا غريب عن الإسلام ، ومجاف لطبيعته ، فقد نهت السنة عن المراء ، ودعى كتاب الله إلى الوحدة : « وإن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

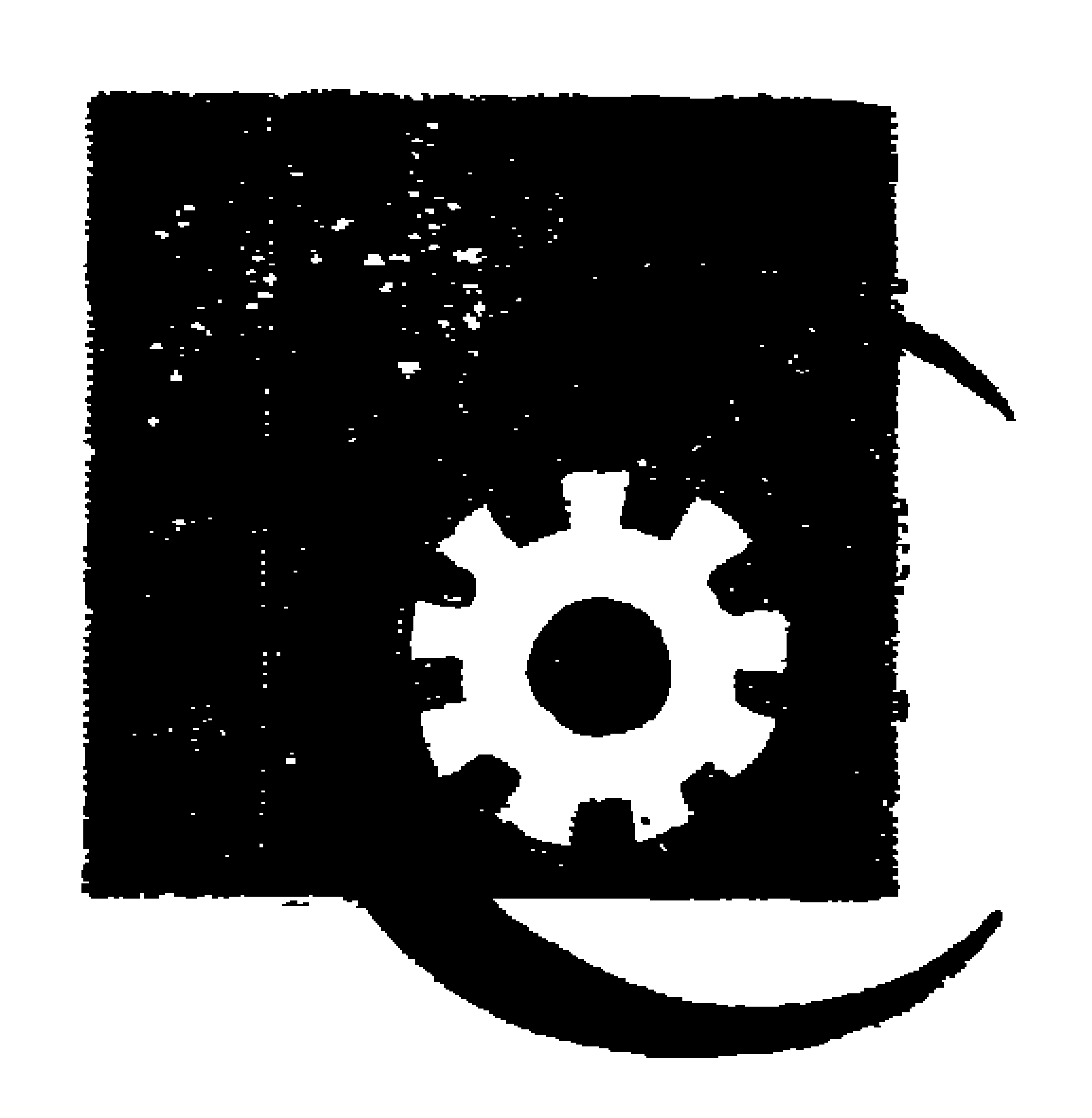
فالقصة والأسطورة ، أسلوبان من أساليب الأدب . لم يعرفهما قبل البعثة المحمدية ولم يشجعهما أدب القرآن ، القائم على التجربة المطلقة فقصصه وأحاديثه وأنباؤه القرآن كلها لا تحفل بالزمان ولا المكان، ولا توضح معالم للشخصية الفردية فى القصة، فلا تذكر الاسم ولا تورد وصفاً لأن الأشخاص ، يمثلون معانى ، وأن القصة كلها ، هى عرض لفكرة ، وبيان لحكمة ودعوة إلى منهج . ولذلك كانت الأسماء فى القرآن جميعاً قليلة غاية القلة ، وهى تتكرر وتتردد بذاتها ، ويجرى نفس المنهج على الأماكن والمدن، فأسلوب القرآن يقول : (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى) فالمدينة يرمز إليها بهذا اللفظ ، والشخص يرمز إليه بلفظ الرجل ، وقد خلا القرآن من أسماء صحابة رسول الله جميعاً رضى الله عنهم ، ولم

يذكر اسمه عليه الصلاة والسلام إلا أربع مرات فى كتاب يضم أكثر من ستة آلاف آية فى مائة وأربعة عشرة سورة .

ولما نشأ الفن التشكيلى الإسلامى ، تأثر بهذا التجريد ، فكان أول مدرسة من مدارس الرسم والحفر التجريدى ، يتخذ وحدته من الحرف أو الزهرة ، وينشئ أشكالا وزخارف ، بلغت القمة ، قوة تعبير ، وصدق أداء.

ولهذا كله كان مستحيلا أن يشرح القرآن الكريم وهذه هى روحه ، وأسلوبه ، وطريقته بهذه القصص المسرفة فى بيان التفاصيل ، ولا تقنع بوصف الرجل أو المرأة أو المكان أو الجيش أو المدينة ، بل لا تزال تصف القامة والهامة ، والزى والملبس ، وعدد الأبهاء ، وصفة القاعات ، وطول الأشجار ، ولون الأزهار ، وهو لغو ، لا يحقق للإسلام ولا للقرآن ، غرضاً ولا يقوم خلقاً ، ولا يدعو إلى فضيلة ، ولا يثبت عقيدة . ولقد طاب لأعداء الإسلام من كل لون ومذهب ، ونحلة وجنس أن يحشوا كتب المسلمين بهذا الهراء ، ثم يعيبون به الإسلام ، ويدللون من وجوده ، على خصائص العقل الإسلامى أو العربى أو كلاهما . والمسلمون والعرب أبرياء من كل هذا .

على أن الذى يدعو إلى الاغتباط حقاً أن أكثر كتب المفسرين المحدثين ولا سيما فى القرنين الأخيرين ، وعلى وجه أخص القرن الحالى منهما ، قد ضربت صفحاً عن هذه الإسرائيليات والموضوعات ولم تأخذ بها ، وإن ذكرتها قرنت ذكرها ، بعدم التصديق بها ، والتنبيه إلى ما فيها من ضعف فى الإسناد ، أو نبو عن الثابت فى القرآن والسنة . وهذا توفيق من الله ، يدعو إلى الشكر والحمد ، ولا نجد صعوبة فى النصح فيما يجب أن يتبع عند تعاد طبع الموسوعات الكبرى فى التفسير ، وفيها خير لا ينكر ، وعلم لا يجحد ، وسبق إلى بيان الأصول ، لا ينسى ، فكل ما ورد فيها من إسرائيليات يوضع بصورة تلفت النظر إليه ، مع تعليق واضح وصريح وقوى ، مبيناً الرأى الصحيح فيها ، بعد اتفاق العلماء على قول شامل فى شأنها .



إنا فتحنا لك

لم يخاطب الله تعالى محمد بن عبدالله ؛ عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم ، بمثل ماخاطبه به فى سورة وهى - الفتح - والسورة الثامنة والأربعون - على كثرة ما غزا المسلمون ، وعلى كثرة ما عقد لهم بما خاضوه ، من مواقع من نصر . على أنهم فى يوم الواقعة ، التى نزلت فيها سورة الفتح ، لم يستل الرسول عليه السلام ، ولا أحد من صحابته ، ولا أحد من غير المسلمين الذين كانوا معه ، سيفاً ، ولم يضربوا عنقاً ، بل إنهم لم يدخلوا مكة التى قصدوها يومذاك وعادوا من حيث أتوا ؛ وأكثر المسلمين ، يحس أنهم هزموا فى غير قتال ، و باءوا بخيبة عن غير ضعف ولا وهن .

فما هى حكاية ذلك اليوم ؟

نبأ الرسول ، المسلمين ذات صباح ، وهم مجتمعون فى المسجد ، برؤياه الصادقة عليه السلام ، من أن المسلمين ، سيدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين ، لا يخافون ؛ وتسامع المسلمون بهذا النبأ فى المدينة ، وكان قد انقضى على المهاجرين منهم ست سنوات بعيدين عن مكة ، موطنهم ، ومسقط رءوسهم ، ومرتع شبابهم ، ففرحوا لهذه البشرى ، أعظم الفرح . ولكن الرسول عليه السلام لم يحدثهم عن سبيل دخولهم إلى مكة ، ولا موعده غير أنه لم ينقض طويل وقت حتى

حل شهر ذى القعدة ، فأذن الرسول صلى الله عليه وسلم فى الناس بالحج ، ولم يقنع بدعوة أصحابه من مهاجرين ، وأنصار ، ليأخذوا أهبتهم، لهذا الحج ، بل بعث وفوداً . إلى قبائل غير المسلمين ليحجوا معه إلى بيت الله ، وكان حريصاً على أن يلبى دعوته ، أكبر عدد من غير المسلمين ، كان عليه الصلاة والسلام ، قد عقد عزمه على أن يحج إلى بيت تهفو إليه قلوب المسلمين ، كما تهفو إليه قلوب العرب أجمعين ليكون سفره إلى مكة ، بعد غزواته فى أرض بنى النضير وبنى المصطلق وخضده لشوكة اليهود ، وإجلائهم عن بيوتهم ، رحلة سلام ، تظهر لكل العرب ، سواء كانوا فى المدينة أو فى مكة أو فيما حولهما ، أو كانوا فى أعطاف الجزيرة أو أطرافها ، أن الإسلام دين سلام ، وأنه وإن اضطر إلى امتشاق السيف ، وضرب الأعناق ، واقتحام الحصون ، وفرض الحصار على المدن والقلاع ، إلا أن غايته تبقى دائماً ، السلام ، يسعى إليه داعياً كما يسعى إليه محارباً .

ومن هنا كانت رحلة العام السادس للهجرة ، رحلة سلام من أولها إلى آخرها ، فلم تكن قط غزوة حرب ، ولا سفرة سياسية . ولم يقصد بها أن يخيف كفار قريش وساده مكة ، ولا أن يقيس قوتهم إلى قوته ، أو أن يناور سياسياً .

لم يخطر ببال رسول الله صلى الله عليه وسلم شىء من هذا ، فالحكم على نتائج رحلته فى ذلك العام ، لا يصح إلا فى ضوء هذا العزم الصريح ، المعلن والمؤكد : عزمه على أداء فريضة الحج ، فى عدد غير قليل من مسلمى المدينة ، ومن لبى معهم دعوة الرسول إلى الحج ، فإذا كان شهر ذى القعدة ، خرج الرسول صلى الله عليه وسلم فى يومه الأول ، ومعه ألف وأربعمائة حاج . وساق أمام ركب الحج ، سبعين بدنة ، أى سبعين ناقة ، يضحى بها عند البيت الحرام . . فلما بلغ الركب ، مكاناً يدعى (ذا الحليفة) يقع على بعد ١٠ كيلومترات من المدينة أو يزيد قليلا عقص

الناس الرؤوس ، ولبوا بالعمرة — لم يحمل واحد من هؤلاء جيمعاً سيفاً إلا ما يحمله المسافرون ، من سيوف مغمدة فى قرابها ، لاتقاء عوادي الطريق . وهي سيوف ، لقلتها ، ولتجرد المسافرين ، مما عداها من عدة الحرب . وأدواتها لا تخيف مدينة كبيرة كمكة — هي من قرى الحجاز «أم القرى» وترامى نبأ هذا الركب إلى أهل مكة . فقام فى وهمهم ، فى الحال ، أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان غازياً فاتحاً ، ولا يغير فى الأمر ، أن يكون قد عقص رأسه ، وأحرم ، ولا أن يكون أصحابه القادمون معه . قد أغمدوا سيوفهم فى الأغماد ، ولم يحملوا سواها من أسلحة القتال ، فقد يكون هذا كله . خدعة متقنة من محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى عرفوه مقاتلا واسع الحيلة ، يفاجىء العرب فى كل قتال معهم . بالجديد من أساليب الحرب فكم أتاهم من مواقع لا يحسبون أن الشر يأتيهم منها ، وكم طالعهم بالغريب من فنون القتال ، وليس العهد بالخندق ببعيد . الذى رد الأحزاب على أعقابها ، مهزومة ، وكانت تحسب أن القضاء على المسلمين فى المدينة قد بات وشيكاً .

ولكن إصدار القرار من جانب قريش ، فى ذلك اليوم . لم يكن هيناً ، فقد كان هناك احتمال قوى ، فى أن المسلمين ، وعلى رأسهم نبيهم الكريم ، ومن جاء معهم من العرب ، صادقو النية فى أداء فريضة يقدسها العرب جميعاً ، فإن يدعوهم بالحرب ، أو ردوهم بالعنف ، وأقفلوا فى وجههم باب مكة ، وصدوهم عن البيت الحرام لم ينج زعماء قريش من سوء القالة بين العرب ، وبدا محمد صلى الله عليه وسلم والمسلمون أوضح حجة ، وأسلم طريقة ، وبدا خصومهم متجنين تجنياً لا يقبل عذراً ولا ينفع فيه دفاع .

ولما كانت قريش قد رجحت كفة الشر ، فقد عقدت لخالد الوليد ، وعكرمة بن أبى جهل لواء قيادة جيش ، وتقدم هذا الجيش حتى بلغ موقعاً خارج مكة ، اسمه (ذو طوى) .

ولكن هذا كله لم يثن عزم الرسول صلى الله عليه وسلم عن أن يواصل سفره إلى البيت الحرام ، فقد كانت رحلته رحلة سلام ، والسلام كالحرب ، كلاهما فى حاجة إلى العزم الثابت ، والجأش الرابط . ليصل إلى غايته ، بل إن السلام فى حاجة إلى تحمل أذى ، وضبط نفس أكثر مما تحتاج الحرب . فالحرب بطبيعتها تدعو إلى تجمع القوى ، والاستهانة بالخطر . لما تثيره فى نفوس المقاتلين ، من الرغبة فى النصر ، وما يبعثه العدوان من الحماسة فى الأخذ بالثأر . ولقى الرسول صلى الله عليه وسلم فى مسيرته رجلا من بنى كعب ، يدعى « بشر بن سفيان الكعبى » أنبأه بأن أهل مكة قد لبسوا جلود النمور ، استعداداً للقتال ، وأن خالد بن الوليد قدم إلى موقع اسمه (كراع الغميم) على رأس مائتى فارس .

هنا قال الرسول : من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها ، ولو واصل الرسول صلى الله عليه وسلم مسيرته إلى مكة ، لما انتظر خالد بن الوليد حتى يتبين صدق نية الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى القدوم من أجل الحج ، وربما طاش سهم حميت له الدماء فى العروق فوقع القتال ، وضاع على رسول الله عليه السلام ، غرضه من هذه الرحلة ، التى خلت من كل خاطرة من خواطر الحرب ، والتى بعدت عن كل مصلحة من مصالح الدنيا . وأجاب رجل دعوة الرسول ، فخرج بالمسلمين وأصحابهم إلى طريق وعرة المسالك ، مضنية الشعاب ، حتى انتهت إلى سهل فى آخر الوادى ، فانعطفوا إلى اليمين ، حتى بلغوا ما يسمى (ثنية المرار) حيث انضووا إلى موقع اسمه (الحديبية) يقع فى أسفل مكة ولعل أحداً قبل هذا اليوم ، لم يسمع بهذا الاسم ، ولم يعرف عنه شيئاً ، فقد كان موقعاً مجدباً لا ماء فيه . ولذلك قال له بعض أصحابه يا رسول الله ، ليس بهذا الوادى ماء ، فأخرج عليه الصلاة والسلام سهماً من كنانته أعطاه إلى « ناجية بن جندب الأسلمى » وكان قائد البدن ، أى سائق الإبل التى كانت تسبق الركب ، والتى

نذرت للتضحية ، فغرز السهم فى قليب — أى بئر جاف . فجاش بالماء : فشرب الجيش كله ، بعد طول نصب ومشقة عطش . وهناك قال الرسول : « ما تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة رحم إلا أعطيتهم إياها » .

وقد كان لقريش مندوحة عن التشكك فى نوايا الرسول صلى الله عليه وسلم : فإن الموقع الذى نزل به مع أصحابه موقع الوصول إليه دون تحمل مشقة ، ليس بعدها مشقة ، وهو موقع لا ماء فيه ، ولا ينزل به جيش يعتزم الحرب : وهو فى سهل يجعله تحت رحمة فرسان مكة وسهامهم ونبالهم ، ولكن الذى مال بقريش إلى التوجس والاحتياط . أنها لم تكن لتقبل أن يدخل محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، مكة ، ولو لم تكن لديه ولديهم نية غزو أو قتال : ذلك أن يدخل المسلمون مكة ، ويؤدوا الفريضة فى الموعد الذى يختارونه وبغير علم سابق ولا رضا من قريش يسقط هيبة قريش ، ويعلن للعرب جميعا . أن المسلمين باتوا من القوة بحيث يستطيعون أن يدخلوا مكة ، حينما ينوون وأن قريشاً لا قبل لها بردهم . فدخول المسلمين مكة مسالمين ، أو دخولهم غازين أمران أحلاهما مر . وانتهى زعماء قريش ، بعد طول المداولة ، إلى أن توفد رجلا يتبين لها ، أولا . قوة محمد عليه الصلاة والسلام ، وحقيقة نيته ثانياً ، وإمكان رده عن إنفاذ هذه النية ، هذا العام ثالثا . لو كانت نيته قد انعقدت على الحج مسالماً ، ظاهراً وباطناً .

وكان أول رسل قريش ، هو « بديل بن ورقاء » ومعه رجال من قبيلة خزاعة ، فسأل الرسول ، عما جاء به إلى مكة ، ولم يلبث بديل ومن معه من الرجال أن تبينوا أن الرسول ، لا يضمر شراً ، ولا ينوى حرباً فعادوا إلى أهلهم ، يفضون إليهم بما رأوا ولعل الرجل قد تأثر بسماحة الرسول ، ولطف حديثه ، فلم يقنع بأن يؤكد لقريش بأن محمداً لا يعزم قتالا ، بل نصح لهم بأن يخلوا بينه وبين البيت الحرام ، ليحسم الشر من

قريب ولتتصرف قريش إلى أعما لها كالعهد بها ، ولم يكن بالأمر الهين على قريش التى عاشت تسعة عشر عاماً تقاتل محمداً ، وتنسب إليه أقبح الصفات ، وأسوأ النوايا ، وتحرض عليه العرب ، وتجيش له الجيوش ، وتحاول أن تقتحم عليه داره فى المدينة ، كان شاقاً على قريش هذه أن تسلك معه مسلك المسالمة لأول نصيحة تأتيها من رجل من رجالها . لتفتح له أبواب المدينة العتيقة ، يدخل إليها ، ومعه البدن ، ومعه رجال من قبائل لم تدخل فى الإسلام ، فيكون للإسلام من وراء ذلك ، كسب أدبى ، دون كسب المعارك . إذ أن أول معانى هذا الدخول السلمى ، هو أن قريشاً ، رضيت أن تخاطبه مخاطبة الند ، كما أن هذا الدخول إعلان لكل العرب ، أن محمداً يتوسل باللين والمسالمة إلى غاياته . وأنه ليس رجل حرب ، وأنه لا يستأثر برحلة الحج وحده ، بل هو يدعو العرب من غير المسلمين ، ليشاركوه فى هذه الرحلة ، وأنهم لبوا دعوته ، وارتضوا صحبته وهذه كلها معالم سلم ، تعلى من شأن محمد ، ومن شأن المسلمين ، ومن شأن الإسلام . ومن هنا كان رفضهم الحازم ، لنصيحة رسولهم « بديل » . ورأت قريش أن توفد رسولا آخر ، توسمت فيه الصلابة . والميل إلى القتال ، هو « الحليس » سيد الأحابيش ، وهم حى من العرب اشتهر بالرماية ، وذهب «الحليس» . وقد اتعظ بما كان من سلفه فى السفارة ، وبهذا كان أميل إلى التشدد ، وافتراض الشر فى المسلمين ، وهكذا وهو فى طريقه ، رأى البدن التى ساقها المسلمون فى مقدمة ركبهم ليضحوا بها ، وفاء بما فرضه الله عليهم وقياماً بمناسك الحج ، فتأثر بمرآها ، وكانت هذه الإبل قد تآكلت أوبارها ، من وعثاء الطريق ، ومن قلة ما أكلت وما شربت فى واد ظاهر الجدب والفقر . وعاد من حيث أتى ولم يخاطب محمداً صلى الله عليه وسلم ، ولا أحداً بين أصحابه ، ودعا قريشاً بمثل ما دعاهم سلفه ، دعاهم إلى التخلية بين محمد صلى الله عليه وسلم والكعبة ، فوقع كلامه من نفوسهم أسوأ موقع ، فقد ظنوا أنهم باختيارهم

رجل حرب ، لا يخشى شأناً من شئون السياسة ، ولا يستجيب للفظ الرقيق ، ولا للمظهر اللين ، قد تجنبوا أن يسمعوا نصيحة كنصيحة «البديل» ، تدعو إلى الجنوح إلى السلام ، فما كادوا يسمعون كلامه ، حتى ثاروا فى وجهه وقالوا له : اجلس ، فإنما أنت أعرابى لا علم لك » يعنى أنك رجل غفلة ، لا تعرف أمور الدنيا ، وتخدع بظاهرها ، وغضب الرجل ، فما عرض على قريش سفارته ، وإنما هم الذين اختاروه ، وقد نصحهم بما رأى وأخلص لهم النصح ، فسبوه ، وعابوه ، فكاد يحل حلفاً كان يربطه بقريش ، لولا أنهم استرضوه ، وأحسنوا له الاعتذار .

وبدا لهم أن خير من يسفر بينهم وبين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، هو حكيم من حكمائهم ، عرف بنفاذ البصيرة ، ورصانة الحكم ، فوقع اختيارهم على « عروة بن مسعود الثقفى » وقد بدت حكمة عروة ، لأول وهلة ، فقد اتعظ بما أصاب سلفيه « بديلا » و« الحليس » ، واعتذر عن النهوض بتبعات السفارة ، ولكنهم ألحوا ، وأطالوا الإلحاح فقبل ، وقد حسب أن الله منحه من حلاوة الكلام ، وحسن المدخل إلى النفوس ما يعينه على إقناع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعودة من حيث أتى فقال للرسول عليه الصلاة والسلام : إن مكة بيضته ، وإنه وإن يفضضها على أهله المقيمين بها ، بمن جمع من أوشاب الناس ثم انصرف هؤلاء الأوشاب عنه كان العار الخالد لقريش عاراً لا يرضاه محمد . وإن اتصلت الحرب بينه وبينها ما اتصلت .

وصاح أبو بكر غضباً ، لما قاله عروة من انفضاض الناس من حول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانصرافهم عنه . فكان ما ظنه عروة أسلوباً مقنعاً حسن الواقع فى النفس ، أسلوباً منكراً تعزف عنه المشاعر ، ويغضب له الحر الوفى ولعل ، عروة كان مثلا : للقديم الذى كانت تمثله قريش ، والذى جاء الإسلام ليزيله ، فقد كان معتداً بمكانته بين قومه ، وعلو كعبه ، وكان لا ينظر إلى رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، إلا أنه زعيم جماعة من أو شاب العرب ، ليس فيهم كبير من كبراء العرب مثله ، أو مثل أبي سفيان أو الوليد بن المغيرة . فجرؤ على أن يمد يده إلى لحية الرسول وهو يحدثه . استخفافاً أو تلطفاً كما تشاء الأمر الذى لم يكن ليجرؤ على إتيان مثله مع زعيم قبيلة يحترمه ويوقره .

ورسول الله . صلى الله عليه وسلم على طول صبره ، وسعة صدره وجميل أناته وحلمه ، لا يسكت على الإهانة ، ولكنه يومذاك ، سكت ولم يصد يد عروة ، بما تستحقه من الغلظة والعنف ، فقد كان معتزماً أن تحس قريش ، بكل وسيلة ، وعن كل سبيل ، أن سفرته إلى مكة ، ذلك العام ، كانت سفرة سلام ودين وتعبد ، وأن الكفار ، لن ينجحوا فى إثارة غضبه ، ولا إفساد غرضه ، ولكن كان من وراء الرسول شاب هو المغيرة ابن شعبه ، وكان يحمل عصاه ، فكلما مد عروة يده إلى لحية الرسول ، ضربه المغيرة عليها ، وقد يخفى عليك ما انطوى عليه هذا الموقف من معنى . إذا لم تكن تعلم أنه كان لعروة فى عنق « المغيرة » أياد لا تنسى فقد دفع عنه قبل الإسلام الدية ثلاث عشرة مرة عن قتلى صرعهم المغيرة . ولكن الإسلام يجب ما سبقه ، وقد دعانا القرآن فى غير موضع منه . ألا نتخذ من الذين كفروا من دون المؤمنين أولياء ، بل إنه خاطب المؤمنين بقوله تعالى : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد فى سبيله ، فتربصوا ، حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين) .

وقد أحس عروة ، بغضبة أبى بكر ، وبعصا المغيرة ، فى نفسه وبدنه معاً ، فكبر مقام الرسول ، ومقام المسلمين فى عينه فعرف سوء تقديره ، إذ عدهم من أو شاب الناس ، وأنهم موشكون على الانفضاض من حوله ، فعاد إلى قريش ، لا لينصحهم بالتخلية بين محمد وأصحابه وبين البيت

الحرام ، بل قال لهم : يا معشر قريش إنى جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ، وإنى والله ما رأيت ملكاً فى قوم قط ، مثل محمد فى أصحابه ، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ، ولا يسقط من شعره شىء إلا أخذوه ، وإنهم لن يسلموه لشىء أبداً ، فروا رأيكم ، أى فقرروا قراركم .

لقد نجحت إذن رحلة الحج ، رحلة السلام ، رحلة التعبد الخالص لله . وأتت أكلها ، فقريش التى كانت تود الحرب ، لأهون سبب ، والتى كانت تتذرع إليه بأوهى الذرائع ، لم تستطع أن تمتشق حساماً ، ولا أن تجرح صدر الرسول صلى الله عليه وسلم ، بشىء من حماقاتها وسوء ظنها . فقد وفى الرسول ، للغرض الذى جاء من أجله ، والتزمه ، ولم يحد عنه قيد أنملة . فأربك ذلك قريشاً كما رأينا ، والرسل الثلاثة الذين أوفدتهم إلى معسكر المسلمين ، بيّن الدلالة ، على مدى ما وقعت فيه قريش من حيرة . بعثت رجلا من رجالها . ورجل حرب من حلفائها ، وزعيماً من زعمائها ، وكان كل منهم يمثل طرازاً من الرجال ، فعادوا جميعاً برأى واحد ، وكان كل منهم يضيف إلى صورة محمد وأصحابه ، جانباً ، يزيد هذه الصورة إشراقاً وسمواً . فهذا رجل يقول إن الرسول عليه الصلاة والسلام لا ينوى حرباً ، وهذا حليف يحسن الحرب ، يتأثر بمنظر الأضاحى تسبق الموكب ، وتعلن نية الحج ، فيقفل راجعاً من حيث أتى ، وذاك رجل حكمة وتجربة ، وزعيم صاحب مكانة وسطوة ، يزن الأمور بخير الموازين ، يقول كلاماً بليغاً ، جمع فأوعى . إذن على قريش أن تنزل راغمة على ما أراده الرسول . جاء لغير حرب ولا قتال ، فلتعامله معاملة الحاج الراغب فى أداء الفريضة ، وإن كرهت أن تعلن أن محمداً عليه الصلاة والسلام عرض نفسه للأذى وللخطر ، وعرض أصحابه للهلاك ، ليؤدى فرض ربه : لهذا ولغيره خاطب الله سبحانه وتعالى الرسول ، فى هذا الموضع وحده بقوله تعالى : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) .

ولم يقنع رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا ، وهذا ليس بالقليل . فقد أوفد صلى الله عليه وسلم ، رسولا من عنده ، يبلغهم ، رسلهم ، مؤملا فى أن يكون فى بعث رسول عن المسلمين ، بيانًا أبلغ عما بلغهم نيته وجنوحه للسلم فأخذت قريش الرجل ، وعقرت جمله ، وهمت به تقتله ، لولا الأحابيش الذين يترعمهم الحليس ، فقد خلوا سبيله . بل إن القرطبي ، يذكر فى شرح سورة الفتح عن أنس : أن ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا على النبي صلى الله عليه وسلم من جبل التنعيم، متسلحين يريدون أخذ المسلمين عن غرة فأخذوهم سلمًا فاستحيوهم – أى لم يقتلوهم – وقال عبد الله بن فضل المزنى : كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم بالحديبية فبينما نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابًا عليهم السلاح فثاروا فى وجوهنا ، فقال رسول الله : « هل جئتم فى عهد أحد ، أى جعل لكم أحد أمانًا » فقالوا لا . فخلى سبيلهم .

وعلى الرغم مما أصاب رسول محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . فقد أراد أن يوفد رجلا من كبار صحابته ، فدعا إليه عمر بن الخطاب ليقوم بالسفارة بين المسلمين وقريش ، فاعتذر إذ لم يكن فى مكة أحد من قبيلته ، قبيلة بنى عدى ، وقريش لا تنسى لعمر غلظته عليها ، وعداوته لها ، واقترح أن يحل محله عثمان بن عفان ، ومضى عثمان بن عفان ، غير هياب ، على سوء ما بدا من قريش ، ومن تلمسها لأسباب القتال ، وعلى طول ما أظهره المسلمون من الصبر والحلم، وطالت المفاوضات بين عثمان رضى الله عنه ، وبين قريش ، وبلغت المسلمين إشاعة مؤداها ، أن قريشًا أصابت عثمان رضى الله عنه بأذى ، هنا فاض كأس الغضب عند المسلمين ، وأحس رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قريشًا بنقضها حرمة شهر ذى القعدة . والبيت الحرام معًا ، قد أعلنت أنها رفضت كل ما توسل به من إعلان حرصه على السلام ، والتزامه به ووفائه له ، فقال : « لا نبرح حتى نناجز القوم » ودعا أصحابه إلى وقفة تحت

شجرة فى هذا الوادى ، فبايعوه على الموت ، أو على ألا يفروا ، أو على الأمرين معاً . وفى هذه الواقعة ، وما جرى فيها من مبايعة تحت الشجرة نزلت الآية الثامنة عشرة من سورة الفتح (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) ، فلما أتم المسلمون البيعة ضرب الرسول صلى الله عليه وسلم بيده اليمنى على يده اليسرى ، رمزاً على مبايعة عثمان بن عفان الغائب ، عن بيعة الرضوان لسفارته لدى قريش . وسرى عن المسلمين الذين كانوا يتحرقون شوقاً للقتال ، والاستشهاد فى سبيل الله ، بعد أن أطال الرسول صبره على المسلمين ، وكشف لهم عن نيته وقصده ، بكل أسلوب ووسيلة . ولكن عثمان بن عفان لم يلبث حتى عاد إلى معسكر المسلمين ، بعد أن كان الظن فى قتله ، سبباً فى وقوع بيعة الرضوان ، لتكون معلماً من معالم تاريخ الدعوة الإسلامية : معلما دالا على قوة الترابط بين المسلمين ، وحرصهم على أن يكون للغائب منهم ، مثلما للحاضر من الفضل ، والاعتبار . وأعلن عثمان للرسول صلى الله عليه وسلم أن قريشاً ، أيقنت أن المسلمين جاءوا حاجين ، وأنهم لا يطوون الصدور على الغدر ، ولا يبغون من رحلتهم إلا القيام بالفريضة ، وأرسلت قريش رسولها ليفاوض النبى عليه الصلاة والسلام ، ويعقد معه عهداً على ألا يكون فى هذا العهد ، أن يدخل هو ومن معه مكة ذلك العام ، حتى لا يقول العرب إن المسلمين دخلوها عنوة ، إذ علم كل من فى الجزيرة أن قريشاً صدت محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ولبست من أجل قتالهم جلد النمور ، وعقدت لواء الجيش لخالد بن الوليد ولعكرمة ، فإن أجازت بعد ذلك مرور المسلمين إلى البيت الحرام ، فإنها الهزيمة بعد المفاوضة .

وجلس الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، يملى على ابن عمه على بن أبى طالب شروط الصلح فقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل بن عمرو مندوب قريش : أمسك ، فما ندرى ، بسم الله الرحمن الرحيم ، ولكن اكتب

ما نعرف : باسمك اللهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتب من محمد رسول الله . فقال سهيل : أمسك . لو علمنا أنك رسوله لا تبعناك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اكتب من محمد بن عبد الله فاشترطوا على النبي صلى الله عليه وسلم : أن من جاء منكم لم نرده عليكم ، ومن جاء منا رددتموه علينا ، فقال المسلمون : يا رسول الله أنكتب هذا ؟ قال : « نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ومن جاءنا منهم ، فسيجعل الله له مخرجا ».

وروى البراء بن عازب ، كما يقول القرطبي كتب على رضى الله عنه الصلح بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المشركين يوم الحديبية فكتب هذا ما كاتب عليه محمد رسول الله ، فقالوا (أى المشركون) لا تكتب رسوالله ، فلو نعلم أنك رسول الله لم نقاتلك . فقال النبى صلى الله عليه وسلم لعلى : « امحه » فقال على فما أنا بالذى أمحاه (أى امحوه) فمحاه النبي صلى الله عليه وسلم بيده» .

هنالك بلغ الضيق بالمسلمين ، أقصى الغاية، وهنا كان عمر بن الخطاب هو أسرع الناس إلى المعارضة حين يرى ما لايرضى المسلمين أو ما غم عليهم ، وأعلاهم صوتاً فى هذه المواطن ، فقد أتى رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله : ألسنا على حق وهم على باطل . قال : بلى ! قال عمر : أليس قتلانا فى الجنة ، وقتلاهم فى النار ، قال بلى : قال ففيم نعطى الدنية فى ديننا ونرجع ، ولما يحكم الله بيننا وبينهم فقال : « يا بن الخطاب إنى رسول الله ، ولن يضيعنى الله أبداً » ، قال فانطلق عمر ، فلم يصبر متغيظاً ، فأتى أبا بكر فأعاد عليه ما قاله للرسول فقال له — فى رواية — إنه رسول الله ولن يضيعه أبداً ، وفى رواية ثانية قال لعمر : ياعمر الزم غرزك — أى الزم حدك ، ولا تتجاوزه ، فإنى أشهد أنه رسول الله ، فعاجله عمر بقوله : وأنا أشهد أنه رسول الله .

وكأن الله أراد أن يمتحن المسلمين والرسول معهم ، فى هذا الموقف ، امتحاناً عسيراً ، إذ ما كاد الصلح يمضى حتى جاء إلى معسكر المسلمين فى الحديبية ، أبو جندل بن سهيل بن عمرو ، أى ابن سفير قريش ومندوبها فى المفاوضة مع الرسول ، فضربه أبوه على وجهه وأخذ بتلابيبه وجعل يجره ليرده إلى قريش ، والولد يصيح : يا معشر المسلمين ، أرد إلى المشركين يفتنونني فى دينى !

ولك أن تتصور كيف كانت هذه الصيحة شديدة الوقع على نفوس المسلمين ، وكيف كان ضبطهم لنفسهم ، شاقاً عسيراً ، كلفهم ، يومذاك فوق ما يطيقون ، وجعلهم أكثر عجزا عن تبين الحكمة من عقد هذا الصلح : ومن الرضاء بهذا الموقف ، بغير قتال ، وبغير هزيمة ، ولكن الرسول بقى والسكينة تملأ نفسه ، وإن كان يحس أعظم الإحساس ، بما يخالج نفوس أصحابه من القلق والاضطراب وعدم الرضا ، ثم قام فحلق شعره ، حلقه له خراش بن أمية بن أبى العيص الخزاعى . وأمر رسول الله من معه أن ينحروا ذبائحهم ، ويتحللوا من قيود الحج ، فلبى أمره مسلمون فحلقوا ، ثم لبى وراءهم آخرون ترددوا ، فى إجابة الأمر ، ألماً من شروط الصلح ، وكرهاً للعودة إلى المدينة دون حج ، مما قد يغرى أعداء المسلمين ، واليهود على رأسهم ، بمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحاب محمد رضى الله عنهم . ولكنهم تحللوا من الحج ، ونحروا ، اشترك كل سبعة من المسلمين فى ناقة واحدة .

وبقى المسلمون فى اضطرابهم . ومن آيات هذا الاضطراب ما رواه موسى بن عقبة : قال رجل عند منصرفهم من الحديبية . ما هذا بفتح ، لقد صدونا عن البيت فقال النبى صلى الله عليه وسلم بل هو أعظم الفتوح ، لقد رضى المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح ، ويسألوكم القضية ، ويرغبوا إليكم فى الأمان ، وقد رأوا منكم ما كرهوا ، وقال مجمع بن جارية : شهدنا الحديبية ، مع النبى صلى الله عليه وسلم ،

فلما انصرفنا عنها إذ الناس يهزون الأباعر (أى يهرعون) فقال بعض الناس لبعض : ما بال الناس : قالوا : أوحى الله إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : فخرجنا نوجف (أى مسرعين) فوجدنا النبى صلى الله عليه وسلم عند كراع الغميم (موقع بين مكة والمدينة) ؛ فلما اجتمع الناس قرأ النبى صلى الله عليه وسلم «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً» ، فقال عمر بن الخطاب : أوفتح هو يا رسول الله . قال : «نعم ! والذى نفسى بيده إنه لفتح» .

ويقول الزهرى : لقد كان الحديبية أعظم الفتوح ، وذلك لأن النبى صلى الله عليه وسلم ، جاء إليها فى ألف وأربعمائة ، فلما وقع الصلح مشى الناس بعضهم فى بعض أى اختلط المسلمون بالمشركين ؛ وعلموا وسمعوا عن الله ، فما أراد أحد الإسلام إلا تمكن منه ، فما مضت تلك السنتان إلا والمسلمون قد جاءوا فى عشرة آلاف . وقال الزهرى مرة أخرى : ما فتح الله فى الإسلام فتحاً كان أعظم من صلح الحديبية ، لأنه إنما كان القتال فلا تلتقى الناس ، فلما كانت الهدنة . وضعت الحرب أوزارها ، وأمن الناس بعضهم بعضاً ، فالتقوا وتفاوضوا الحديث والمناظرة . فلم يعلم أحد يعقل شيئاً بالإسلام إلا دخل فيه . فقد دخل فى تينك السنتين فى الإسلام ، مثل ما كان فى الإسلام قبل ذلك وأكثر . يدلك على ذلك أنهم كانوا سنة ست يوم الحديبية ألفا وأربعمائة ، وكانوا بعد الحديبية سنة ثمان فى عشرة آلاف .

أنزل الله تعالى ، على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، فى موقع بين مكة والمدينة . فى العام السادس للهجرة ، وبعد صلح الحديبية الذى عاد منه المسلمون بلا حج ولا غزو ولا قتال قوله تعالى : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً) .

وأكثر المفسرين على أن هذا الفتح المبين ، هو صلح الحديبية وإن كان بعضهم يقول : إن الفتح المقصود فى هذه الآية هو فتح مكة الذى تم للمسلمين فى عامهم الثامن للهجرة ، وآخرون يقولون بل هو فتح خيبر معقل اليهود الأخير ، الذى تم بعده إجلاؤهم عن أرض الحجاز ، وأرض العرب فى الجزيرة قاطبة .

ولكن الصحيح ، هو أنه صلح الحديبية ، فقد نزل القرآن على أثر هذا الصلح ، ورداً لمن قال من المسلمين إنه ليس فتحاً ، وبعد أن اضطرب المسلمون وتلكأوا فى تلبية أمر الرسول بالتحلل من الحج ، ونحر الذبائح .

وصلح الحديبية ، هو معلم من أعظم معالم تاريخ العقيدة الإسلامية ، ويوم من أكبر أيام تاريخ المسلمين ، ومعانيه كثيرة وجليلة ، والحديث فيها ذو سعة . ويزيد من خطر هذا اليوم على مر الحقب أنه يتيح لبعض المسلمين من ضعاف النفوس ، كلما قارفوا فى حق بلادهم تفريطاً ، أو بدا لهم أن يدعوا إلى المنهج السهل ، فى النود عن حياض الدين أو العقيدة ، حجة يشهرونها ، وهم يقولون ألم يفعل الرسول كذا وكذا فى يوم الحديبية ، وقبل أن يخاطب بغير صفته ، وأن يمحوا من صحيفة العهد « بسم الرحمن الرحيم » ، ويستبدل به مصطلح المشركين « باسمك اللهم » ولم يقبل أن يرد إلى الكفار ، من لجأ منهم إلى المسلمين ، وألا يرد المشركون من هرب منهم بدينه إلى المسلمين . وهذه كلها أوهام لاتقوم على قدم فصلح الحديبية كان حقاً أعظم الفتوح الإسلامية ، وإليك البيان ، وبالله التوفيق .

على من يريد أن يزن نتائج صلح الحديبية ، وأن يعرف هل كان المسلمون من أصحاب الرسول ، محقين ، فيما ساورهم من حزن وضيق ، عندما قفلوا إلى بيوتهم فى المدينة ، دون أن يدخلوا مكة ، ويطوفوا حول الكعبة ، ويؤدوا الفريضة — عليه أن يحضر أولا ، أن

الرسول عليه السلام ، منذ اللحظة الأولى ، كما قررنا ، كان متوياً أن يحج ، وأنه أحرم بالحج ، عند (ذى الحليفة) ، وأنه دعا غير المسلمين من القبائل المجاورة للمدينة ، أن يشتركوا مع المسلمين فى سفرة الحج . فالنبي عليه السلام ، لم يعتزم وقتذاك ، أن يقوم بغزوة حرب ، ولا بسفرة سياسة ، فهو لم ينو قتال قريش ، وكما لم ينو أن يناور قريشاً ويداورها : ليحقق غرضاً من أغراض الدنيا وغاية من غايات السياسة . فانتقاله إلى مكة ، كان عبادة محضة . وإذا كان الله ، قد علم المسلمين بعد ذلك ، أن من فرض على نفسه الحج ، عليه أن يعلم أن الحج ليس فيه رفث ولا فسوق ولا جدال ، وإذا كان الله قد اختار محمداً ليعلم العرب أولا ، ويعلم معهم العالم كافة . فواجبه أن يضرب المثل الأعلى ، فى احترام آداب الحج ، وأخلاقه ، فنجاح هذه الرحلة الفريدة ، فى فى تاريخ العقائد والأديان ، وفى تاريخ حركات البعث الروحى ، والنهضات السياسية معاً ، يقاس بمقدار البعد فيها ، عن العنف والتزام القائمين بها ، سعة الصدر ، الحلم ، وطول الأناة ، ومقابلة الأذى بالصفح ، واللجاجة فى الخصوم ، واللدد فى العداوة ، بالمغفرة والسماحة . ولقد تم ذلك كله على أحسن وجه ، وأجمل صورة . تحرش المشركون بالمسلمين ، وقتلوا منهم ، وقد مر بناشىء من هذا نضيف إلى ما رواه قتادة قال : ذكرلنا أن رجلا من أصحاب رسول الله يقال له زنيم ، الثنية من الحديبية ، أى اصعد إلى المنحنى من الحديبية ، فرماه المشركون بسهم فقتلوه ، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى من قتلوه يقول : هل لكم على ذمة ؟ يعنى بينى وبينكم عهد يحميكم من العقاب ، قالوا : لا فأرسلهم ، أى أطلق سراحهم .

وقال ابن الأكوع : كانوا فى أمر الصلح ، إذ أقبل أبو سفيان . فإذا الوادى يسير بالرجال والسلاح : قال : فجئت بستة من المشركين أسوقهم متسلحين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ، فأتيت بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عمر فى الطريق : قال يا رسول الله

نأتى قوماً حرباً وليس معنا سلاح ولا كراع ، وأطلق الرسول سراح هؤلاء كذلك . فالمسلمون ، ألفوا ألا يخرجوا من عاصمتهم المدينة إلا مسلحين : مستعدين للقاء الأعداء أحسن الاستعداد ، سلاحاً ، وعدة وتدريباً وخطة ، ولم يكن ينالهم أذى من المشركين إلا ردوه . فكان غريباً عندهم ، أن يقتل منهم قتيل ، ويخرج عليهم الفرسان ، ويضبط المتسللون ، فلا يؤسرون ، ولا يقتلون ، وإنما ترد لهم حريتهم .

كل ذلك ، يتفق مع خلق الحاج ، وأسلوب المتعبد ويؤكد أن المسلمين ، ينظرون إلى منسك الحج ، كوسيلة لتوحيد البشر ، ونزع الأحقاد من نفوسهم ، وتأكيد إنسانيتهم ، وتلقينهم دروساً فى التسامح . وضبط النفس .

على أن ما يتبادر إلى الذهن ، فى الوهلة الأولى ، من أن الرسول عليه الصلاة والسلام ، نزل للمشركين عن الكثير ، فليس صحيحاً على الإطلاق ، الحقيقة أن رسول الله علم المشركين ، والمسلمين درساً فى ضبط النفس . والسماحة والصبر ، فقد صبر على شكوكهم فى نواياه ، كما صبر على لجاجتهم ومطاولتهم ومحاورتهم فيما سبق المفاوضة ، وخلال كتابة العهد ، كما احتمل فظاظة مندوبهم عروة بن مسعود ، وقلة كياسة سهيل بن عمرو ، ولكنه لم يعطهم شيئاً . وقد كان على أبواب مدينتهم ، وهم أبعد ما يكونون عن أرض المسلمين فلم يعطهم شبراً من أرض ، ولا عقالا لبعير ، ولم يجاملهم فى صغيرة أو كبيرة على حساب الإسلام . بل فاوضهم بوصفه قائد المسلمين ورئيسهم وعلى أن للمسلمين دينهم وللمشركين دينهم .

أما أن رسول الله ، عليه السلام ، قد قبل أن يمحو عبارة هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، واستبدل بها ما «هذا صالح عليه محمد بن عبد الله» كما قبل أن يمحو بسم الله الرحمن الرحيم ، ليكتب مكانها باسمك اللهم ، فقد كان ذلك داخلا فيما اعتزمه عليه السلام ، من أخذ المشركين

بالرفق ، ليتيح للمسلمين حج البيت وأداء الفريضة ، وليس فى التزول على ما طلبه المشركون ، تفريطاً فى شىء ، فهؤلاء المشركون لم يكونوا قد اعترفوا بمحمد رسولا من عند الله ، ولا اعترفوا بإلهه ورب المسلمين ومن السخف تصور أن مجرد وصول المسلمين فى ألف وأربعمائة منهم ، وليس معهم سلاح مشهر ، ولا عدة حرب كاملة ، كان كافياً ، ليحول مشركى بلا قريش من الكفر بمحمد وربه إلى مؤمنين به وبالله سبحانه وتعالى . فإذا أصر رسول الله على أن يكتب فى صك المعاهدة ، اسمه كرسول الله ، فكان الأجدر به أن يوفر على نفسه مشقة الانتقال من المدينة إلى مكة ، ومشقة الطريق المضنى إلى الحديبية والبقاء هناك أياماً ، وهو موقع قليل الماء ، لا تتوافر فيه راحة ، تحت خطر الانقضاض من جيش مكة فى كل لحظة بالليل والنهار . أما الشرط الثانى الذى يلزم المسلمين برد من يفرّ من المشركين إليهم ، على ألا يردوا هم من يفر من المسلمين إلى المشركين ، فليس فيه أية خسارة ، بل إنه متفق مع خطة الملاينة والتسامح ، مع أهل مكة ، فأما الذين يفرون من معسكر المسلمين ، فأولئك مرتدون ، قد طهر الله صفوف المسلمين منهم . وليس فى الإسلام ، إكراه ، أما المسلم الذى يخلص إلى المسلمين . ويترك مكة ومن فيها ، فلا خوف عليه فى مكة ، لأن إيمانه سيعصمه من فتنتهم ، وسيجعل الله له مخرجاً ، بل إن وجوده بينهم ، وقد تعزز الإسلام بالمعاهدة ، وبتفاوض المشركين مع رسول الله ، وبما قبلوه من أن يسمحوا للمسلمين بأن يحجوا فى العام التالى ، وأصبح قادراً على أن يجادل خصوم الإسلام ويدعوهم إليه ، وقد صدق حدس رسول الله ، فما كادت المعاهدة توقع حتى فر من معسكر قريش أبو بصير ، إلى المدينة بغير إذن مولاه ، فطالبت مكة برده إليها ، عملا بنصوص المعاهدة ، فأعاده رسول الله عليه السلام إليها فى حراسة رجل من قبيلة بنى عامر ، على الرغم من استعطاف أبى بصير للرسول أن يبقيه

فى المدينة بين إخوانه المسلمين ، ولكن الرسول ، قال له : « يا أبا بصير ، إنا قد أعطينا هؤلاء ما قد علمت ، ولا يصح لنا فى ديننا الغدر ؛ وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، فانطلق إلى قومك » فانطلق أبو بصير ، ومعه حارسه ، فلما بعدا عن المدينة وطلب أبو بصير من حارسه أن يريه سيفه ، فلما أعطاه الرجل السيف استله أبو بصير ، وعلا به الرجل وقتله ، وعاد إلى المدينة ، وأبى رسول الله أن يأويه ؛ مضى الرجل إلى موقع على البحر الأحمر ، فى طريق قريش إلى الشام وانضم إليه عدد من المسلمين الباقين فى مكة ، فمازالوا يتصدون لقوافل قريش ، يقطعون عليها هذا الطريق حتى ضجت قريش وطلبت من رسول الله أن يأوى أبا بصير إليه فى المدينة ومن معه ، وفعل الرسول عليه الصلاة والسلام ولم يكد العام يستدير ، حتى نادى الرسول فى الناس ، كى يتجهزوا للخروج إلى عمرة القضاء ، بعد أن منعوا منها ، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه ألفان من المسلمين ، وأمامهم ستون ناقة ، تسير أمام ناقة الرسول القصواء ، ولما عرفت للقريش بمقدم الرسول وأصحابه ، جلت عن مكة ، كما تنص شروط المعاهدة ، وصعدت فى التلال المجاورة وأقامت فى خيام ، ثلاثة أيام ، والمسلمون تدوى أصواتهم « لبيك ! لبيك » حتى إذ وصلوا إلى المسجد الحرام ، أخرج الرسول عضده اليمنى من ردائه ، وقال : « اللهم ارحم امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة » فراع الكفار أن المسلمين أقوياء يهرولون مع الرسول إذا هرول ، ويبطئون إذا أبطأ فى نظام أخاذ ، واتساق بديع ، فمحت هذه الصورة من نفوسهم كل ما سمعوه ، من أن المسلمين فى المدينة يعانون من الجوع ، ونقص فى الأرزاق ، وهمّ « عبد الله بن رواحة » أن يقذف فى وجه قريش ، بصيحة الحرب ، فمنعه عمر ، وقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : مهلاً يا بن رواحة ! وقل لا إله إلا الله ، وحده ، نصر عبده ، وأعز

جنده ، وخذل الأحزاب وحده .

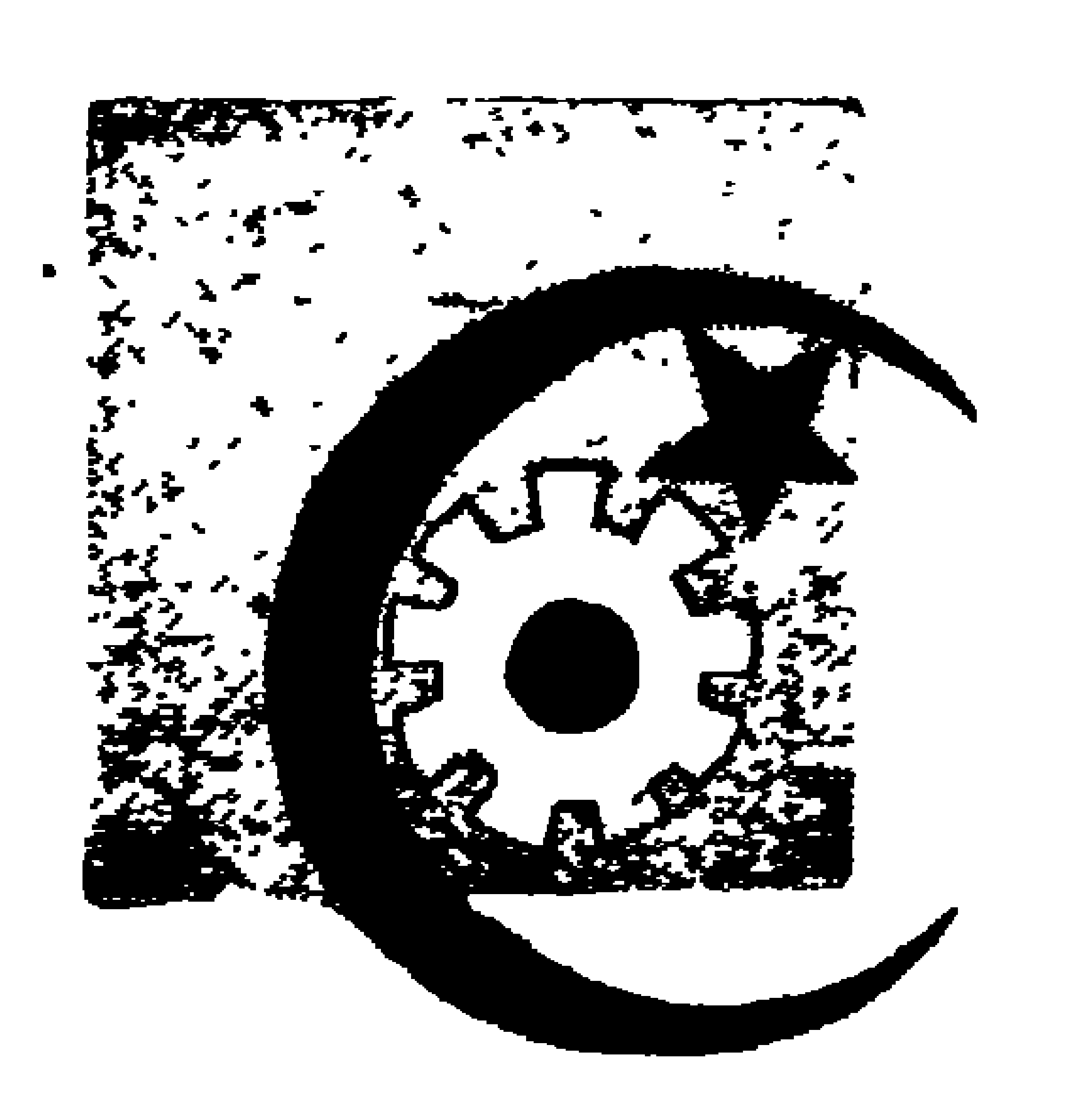
وبقى المسلمون فى مكه ثلاثة أيام ، هزت نفوس الكفار هزاً ، بعد أن هزهم صلح الحديبية وما رأوه من نظام المسلمين وترابطهم ، والتفافهم حول الرسول ، صدق طاعتهم له ، وحرصهم على السلام واحتمالهم لأذى الشرك والمشركين ، وهم قادرون على رده . فدخلوا فى الإسلام أفواجاً ، وكان على رأس من دخل فى الإسلام تلك السنة ، خالد بن الوليد ، بطل أبطال قريش ، الذى أبلى فى حرب أحد ما أبلى. وأسلم بعد خالد عمرو بن العاص ، داهية العرب ، وحارس الكعبة عثمان بن طلحة .

فإذا كان العام التالى ، وكانت قريش قد نقضت العهد ، فجاز للمسلمين أن يقتحموا عليها دارها ، فجاءها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على رأس جيش ، لم يشهده العرب من قبل ، بلغت عدته عشرة آلاف ومع ذلك لا نقول إن صلح الحديبية كان خطة سياسية ، مهدت لهذه الانتصارات العسكرية والسياسية . فرسول الله عليه السلام ، كان خالص النية ، حينما عزم على الحج ، وأنه لم يقصد مكة فى عامه السادس من الهجرة ، حتى يرغم قريشاً على صلح الحيبية ليكون من وراء هذا الصلح ، هذا النصر الذى أفاءه الله على رسوله والمسلمين . إنما كان ذلك كله فى ضمير الغيب ، وقد كتبه الله للمسلمين لأنهم أخلصوا له دينهم ، ووثقوا به ، واطمأنوا إليه .

ولقد صدق رسول الله إذ قال وهو يلخص نتائج صلح الحديبية على ما مر بنا : « بل هو أعظم الفتوح قد رضى المشركون أن يدفعوكم عن بلادكم بالراح ، ويسألوكم القضية ويرغبوا إليكم فى الأمان وقد رأوا منكم ما كرهوا » .

فقد كان العهد بقريش أنها لا تطيق أن تسمع اسم محمد ، ولا أن يكون بينها وبين المسلمين من صلات ، إلا صلة المحارب بمن

يحاربه ، والعدو بعدوه ، صلة القتال ، والتهيؤ له ، واستنفار الناس ، وعقد المحالفات ، وتحريض القبائل ، تضييقاً على المسلمين ، وسد المسالك فى وجههم فماذا حدث يوم الحديبية ، اضطروا ، بعد طول التردد والتوجس ، أن يرسلوا إليه الرسول بعد الرسول ، فخذلتهم رسلهم ، وأحسنت الشهادة فى حق رسول الله وحق المسلمين ، ثم انتهى بها الأمر إلى التحدث إليه ، والمفاوضة معه ثم عقدت الهدنة لعشر سنوات فى رأى ولسنتين فى رأى . فلم يعد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذن هذا الساحر أو الكاهن أو المجنون ، ولم يعد خارجاً على قريش ، يسب آلهتها وما يعبد آباؤها ، بل أصبح قوة يحسب حسابها ، ويحسن الإقرار بقوتها . وهذا ما عناه رسول الله، عليه السلام، بقوله : « قد رأوا منكم ما كرهوا » أى رأوا منكم القوة والبأس والنظام والطاعة . وصلح الحديبية ، كان فتحاً للمسلمين . بمعنى آخر ، فقد عصمهم الله من الفرقة ، وعصمهم من الخضوع لدواعى الغضب ، ولحمية الجاهلية التى لا تعرف السيف سبيلا للإقناع والدفاع عن الرأى ، ووقاهم من الاستسلام لوسوسة الشيطان التى ألقت فى روع البعض أن المسلمين نالهم فى هذا اليوم خزى ، ولحقت بهم هزيمة ، وأنه يوم يجرؤ عليهم أعداؤهم ، وينفتح عليهم باب شر . وما لبثوا حتى تبينوا أن الرسول لا يضيعه الله أبداً ؛ لأنه مشمول برعايته ، وأن الله تعالى صدق وعده إذ قال : (كتب الله ، لأغلبن أنا ورسلى) .



خلافة الإنسان

القرآن الكريم ، هو كتاب الإنسان ، منذ أربعة عشر قرناً ، وقد أخرج الناس بعده : أسفاراً وكتباً ، فى أحوال الإنسان وطباعه ، وفضائله و رذائله ، وصحته ومرضه ، وقبائله وشعوبه ، وتاريخه وعلومه ، وعقائده وأديانه ، ما لو وضع بعضها فوق بعض ، لأصبح تلالا ، بل جبالا ، ولا زرت فى ارتفاعها وطولها ، وضخامتها وشموخها ، بالجبال التى نعرفها فى الطبيعة ، ونلقى عناء أى عناء ، فى الوصول إلى قممها الرفيعة ، وهاماتها المنيعة ، ومع ذلك بقى القرآن فى جملته وتفصيله بين هذه الكتب جميعاً ، الكتاب الأم ، ولما تقدم الإنسان فى علمه ، وعرف التخصص ، ووفق إلى وسائل ، لتحصيل المعرفة ، وتأصيلها ، وتعقب أصغر مفرداتها ، وأبعد عناصرها ، بوسائل أبدعتها علوم الفيزياء والكيمياء ، والحركة والآلة ، إذ أخرجت المجاهر وطرق التحليل ووسائل التصوير وأدوات التسجيل ، ما أطلق الإنسان فى أجواز الفضاء ، وأعماق الماء ، ومجاهل الجسم الإنسانى ، وفيافى النفس البشرية ، يصطاد ويقتنى ، ثم يفهرس ويصنف ، ويوزع ويبوب ، ويقوم ذلك كله جيوش ضخمة من العلماء والأساتذة ، والمساعدين والمعاونين ، من كل سن وجنس ، وفى كل فرع وعلم :

لذلك أصبح الإنسان وعاء لمئات من العلوم ، وأصبح كل وعاء لمئات من الفروع ، وأصبح كل فرع ، محتوى لمئات من الشعب . . ومع ذلك كله بقى القرآن ، هو كتاب الإنسان (الأم) لأنه ينظر إلى الإنسان باعتباره وحدة متكاملة ، ويتعقبه منذ لم يكن شيئاً مذكوراً . (هل أتى على الإنسان حين من الدهر ، لم يكن شيئاً مذكوراً) . ثم يبقى معه خطوة خطوة ، وهو يضطرب فى هذه الدنيا ، طفلا وصبياً ، وشاباً ورجلا ، وكهلا وشيخاً ، وهو يؤمن ويكفر ، ويخاف ويطمع . ويعد ويكذب ، ويصدق وينافق ، ويرضى ويغضب ويحب ويكره ، ويتئد ويفجر ، ويتذبذب ويتريث وفى آية واحدة ، يروى القرآن أطوار الإنسان فيقول الله تعالى : (فإنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً) .

ولا شك أن هذه الآية ، ليست إلا إفصاحاً ، رائعاً عن حرص هذا الكتاب المبين ، عن تعقب الإنسان فى أدواره ، مهما ضؤلت ، وصغرت وبعدت عن المشاهدة ، ونأت عن نشاط الإنسان اليومى المتصل بمصالحه المباشرة التى تشغله ، وشهواته القوية التى تحركه . والغاية من هذا التعديد ، والتفصيل ، هو ما جاء القرآن من أجله ، وما نجح فى تحقيقه ، ذلك ، بدعوة الإنسان والإلحاح عليه ، إلى التأمل فى ذاته ، وحياته ، وأطواره وأدواره ، ونوازعه وبواعثه ، الخفى منها والظاهر ، لأن ذلك كله ، يدعوه إلى الإيمان بقوته ، وإيمانه بقوته ، يدفعه إلى الإيمان بخالقه ، يزيد من إيمانه بقوته إن يحميه من الضعف ، واليأس ، والتذبذب والتردد ، ومن الخوف والوهن ، فإذا هو أعظم إيماناً ، وهكذا دواليك . .

وليست غايتنا التعرف عن هذا المعنى وحده ، وإنما اتخاذ هذا مدخلا إلى المعانى التى وردت فى الآية الثلاثين من سورة البقرة . فحسبنا أن نورد ، نماذج مما ورد عن بعض خصائص الإنسان وصفاته ، فى القرآن ، وعن بدء خلقه (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون) الحجر (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) السجدة (خلق الإنسان من علق) العلق : (وخلق الإنسان ضعيفا) النساء (إن الإنسان لظلوم كفار) إبراهيم . (وكان الإنسان عجولا) (وكان الإنسان كفورا) الإسراء (وكان الإنسان قتورا) الإسراء (وكان الإنسان أكثر شيء جدلا) الكهف (إن الإنسان خلق هلوعاً ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً) المعارج . . . إلخ .

على أن الآية التى وضعت الإنسان ، حيث لم يضعه كتاب ولا دين ولا مذهب ولا علم ، فهى الآية الثلاثون وما بعدها من سورة البقرة ونصها :

(وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك ؟ قال إنى أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا ، إلا ما علمتنا إنك العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) .

وسنرى أولا ، ما قاله المفسرون قدامى ، ومحدثون ، فى هذه الآيات .

يقول القرطبى : قوله تعالى (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها)

قد علمنا قطعاً أن الملائكة لا تعلم إلا ما أعلمت ولا تسبق بالقول ، وذلك عام فى جميع الملائكة لأن قوله (لا يسبقونه بالقول)خرج على جهة المدح لهم فكيف قالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها) فقيل : المعنى أنهم لما سمعوا لفظ خليفة فهموا أن فى بنى آدم من يفسد ، إذ الخليفة المقصود منه الإصلاح وترك الفساد ، ولكن عمموا الحكم على الجميع بالمعصية : فبين الرب تعالى أن فيهم من يفسد ومن لا يفسد فقال تطييبا لقلوبهم (إنى أعلم) وحقق ذلك بأن علم آدم الأسماء وكشف لهم عن مكنون علمه . وقيل إن الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء وذلك لأن الأرض كان فيها الجن قبل خلق آدم ، فأفسدوا وسفكوا الدماء ، فبعث الله إليهم إبليس فى جند من الملائكة فقتلهم وألحقهم بالبحار ورءوس الجبال ، فمن حينئذ دخلته العزة فجاء قولهم (أتجعل فيها) على جهة الاستفهام المحض : هل هذا الخليفة على طريقة من تقدم من الجن أم لا ؟ قال أحمد بن يحيى ثعلب ، وقال ابن زيد وغيره : إن الله تعالى أعلمهم أن الخليفة سيكون من ذريته قوم يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء ، فقالوا لذلك هذه المقالة ، إما على طريق التعجب من استخلاف الله من يعصيه أو من عصيان الله من يستخلفه فى أرضه ، وينعم عليه بذلك ، وإما على طريق الاستعظام والإكبار للفصلين جميعاً « الاستخلاف والعصيان » . وقال قتادة : كان الله أعلمهم أنه إذا جعل فى الأرض خلقاً أفسدوا وسفكوا الدماء ، فسألوا حين قال تعالى : (إنى جاعل فى الأرض خليفة) أهو الذى أعلمهم أم غيره . وجاء فى تفسير الطبرى عن الحسن وقتادة ، قالا ، قال الله تعالى لملائكته (إنى جاعل فى الأرض خليفة) ، قال لهم : إنى فاعل — فعرضوا برأيهم ، فعلمهم علما ، وطوى عنهم علماً ، علمه لا يعلمونه ، فقالوا بالعلم الذى علمهم « أيخلف فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إنى

أعلم ما لا تعلمون » فلما أخذ فى خلق آدم همست الملائكة فيما بينها : فقالوا ليخلق ربنا ما شاء أن يخلق ، فلن يخلق خلقاً إلا كنا أعلم منه ، وأكرم عليه منه ، فلما خلقه ونفخ فيه من روحه ، أمرهم أن يسجدوا له ، لما قالوا ، ففضله عليهم ، فعلموا أنهم ليسوا بخير منه . فقالوا إن لم نكن خيراً منه ، فنحن أعلم منه ، لأنا كنا قبله . وخلقت الأمم قبله ، فلما أعجبوا بعملهم ابتلوا (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) إنى لا أخلق خلقاً إلا كنتم أعلم منه ، فأخبرونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قال ، ففزع القوم إلى التوبة — وإليها يفزع كل مؤمن — فقالوا (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم) .

وجاء فى تفسير المنار : إن هذه الآيات متصلة بما قبلها من الكلام فى الكتاب ومن جاء به ، ومن دعى إليه ، فهى تجلى حجة الرسول ، ودعوته من حيث إن الملائكة إذا كانوا محتاجين إلى العلم ويستفيدونه بالتعلم من الله بالطريقة التى تناسب حالهم فالبشر أولى بالحاجة إلى ذلك منهم ، لأن طبيعة البشر جعلت على أن يكتسبوا كل شىء اكتساباً ، وهى من جهة أخرى تسلية له صلى الله عليه وسلم ببيان أن البشر أولى من الملائكة بإنكار ما لم يحيطوا بعلمه حتى يعلموا ، وأنهم جبلوا على أن يتوبوا ويرجعوا بعد أن يخطئوا ويذنبوا ، إن الإفساد فى الأرض وجحود الحق ، ومناصبة الداعى إنه ليس بدعاً من قومه — وإنما هو جبلة أهل الفكر وطبيعة البشر .

ثم قال : فقد سرى إلى المسلمين من أساطير الفرس وخرافاتهم ، ومنه أنه كان فى الأرض قبل آدم خلق يسمون بالجن والحن ، أو الطم والرم ، والأكثرون على أن الخلق الذين كانوا فى الأرض قبل آدم مباشرة كانوا يسمون الجن ، والقائلون فهم « بالحن » المهملة ، والحن قالوا إنهم كانوا قبل الجن ، وقالوا إن هؤلاء عاثوا فى الأرض فساداً ، فأبادهم الله .

ثم تناول المقصود بلفظ (الخليفة) فى هذه الآيات فقال :

« جرت سنة الله فى خلقه بأن تعلم أحكامه للناس ، وتنفذ فيهم على ألسنة أناس منهم يصطفيهم ليكونوا خلفاء عنه فى ذلك ، وكما أن الإنسان أظهر أحكام الله وسنته الوضعية (أى الشرعية) كذلك أظهر حكمه وسننه الخلقية الطبيعية فيصح أن يكون معنى الخلافة عاماً فى كل ما ميز الله به الإنسان على سائر المخلوقات ، تطق الوحى ودل العيان ، والاختبار على أن الله تعالى خلق العالم أنواعاً مختلفة ، وخص كل نوع غير نوع الإنسان بشىء محدود معين لا يتعداه ، فأما مالا نعرفه إلا من طريق الوحى كالملائكة ، فقد ورد فيها من الآيات والأحاديث ما يدل على أن وظائفه محدودة .

وأما ما نعرفه بالنظر والاختبار فهو حال المعدن والجماد ولا علم له ولا عمل ، وحال النبات ، وإنما تأثير حياته فى نفسه . فكل حى من الأحياء المحسوسة والغيبية فإن له استعداداً محدوداً ، وعلماً إلهياً محدوداً وعملا محدوداً ، وما كان كذلك لا يصلح أن يكون خليفة عن الذى لا حد لعلمه وإرادته ، ولا حصر لأحكامه وسننه ولا نهاية لأعماله وتصرفه .

أما الإنسان فقد خلقه الله ضعيفا كما قال فى كتابه (وخلق الإنسان ضعيفاً) وخلقه جاهلا كما قال تعالى : (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً) ، ولكنه على ضعفه وجهله ، عبرة لمن يعتبر ، متواضع لعجب المتعجب لأنه مع ضعفه يتصرف فى الأقوياء ومع جهله فى نشأته يعلم جميع الأسماء .

وجاء فى التفسير الوسيط :

« معنى قوله (إنى جاعل فى الأرض خليفة) إنى خالق فى الأرض خليفة ، وهو آدم ، عليه السلام ، وخواص بنيه من البشر ، وهم الرسل ذلك إن كان المراد بالخلافة ، الخلافة من جهة الله سبحانه فى إجراء

أحكامه بين الناس وسياسة خلقه ، لقصر استعداد المستخلف عليهم وعدم لياقتهم لقبول الفيض الإلهى ، فتخص بآدم الخواص من بنيه ، فإن أريدت الخلافة ممن كان فى الأرض قبل ذلك فالخليفة هو آدم و ذريته جميعاً ، صالحهم وطالحهم فقد خلفوا من سبقهم فى عمارة الأرض (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) استئناف دفع ،جواباً عن سؤال تنساق إليه الأذهان كأنه قيل : فماذا قالت الملائكة بعد أن أخبرهم الله بقوله : (إنى جاعل فى الأرض خليفة) فقيل جواباً لهذا السؤال : (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها) » .

والمعنى أتجعل فيها خليفة ، من يفسد فيها ؟ وقد عرفوا ذلك إما قراءة من اللوح المحفوظ لما سجل من مستقبل أعمالهم ، وإما قياساً لهم على من كان مثلهم وهم الذين أهلكهم الله وأحلهم محلهم ، وإما من الغرائز التى سيخلقون بها ، فإنها تدعو إلى الفساد ، والاستفهام ظاهره التعجب من أنه تعالى سيجعل فى الأرض من يفسدها ، أو الاعتراض على ذلك وإنكاره ، ولكن هذا الظاهر غير مراد لأنهم عباد مكرمون لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، بل هو استفهام تعجب قالوه استكشافاً لما خفى عليهم من الحكم التى ألغت تلك المفاسد وأهدرتها ، واستخباراً عما يزيح شبهتهم ويرشدهم إلى معرفة ما فى آدم من الفضائل التى جعلته أهلا للخلافة هو وذريته ، كسؤال المتعلم أستاذه عما ينقدح فى ذهنه ليعلم جوابه فيستريح ، فليس سؤالهم اعتراضاً على الله ، ولاشكاً فى إشمال جعله خليفة فى الأرض على الحكم والمصالح .

وجاء فى تفسير المجلس الأعلى للشئون الإسلامية :

بين سبحانه أنه هو الذى أحيا الإنسان ومكن له فى الأرض ، ثم بين بعد ذلك أصل تكوين الإنسان ، وما أودع فيه من علم الأشياء وذكره به ، فاذكر يا محمد نعمة أخرى من ربك على الإنسان ، وهى أنه قال لملائكته : إنى جاعل فى الأرض من أمكنه منها وأجعله صاحب سلطان

فيها : وهو آدم وذريته ، استخلفه الله فى عمارة الأرض من يفسد فيها بالمعاصى ومن يسفك الدماء بالعدوان والقتل لما فى طبيعته من شهوات : فى حين نحن نتزهك عما لا يليق بعظمتك ، ونطهر ذكرك ونمجدك ، فأجابهم ربهم : إنى أعلم ما لم تعلموا من المصلحة فى ذلك .

وبعد أن خلق الله آدم وعلمه أسماء الأشياء وخواصها ليتمكن فى الأرض ، وينتفع بها : عرض الله هذه الأشياء على الملائكة ، وقال أخبرونى بأسماء هذه الأشياء وخواصها إن كنتم صدقتم فى ظنكم أنكم أحق بخلافة الأرض ولا يوجد أفضل منكم بسبب طاعتكم وعبادتكم .

وقد ظهر للملائكة عجزهم ، فقالوا إننا نتزهك يا ربنا التنزيه اللائق بك ، ونقر بعجزنا وعدم اعتراضنا ، فلا علم عندنا إلا ما وهبتنا إياه ، وأنت العالم بكل شىء الحكم فى كل أمر تفعله » .

هذا هو رأى عدد من كبار المفسرين ، قدماء ومعاصرين ، اختلط فى تفسيرهم الرأى الإسلامى الصحيح ، بإسرائيليات صارخة ، وأساطير العجم ، ولكن يبدو من وراء هذا الضباب الفكرى ، حقائق القرآن الخالدة وهى :

أولا : أن الله سبحانه وتعالى ، أنبأ الملائكة بأنه سيستخلف فى الأرض خليفة .

ثانياً : أن هذا الخليفة هو آدم بالذات .

ثالثاً : أن الملائكة استفسروا أو أظهروا الدهشة ، أو اعترضوا لأن الله تعالى أذن لهم أن يقولوا ما بدا لهم ، باعتبار أن خلق صنف آخر من مخلوقات الله ، أمر يحتاج إلى تلقين وتفهم وتعليم ، لعظم المهمة التى سيقوم بها ، ولجدة العلاقة التى ستقوم بين الملائكة وبين هذا الصنف الجديد الذى سيكون منه الأنبياء والمقربون ، والشهداء والصالحون ، كما سيكون منه الكفار والمشركون ، وشياطين الإنس ، وسيصدر عن ذريته الفساد وسفك الدماء .

رابعاً : أن هذا المخلوق الجديد الذى خصه الله تعالى بعناية خاصة كانت بدايتها كلام الله تعالى إلى ملائكته عنه ، وإنبائهم باستخلافه ، وتساؤلهم عن مسوغ هذا الاستخلاف مع ما فى هذا المخلوق من آفات ونقائص ، كان هذا المخلوق الجديد ، وظهوره على الأرض ، امتحاناً للملائكة فاكتفوا جميعاً بالدهشة والتساؤل ، إلا إبليس أبى واستكبر .

خامساً : أن الله تعالى لم يلبث حتى امتحن الملائكة بما يعرفه آدم ، فثبت لهم ، أنه أعلم منهم ، فأدركوا أن لخلافته ما يسوغها .

سادساً : ثم انتهى هذا كله إلى أمر من الله للملائكة أن يسجدوا لآدم فسجدوا .

هذه الآيات ، هى ركن الزاوية فى البناء الفكرى ، الذى أقامه الإسلام ، على قاعدة المبدأ العام (ولقد كرمنا بنى آدم) ، وأن تمييز الإنسان عن على من سواه من المخلوقات ، سواء مرئية أو غيبية ، مرده أمران :

أولاً : استعداده العقلى والنفسى والروحى ، للتلقى والتعلم والتطور والتقدم .

ثانياً : أنه معرض للخطأ والزيغ والضلال ، وأنه قادر على الإتيان بجلائل الأعمال ، والتردى فى المعاصى والذنوب ، وأن ما بدا من نقص فى هذا الجانب ، هو ما هيأه لمقام الخلافة دون غيره من عباد الله ، حتى الملائكة الذين لا يخطئون والذين وصفهم القرآن الكريم بأنهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون وأنهم (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) .

فالإسلام قائم على مجاهدة النفس ، والابتلاء بالامتحان ، فالله تعالى قال للمسلمين (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين) ، (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) .

وبهذا الابتلاء ، يمكن للإنسان أن يتقدم ، وأن يتطور ، وأن

ينتقل من الضعف إلى القوة ، ومن الكفر إلى الإيمان ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الظلام إلى النور ، ولأن الإنسان خلق مستعداً لهذا التقدم ، بفضل الابتلاء والفتنة والامتحان ، فقد أصبح قادراً على القيام بوظائف الخلافة ، إذ لو كان ، مخلوقاً لا يخطىء ، لكان جميع أفراد ذريته ، على شاكلة واحدة ، ولكانوا أمة واحدة ، ولقد سبقت إرادة الله ومشيئته ألا يكون الناس أمة واحدة وقد كان هذا — بغير شبهة أو شك فى مقدوره — (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما أتاكم) .

ويكمل هذا المبدأ ، ويأتى تبعاً له ، مبادئ كلية فى العقيدة الإسلامية منها .

أولاً : مبدأ التوبة .

ثانياً : مبدأ تحريم القنوط واليأس .

ثالثاً : مبدأ أن الأمر كله للإنسان ، المؤمن ، الذى يملك أن يغير حياته ، وينسخ قبيحها ، ويمحو عيوبها ، ويحيلها إلى رفعة متصلة وطمأنينة شاملة ، ومعرفة سابغة .

أما التوبة فقد أصبحت دعامة من دعامات خلافة الإنسان على الأرض ، لا يمكن أن تقوم ، إلا بها ، ولا أن تؤتى ثمارها ، بغير سند منها . ذلك لأنه ما دام قد تقرر أن الإنسان خلق به ميل إلى سفك الدماء والفساد ، وكان قد سبق فى علم الله ، أن هذا الإنسان مع ضعفه ، قادر على أن يتغلب على هواه ، وأن يكتسب المعرفة ، فلابد من أن يتقرر له مبدأ العفو ، ولكى يفعل هذا العفو ، فعله فى نفس الإنسان ، فلابد أن يعرف ، أن هذا العفو ، ككل شىء فى هذه الحياة الدنيا ، لا بد أن يأتى بعد مجاهدة ، وكدح ، وإرادة فى التغير ، وأن التوبة هى سبيل الوصول إلى هذا العفو ، فهى ليست مجرد إظهار الأسف لما وقع ، بل لابد أن تكون مقترنة ، بعقد العزم على تركه ، وعدم العودة إليه ، وسد الأبواب المؤدية إلى إتيانه ، وكل هذه المحاولات هى وسائل لرفع

نفس الإنسان وتزويده بالخبرة الروحية التي هي وقود التقدم وسره العظيم . ومثل هذه المجاهدة ممتنعة تماماً على الملائكة ، لأنهم لا يعرفون المعاصي ، والذنوب ، امتناعها على الشياطين ، لأنهم مفطورون على الشر ، مجبولون على الخطيئة .

فالتوبة في الإسلام ، هي أساس من أسسه التربوية ، ومنهاج من مناهجه الروحية ، لأنها ضمان تطور الحياة الإنسانية كما أسلفنا ، ومن هنا كان (التوّاب) اسمًا من أسماء الله الحسنى ، وكانت الدعوة إلى التوبة ، في القرآن الكريم ، تتردد في آياته ، وأحاديث نبيه ، وتقوم الحياة الإسلامية على دعائمها ، وبهذه التوبة ، تحول العصاة إلى هداة ، والإمعات الذين لا قيمة لهم ولا شأن ، زعماء وقادة ، وتدفقت جموع من الذين عاشوا حياتهم أصفاراً وراء الرسول ووراء خلفائه ، إلى عالم جديد ، يبنون فيه ويشيدون الأمصار والمدائن ، ويضيئون مشاعل المعرفة والعلم ، وينشرون رايات الطمأنينة والسكينة ، ومن علائم هذا الطريق السوى الفسيح قول الله تعالى : (فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه) المائدة (أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم) الأنعام : (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) .

وإذا كانت التوبة ضماناً للإنسان ، بأنه قادر أبداً على أن يبدأ حياته من جديد ، مهما لج من العثار ، وتورط في الخطأ ، ومهما استمرأ المعصية ، وطابت له الرذيلة ، فإنه يكمل هذا الضمان ويحققه للجناة والعصاة ، وألا ييأسوا من إمكان التوبة من جانبهم ، ولا من إمكان المغفرة من جانب الله العظيم ، وتحريم اليأس ، وجعل القنوط جريمة ، كجريمة الشرك والكفر بالله ، خاصية تميز الإسلام ، وليس أفتك بعقول الناس وقلوبهم ، وليس أعظم منالا للأمم والجماعات ، من أن يستولى عليها اليأس ، وأن تشعر بأن الأزمة النازلة بها ، والمصيبة التي أحدقت بمجموعها ،

هى خاتمة الحياة ، وأنه لا نجاة منها ، ولا مفر . ولقد حرمت القوانين ، [الانتحار ، واعتبرت المحاولة له والشروع فيه جريمة ، ولكن هذا التحريم وذلك التجريم لا يكفى قط ، ما لم تسنده تربية روحية ، وما لم تثبته فى النفوس عقيدة وإيمان ، ولقد قام الإسلام على تربية هذا الإيمان وتثبيته ، فتوالت الآيات على نبذ القنوط ، وعلى تأكيد أن الله مفرج الكروب ، كما أنه غافر الذنوب :

قال الله تعالى : (لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا) الزمر . (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) الحجر (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) .

ويصل هذا المنهج إلى قمته ، بتقرير القرآن الكريم ، حقيقتين من حقائق الإسلام ، متكاملتين :

الحقيقة الأولى : (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

الحقيقة الثانية : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان) .

أما الحقيقة الأولى ، فجملة معناها أن العناية الإلهية ، ألقت بتبعة الحياة الإنسانية ومصيرها واستنباط الخير من هذا الكون ، ودفع الشر والتسابق إلى الخيرات والنهى عن المنكرات ، وتحمل الحياة ، وتخفيف أعبائها ، وتلطيف أحمالها ، وتوسيع نطاقها ، على الإنسان نفسه . فمنه تبدأ الأمور ، وإليه تنتهى ، وإذا كان إلى الله عاقبة الأمور ، وإذا كانت كل الأمور ترد إليه سبحانه ، فلا تناقض ، بين سلطة الإنسان المطلقة فى هذا الكون ، لأن الله تعالى ، هو الذى سخر هذا الكون للإنسان ، ووضع فى يده مقاليده ، وذلل له الأرض ، ودعاه إلى السير فى مناكبها ، والأكل من خيراتها ، ذلك لأن عقيدة الإنسان وحدها ، هى التى تمنحه القوة والثقة والعزم ، وهى التى تحرمه القوة والثقة والعزم ، وفضل الإنسان ، كما تقرر الآية الثانية ، هو أنه يملك من أمره ،

ما لا يملكه سائر عباد الله ، فلا الملائكة ولا الشياطين ، ولا الجماد ولا النبات من قبل هذه الأمانة ،وتعرض لمشاقها، وتحمل مخاطرها ، ومن هنا ،كان وحده بين مخلوقات الله،الذى يتغير عهداً بعد عهد، وجيلا بعد جيل ، فتغيره دائماً مرده العقيدة التى تسود حياته ، فهى التى تجعله فى (أحسن تقويم) وهى التى تهبط به إلى (أسفل سافلين) .

وكل هذه المعانى ، وأكثر منها ، تجود به على المتأملين ، فى الآية الثلاثين وما بعدها من سورة البقرة ، ومثيلاتها ، فى القرآن الكريم ، وهى ما تعنيه — فى رأينا — خلافة الإنسان فى الأرض ، واستحقاقه لهذه الخلافة وسبيله إلى النهوض بتبعاتها ، وتحمل أمانتها .

لخص مؤرخ للأدب الحديث المذاهب الأدبية المعاصرة . فرد ، بعضها إلى شعور الإنسان بالغربة فى العصور الأخيرة، ووحشته بين الآلة الضخمة ، والدولة ذات السلطة غير المتناهية ، ومشروعات المال ، والصناعة ، التى يدرك الإنسان أنها تملك من أمره أكثر ما يملك ، وأنها توجهه وتصرفه، وتفرض عليه الآراء والأذواق والمشاعر ، ولا تدع له إلا الهموم الخاصة ، هموم وحدته وعزلته ، وقلة حيلته .

ومذاهب أخرى ، تكاد تنبع من نفس المنبع ، ولكنها تنتهى إلى عبث هذه الحياة التى يحياها الإنسان ، وخلوها من المعنى ، وقلة جدوى صراعه الذى ينتهى إما إلى فراغ روحى ومادى ، وإما إلى امتلاء جسمى وخواء عقلى وروحى . والشعور بالعبث ، يدفع إلى العبث ، والسخرية من علاقات الإنسان القديمة ، الموروثة والمألوفة .. حب الأسرة ، وحب الزوجة ، وحب الولد ، وحب الوطن، ولكن بعض هذه العلاقات يفرض عليه ، ولا يقوى على إعلان الكفر به ، فهو يستسلم له ، ويعلن ولاءه، كارهاً لا راضياً ، ولكنه إذا استطاع أن يعبر عن سخرية به ، وهزئه منه، فهو لا يتردد فى الانتفاع من الفرصة المتاحة ، فإن لم يستطع صراحة ، حاول ذلك فى التواء ودوران . وإن لم يستطع ، أصيب بانفصام الشخصية

أو بالاكتئاب أو بأكثر من ذلك .

ومذهب ثالث يشعر بعدم أخلاقية الحياة ، فى ظل العلاقات الصناعية والاقتصادية القائمة . فهو لا يكفر بالحياة ذاتها ، ولا يقول بخلوها من المعنى ، ولا يقرر أن الوجود الإنسانى عبث ، وإنما هو يرى الحياة الإنسانية ذات المعنى ؛ بل ذات المعنى الجليل والسامى ، مسحوقة تحت حذاء علاقات عمياء هو لا يستطيع أن يصلحها ، ولا أن يقيم ، معوجها . ولا يرى أن ثمة أملا يلوح ولو من بعيد فى تسديدها .

وقد استوقفنى هذا التصنيف ، ودعانى أن أتحدث عن دور الإسلام فى أزمة الإنسان الحالية ، وهو دور نابع أصلاً من العقيدة التى أقامها القرآن على أساس من خلافة الإنسان .

فالقرآن ، حينما نص على أن الله سبحانه وتعالى قد أعلم الملائكة ، أنه « جاعل فى الأرض خليفة » كان سبحانه وتعالى يقصد أن يكون الإنسان خليفة فى هذه الأرض التى سيعيش فيها آدم ، وذريته من بعده ، وأن هذه الخلافة ، وهى عن خالق آدم وربه ، الذى نفخ فيه من روحه وسواه بيده ، وأمر الملائكة أن يسجدوا فسجدوا كلهم جميعاً إلا إبليس أبى واستكبر .

فالقول بأن المقصود بالخلافة ، هى أن يخلف الإنسان بعضه بعضاً ، أى الابن يخلف الأب ، والجيل الأعلى يخلفه الجيل الذى يتبعه ، لا يستقيم مع الظاهر من آيات القرآن ، فخلق نوع جديد من خلق الله يخلف بعضه بعضاً دون أن تكون له الخلافة الشاملة للأرض ، وما عليها ، من حيوان ونبات وجماد ، لا يستلزم إخبار الملائكة به ، ولا يستدعى اعتراضهم عليه واحتجاجهم لحصوله ، كما لا يستطيع هذا الامتحان الذى يحكى القرآن نبأه ، وعجز الملائكة عن أن يلحقوا فيه بآدم ، وينجحوا إزاءه . ثم إن مخلوقاً لا تتجاوز خلافته ذريته ، لا يقتضى خلقه أن يأمر الملائكة بالسجود له ، ولا يفضى إلى تمرد أحد الملائكة ،

وهو إبليس وخروجه عن طاعة الله ، فليس فى هذه الخلافة ، امتياز يثير غيرة إبليس ، وثورته على خالقه ، ويحرمه من رحمته وجنته ، ويجعله رجماً ملعوناً إلى يوم القيامة .

أما أن يخلف آدم وذريته ، نوع آخر من مخلوقات الله ، سواء كانوا جنًّا أو حنًّا ، فكلام لا سند له من القرآن نفسه ، ولا من صحيح السنة ، وهو قول كالكثير مما تسرب إلى تفسير القرآن ، من الإسرائيليات حيناً ، ومن مفسرين كبار ، ينتمون إلى أجناس غير عربية ، طبعت على حب الخرافة ، والتهويل فى وصف أبدان المخلوقات ، وقوة من اندثر وهالك من شعوب أو أجناس ، وضخامة ما بنوا وشادوا : وعظم أجسام حيواناتهم وطيورهم ، وغرابة أطوار نسائهم وبناتهم ، وهكذا . . .

فخلافة آدم لجنس الجن أو الجن الذين هلكوا هو ضرب من هذا الهذيان الذى لا يليق أن يقول به المسلمون ، وقد نهاهم الله فى كتابهم أن يقولوا شيئاً ، بغير سلطان أو برهان .

وخلافة الإنسان مؤكدة بتكريم الله سبحانه وتعالى إياه منذ خلقه ، فقد نفخ فيه من روحه وسواه بيده ، وعلمه ما لا يعلمه أفضل مخلوقاته الذين لا يسبقونه إلى القول ، ولا يعصون له أمراً ، والذين ينقطعون لعبادة الله ، لا يملون منها ، ولا يضجرون ، ولا يفرطون فيها ولا يقصرون .

ثم إن هذا الإنسان الذى فاق علمه ، علم الملائكة أفضل خلق الله وأبعدهم عن المعصية والكفر ، لم يأمر خالقه فقط هؤلاء الملائكة بأن يسجدوا له ، بعد أن غابت عنهم حكمة خلافته ، وقالوا صراحة، بأنه سيفسد فى الأرض ، ويسفك الدماء كرمه الله تعالى وقال ذلك فى أحد كتبه المنزلة على آخر أنبيائه وخاتمهم ، فقد قال تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم » ولم يقف كتاب الله عند هذا الحد ، بل قال وأكد القول ، فى أكثر من موضع فيه بأن الله سخر للإنسان الشمس والقمر ، والليل بالنهار ، وما على السموات والأرض ، وكل ما فى هذا الكون الفسيح :

« وسخر لكم الشمس والقمر دائبين » إبراهيم « وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر » « ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض » . . .

حسب الإنسان أن يسخر له هو كل هذا ، ليكون هذا التسخير ، إعلاناً لخلافته عن خالقه فى هذا الكون الذى أخضع له أجرامه وأفلاكه ، وعناصره وموارده ، ومصدر قوته ، ومبعث حركته . فإنه ليكونن من العبث أن يخلق الله الإنسان بيده ، ثم ينفخ فيه من روحه ، ثم يأمر أكرم مخلوقاته ، لا أن يقروا له بالتقديم عليهم ، بل بالسجود له ، ثم يطرد من رحمته ، ويلعن أشد اللعن ، الكائن الوحيد الذى يأبى أن يطيع هذا الأمر الصريح الواضح ، ثم يسخر له ما فى السموات وما فى الأرض ، ثم يقف سبحانه وتعالى عند هذا الحد : سبحانه وتعالى : تنزه عن العبث والعمل الباطل .

فخلافة الإنسان فى هذه الأرض ، هى ركن الزاوية فى العقيدة الإسلامية ، أو المذهب الإسلامى إن شئت ، وخلاصتها أن الإنسان هو سيد هذه الأرض بأمر خالقه ، وباستخلافه سبحانه عز وعلا ، الإنسان فيها ، وبالتصريح فى كتابه « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

فخلافة الإنسان ، وما جرى بشأنها بين الله وملائكته وآدم وإبليس ليست حكاية لما وقع فى أول الخلق لمجرد ذكر التاريخ ، ولا حتى لاستخلاص الموعظة منه الموعظة الموحية بأن الشيطان أو إبليس هو عدو الإنسان ، وأن الاستماع إلى وسوسته ، والأخذ بمشورته والانخداع بما يعرضه على الإنسان ، من الأمور التى تستهوى النفس وتطيب لها ، عاقبته وخيمة ، لأنها تجر إلى غضب الله ، وغضب الله يفضى إلى عذاب الخلد .

فالحكمة من حكاية خلافة الإنسان فى كتاب الله ، هو بيان أن

للإنسان رسالة . فما دام أنه خص بهذه المزايا ، ووضع تحت سلطانه بالتسخير . هذا الكون بأعظم ما فيه : فلابد أن يكون لهذا كله غاية . وإلا تعارض هذا كله مع قوله تعالى « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين » « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا» « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق » .

فخلق السموات والأرض وما بينهما لم يكن عبثاً ولم يكن ثمرة مصادفة ، وإنما كان لغرض محدد ، وغاية اتجهت إليها إرادة خالقهما ، والحق هنا » هو غاية هذا الكون البديع المحكم ، وإسناد الرياسة فيه لهذا المخلوق . الذى حفته عناية الله منذ خلق ، هو جزء من هذا التدبير المحكم . فهو أهل لهذه الرياسة صالح لها وقادر عليها . واختياره للنهوض بتبعاته هو (حق) ، وإلا كان خلق الله للسموات والأرض باطلا ، أو كان ضرباً من اللعب أى ضرباً من العبث ، لأنه لا يكفى أن يحسن الصانع الآلة التى يبتكرها ، ويودع فيها ، ما يجعلها آية من آيات الإبداع والابتكار : ثم يدعها فى يد جاهل غر ، سيء التدبير ، فيحطمها ، أو يتخذها أداة للأذى المطلق ، يتلف بها نفسه ، ويفسد به وطنه ، ويعذب الآخرين . فالإنسان بعيوبه وحسناته ، بضعفه وقوته ، بحسن أدائه للتكاليف أحياناً ؛ وبعجزه عنها أحياناً أخرى ، هو جزء من الأرض والسموات وما بينهما وما فيهما من شمس وقمر ، وليل ونهار وجبال وبحار ، وجنات وأنهار . وجوده يكملها لأنها استمرار له ، ووجودها يكمله ، لأنه استخلاف فيها .

وكل هذا جرى بإحكام وتدبير ؛ تنزه عن اللعب والعبث ، والترم الحق ، وقام عليه .

فاستخلاف الإنسان ، مؤداه أنه مكلف برسالة . وعندى أن هذا ما عناه كتاب الله تعالى بقوله فى سورة الأحزاب :

(إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا) .

ولسنا نريد أن نسبق إلى القول ، بل سننقل عن القرطبي رحمه الله ، ما قاله المفسرون ، ثم نعقب على ما قالوا ، بما يهدينا إليه تعالى ، نسأله التوفيق .

يقول القرطبي : لما بين تعالى فى هذه السورة من الأحكام ما بين أمر بالتزام أوامره ، والأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال ، وهو قول الجمهور : وعن العباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله تعالى لآدم ، يا آدم إنى عرضت الأمانة على السموات والأرض فلم تطقها فهل أنت حاملها بما فيها قال : وما فيها يا رب . قال إن حملتها أجرت ، وإن ضيعتها عذبت فاحملها بما فيها فلم يلبث فى الجنة إلا قدر ما بين صلاة الأولى إلى العصر حتى أخرجه الشيطان منها » فالأمانة هي الفرائض التى اؤتمن عليها العباد . وقد اختلف فى تفاصيل بعضها على أقوال ، فقال ابن مسعود : هى فى أمانات الأموال كالودائع وغيرها ، وروى عنه أنها فى كل الفرائض ، وأشدها أمانة المال. وقال أبى بن كعب : من الأمانة أن ائتمنت المرأة على فرجها . وقال أبو الدرداء : غسل الجنابة أمانة ، وإن الله لم يأمن ابن آدم على شيء من دينه غيرها . وفى حديث مرفوع : « الأمانة الصلاة » . وكذلك الصيام وغسل الجنابة . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص ، أول ما خلق الله تعالى من الإنسان فرجه ، وقال هذه أمانة استودعتكها فلا تلبسها أو تبسلها أو تضيعها إلا بحق أو بحقها أو فى حقها ــ حسب روايات مختلفة ، فإن حفظتها حفظتك ، فالفرج أمانة ، والأذن أمانة ، والعين أمانة ، واللسان أمانة ، والبطن أمانة ، واليد أمانة ، والرجل أمانة ، ولا إيمان لمن لا أمانة له . وقال السدى هى ائتمان آدم لابنه قابيل . وذلك أن الله تعالى قال له : يا آدم هل تعلم أن لى بيتاً فى الأرض ، قال : اللهم لا . قال : فإن لى بيتا بمكة فأته . فقال للسماء احفظي ولدى بالأمانة فأبت ، وقال للأرض احفظي ولدى بالأمانة فأبت ، وقال للجبال كذلك فأبت . فقال لقابيل

احفظ ولدى بالأمانة فقال نعم : تذهب وترجع فتجد ولدك كما يسرك . فرجع فوجده قد قتل أخاه . ثم أورد أقوالا ، لا تخرج عما تقدم عن معمر عن الحسن ، ومجاهد .

وقيل : هذه الأمانة هي ما أودعه الله تعالى فى السموات والأرض والخلق من الدلائل على ربوبيته أن يظهروها فأظهروها إلا الإنسان فإنه كتمها وجحدها . قال بعض المتكلمين : ومعنى عرضنا ، أظهرنا ، كما تقول عرضت الجارية على البيع ، والمعنى أنا عرضنا الأمانة وتضييعها على أهل السموات والأرض وأهل الأرض من الملائكة والإنس والجن ، فأبين أن يحملنها أى يحملن أوزارها . وحملها الإنسان قال الحسن : المراد الكافر والمنافق. فيكون على هذا الجواب مجازاً مثل « واسأل القرية » وفيه جواب آخر على أن يكون حقيقة أنه عرض على السموات والأرض والجبال الأمانة وتضييعها وهى الثواب والعقاب ، أى أظهر لهن ذلك فلم يحملن وزرها ، وأشفقت ، وقالت لا أبتغى ثواباً ولا عقاباً .

وقال العلماء : معلوم أن الجماد لا يفهم ولا يجيب ، فلابد من تقدير الحياة على القول الأخير . وقال القفال وغيره : الغرض فى هذه الآية ضرب مثل ، أى أن السموات والأرض على كبر أجرامها لو كانت بحيث يجوز تكليفها تلك الشرائع ، لما فيها من الثواب والعقاب ، أى أن التكليف أمر حقه أن تعجز عنه السموات والأرض والجبال ، وقد كلفه الإنسان وهو ظلوم وجهول لو عقل . وهذا كقوله : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل) ثم (وتلك الأمثال نضربها للناس) قال القفال : فإذا تقرر فى أنه تعالى يضرب الأمثال ، وورد علينا من الخبر ما لا يخرج إلا على ضرب المثل ، وجب حمله عليه . وقال قوم : إن الآية من المجاز أى أما إذا قايسنا ثقل الأمانة بقوة السموات والأرض والجبال ، رأينا أنها لا تطيقها وأنها لو تكلمت لأبت وأشفقت ، نعبر عن هذا المعنى بقوله ، (إنا عرضنا الأمانة) وهذا كما تقول أعرضت الحمل على البعير فأباه ، وأنت تريد قايست قوته بثقل

الحمل فرأيت أنها تقصر عنه .

وعن مسروق عن عبد الله بن مسعود : قال لما خلق الله الأمانة ، مثلها صخرة ، ثم وضعها حيث شاء، ثم دعا لها السموات والأرض والجبال ليحملنها وقال لهن : إن هذه الأمانة ، ولها ثواب وعليها عقاب ، قالوا : يا رب لا طاقة لنا بها ، وأقبل الإنسان من قبل أن يدعى فقال للسموات والأرض والجبال : ما وقوفكم ؟ قالوا : دعانا ربنا أن نحمل هذه فأشفقن منها ولم نطقها . قال : فحركها بيده ، وقال : والله لو شئت أن أحملها لحملتها ، فحملها حتى بلغ بها إلى ركبتيه ، ثم وضعها وقال : والله لو شئت أن أزداد لازددت . قالوا : دونك ! فحملها حتى بلغ حقويه ثم قال : والله لو شئت أن أزداد لازددت . قالوا : دونك ! فحملها حتى وضعها على عاتقه ، فلما أهوى ليضعها : قالوا : مكانك إن هذه الأمانة، ولها ثواب وعليها عقاب ، وأمرنا ربنا أن نحملها فأشفقن منها وحملتها أنت من غير أن تدعى لها فهي في عنقك وفي أعناق ذريتك إلى يوم القيامة إنك ظلوم جهول .

وأحسب أن هذا حسبنا لنعرف كيف فسر المفسرون القدامى هذه الآية ، أما المرحوم محمد فريد وجدى فقد فسرها بقوله : إشعار للإنسان بأنه وهب من جانب الفيض الإلهي بمنح امتاز بها عن سائر عوالم الطبيعة إنه كان ظلوماً جهولا ، حيث لم يف بها ولم يقم بواجبها ، فطوبى لمن أدرك أن فيه سراً مصوناً ، وكنزاً مكنوناً، فنقب عنه خلال أغشية هذه الطبيعة الطينية فعاش ملكاً وإن كان إنساناً .

وأحسب أيضاً أنك تعجب بل تحزن لما ذهب به البعض من أن الله عرض على السموات والأرض فروضاً منها الغسل بعد الجنابة وأنها رفضت ذلك التكليف لمشقة أو أن الله لم يعرض على آدم من التكاليف إلا هذا الواجب الشاق ، فقبله ثم عجز عنه ولم يف به ، وأن الأمانة لم تكن سوى ائتمان آدم ابنه قابيل على ابنه هابيل ريثما يصل إلى بيت الله في مكة ،

فعاد فوجد أول الولدين قد قتل الثانى ، أو أن الله مثل الأمانة بصخرة : وأن الإنسان أخذ يحاول رفعها إلى ركبتيه ثم إلى حقويه ثم إلى كتفيه والسموات والأرض ينظران إليه ، حتى إذا ما أراد أن يخفف منها ، قالت السموات والأرض له إياك أن تفعل فقد قبلت هذا الحمل دون أن تدعى .

وقول القفال إن شرح الآية يجب أن يراعى إن ما ورد فيها كان من قبيل ضرب المثل أو أنها على المجاز .

والرأى عندى ، أن الأمانة التى تتحدث عنها الآية ، إذا أردنا أن نفسرها فى ضوء ما يدعو إليه القرآن كله ، وما ثبت فى الآيات الأخرى : هى (الاختيار) . هى حرية الإرادة التى تفضل الله بها على آدم ، والتى أهلته للخلافة ، دون الملائكة والجن . فقد عرض الله على آدم ، حياة رغدة ، يأكل فيها من الجنة ما يشاء ، ومما يشاء ؛ فلا يعرف للجوع ألماً ، ولا للعطش عذاباً ، ولا يحس أنه فى حاجة إلى ثوب يستر عورته . فهو لا يمارس رذيلة ، ولا يأكل طعاماً . فهو أقرب إلى الملائكة وأشبه بهم . ولكن إبليس ما زال بآدم حتى عرفه طريق المعصية وحبب له سبيل التمرد على إرادة الله ، أى أنه أطلق فى نفسه قوة الشر ، لتقابل قوة الخير ، فتكون نفسه مجالا للصراع بينهما ، ومن هنا ، كان علم الملائكة بأن هذا المخلوق ستؤدى طبيعته التى ليست خيراً بحتاً ، وليست شراً محضاً ، سيسفك الدم وسيفسد ، وقد أطلعها الله تعالى على ذلك بما رآه عز وجل ، إيحاء أو إلهاماً أو كشفاً صريحاً . ولو بقى الإنسان بنزعة الخير وحدها ، لا يخطئ ، ولا يفكر فيما لا تفكر فيه الملائكة ، ويبقى أبد الدهر ، حتى يأذن الله بما يراه ، طفلا ، ساذجاً ، لا تساوره رغبة ، ولا يدعوه إلى المجازفة ، والمخاطرة ، والبحث والكشف غريزة أو طبيعة أو فضول وحب للمعرفة ، لأن كل شىء بين يديه ، وكل رغباته مجابة ، لكان صورة جديدة من صور الملائكة ، ولما رأى إبليس فيه هدفاً مغرياً ، ولعاش الجميع كما كانوا قبل أن يخلق الله آدم ، وقبل أن يستجيب آدم لدعوة إبليس .

قال الله تعالى : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ، فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، إن لك إلا تجوع فيها ولا تعرى ، وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ، فوسوس إليه الشيطان ، قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ، فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه ، فتاب عليه وهدى) .

وقال تعالى : (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر) .

فواضح من هذه الآيات الكريمة ، أن ما أخرج آدم وحواء ، من الجنة التى كانا يعيشان فيها كطفلين لا هموم ، ولا تكاليف ، يتفيآن ظلالها ، ويقطفان ثمارها ، ولا يبذلان جهداً ، لا يخافان جوعاً ولا عطشاً ولا عرياً ، ولا يعكر صفوهما لا حساب ولا عقاب ، إن الذى أخرجهما من هذا كله ، هو القرار الذى اتخذاه ، أيا كان هذا القرار ، بإغراء من إبليس ، فما كاد قرارهما يصدر ، ثم ما كادا ينفذانه ، حتى بدت سوءاتهما ، فشعرا لأول مرة ، بانكشاف الستر ، وبالحاجة إلى الحماية ، وأنفذ الله تعالى فيهما حكمته : الطرد من الجنة ، ولكن دون أن يحرمهما سبحانه وتعالى من رحمته ، فقد تاب على آدم وهدى ، كما جاء فى سورة طه ، وكما جاء فى سورة البقرة (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) وقد تابعتهما رحمة الله فى الأرض لقوله تعالى : (قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

جملة القول أن حياة آدم وحواء ، حياتهما فى الأرض ، بعد الخروج

من الجنة ، بدأت بما رآه آدم ، على غير ما نصحه به الله ، وعلمه إياه ؛ فهذا الذى رآه آدم مستقلا بارادته ، مخالفاً إرادة خالقه عز وعلا ، هو المعصية التى يحاسب عليها آدم ، وزوجه ، ولكنها الميزة التى تفرد بها بين مخلوقات الله جميعاً . فالملائكة لا يعصون لله أمراً ، والشياطين لا يطيعون له أمراً ، والجماد لا يملك لنفسه اختياراً ، والنبات لا يفضل كثيراً الجماد ، والحيوان وإن بدا أكثر حرية ، إلا أنها حرية بحرية النبات أشبه . فهو لا يذكر ماضياً ، ولا يرقب مستقبلا ، ولا يغير من نظامه المفروض عليه شيئاً ، فأعظم الحيوانات نظاماً ، وأكثرها فيما يبدو للإنسان رقياً ، كالنمل والنحل ، وكلاهما يعيش فى مملكة منظمة ، يعلوها نظامها على ممالك الإنسان ودوله ، يجرى فيها قانون ، لم يصل إليه أكبر مشرعى الإنسان ولا أعظم فقهائه ، إلا أنه نظام مستمر ومستقر ، لايتغير ولا يتبدل ولا يفضى إلى أحسن ، بل ولا ينحدر إلى ما أسوأ منه .

فنملة القرن الأول ، ونملة القرن العشرين . سيان ونحلة ما قبل التاريخ كنحلة اليوم ، كنحلة القرن الثالث والعشرين ، يحكمها نظام مضبوط ، وتسيرها قواعد محكمة ، فلا فضل لها فى نظام ، ولا اختيار فى إنشاء القاعدة ، أما الإنسان فلا يزال منذ اليوم الأول يفكر ويدبر ، ويبنى ويهدم ، وينقض ويبرم ، ويتجه يميناً ، وينحرف يساراً ، ويفرض الفروض ويثبتها ثم يثبت خطأها ، ويعود إلى ما كان عليه ، ثم يعدل عنه إلى ما يناقضه ، ويعدل عن هذا كله ، إلى شىء لم يخطر على باله ، ولا بال أجداده ، ويظهر هذا فى زيه ومأكله ومشربه ، وقانونه ونظامه ، وحربه وسلامه ، وتفكيره وتأليفه ، واختراعه وتصنيعه ، ليس عنده شىء مقدس ، وليس لديه نهاية يحسن الوقوف عندها أو الاكتفاء بها . فنفسه فى مثل سعة السموات والأرض ، وإرادته فى مثل صلابة الحديد والصلب ، لا تقتله الحروب ولا الكوارث ولا الأوبئة ، ولا تردعه النار ولا المشانق ، ولا العذاب ، يسقط حتى لا يظن أنه يطفو على السطح ، فإذا هو فى أجواز الفضاء ،

ويصعد حتى يبلغ السماكين ويظن الظانون أنه باق هناك ، فإذا هو قد انفلت من عليائه كأنه الشهاب ، يغيب فى ظلام السماء . وهذا هو سر تميزه على كل مخلوق ، وهذا فضله عند الله .

فالإنسان الذى يختار لنفسه ، ويخطئ ، ويصيب ، هو الإنسان الذى عناه الله تعالى بقوله : (فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون). أما إذا كان هدى الإنسان مضموناً ، لا يفضى إلى معصية ، أو كانت معصيته أبدية ، لاتنتهى بتوبة ، لما كان الإنسان إنساناً ، ولما سخرت له السموات والأرض ، وما بينهما . ولما اختير لهذه الخلافة العظمى التى شرفه الله بها .

فمن الخطأ الأول ، الذى انفرد الإنسان بتحمل مسئوليته ، خارجاً عن طاعة الله ، وعن الأمر الذى أمره به سبحانه وتعالى ، تسلسلت حلقات حياة الإنسان . خلافة الإنسان حر مختار فى القرار الذى يصدره ، وفى السبيل الذى يسلكه ، فهو إذن أهل للثواب والعقاب ، وبذلك يستقيم أن تكون حياة الإنسان من دنيا وأخرى ، وأن يكون فى الآخرة جنة ونار ، وأن يكون هناك خطأ وصواب ، وعقاب وثواب ، وتوبة ومغفرة ، أما إذا كان الإنسان مسيراً بلا إرادة أو إذا كان مصيباً بلا خطأ ، أو إذا كان خطأه بلا مغفرة ولا توبة ، لتغير وجه هذه الدنيا ، ولما نزلت الكتب السماوية ، ولما أرسلت العناية الإلهية أنبياء ورسلا ، ولما كان هناك هداة وعصاة ، وصالحون وطالحون ، ولما خلق المعلمون والمدرسون ، ولما تعدد الأتباع والأشياع .

فحياة الإنسان كلها تقوم على هذه الحرية ، وعلى التطور من الجهل إلى الرغبة فى المعرفة إلى الاهتداء إلى الحقيقة ، ثم الشك فيها ، معاودة البحث ، ثم الوقوع فى الخطأ ، ولما قامت الحضارات وبادت ، ولما تداولت الرذيلة والفضيلة الشعوب والأمم ، عهداً بعد عهد ، وجيلا بعد جيل .

ولو كان الإنسان محصناً ضد الخطأ ، لأصبح ملاكاً ، ولبقى على حاله ، كالنمل والنحل ، يبقى فى أحسن تقويم ، ولكن يبقى حيث هو ، لما احتاج إلى التجربة ، ولما أحس بالألم بعد المعصية ، ولما خرج من هذه وتلك ، أكثر حباً فى الخير ، وأشد إصراراً عليه ، حتى تضعف إرادته : مغريات الدنيا ووسوسة الشيطان ، وضعفه الذى ركب عليه .

فالأمانة التى اختارها الإنسان ، هى الاختيار نفسه ، الذى تعجز عنه الجمادات والحيوانات والنباتات . فالجبل الضخم ، والمحيط الفسيح ، والسماء المترامية الآفاق كلها ، تطيع ربها ، وتسير فى أفلاكها وتبقى فى مواضعها ، والإنسان وحده الذى يملك أن يعلو فوقها ، وأن ينفذ فى أعماقها ، وأن يستخرج منها ما أخفته ، وأن يعرف من أسرارها ما احتوته ، فهى على جلالها وجمالها أصغر من الإنسان وأضأل .

ولكن الإنسان الذى اختار مصيره قد ألقى بنفسه فى وهدة الألم ، وأعماق الأحزان ، فهو سيكابد العذاب كلما واجهته حاجة إلى (قرار) وكلما تشعبت إليه سبل الاختيار ويبقى اختيار الطريق ، واختيار الكلمة ، واختيار الشخص ، واختيار الأسلوب ، واختيار المعيار : آلام عظمى ، تزلزل نفوس القادة والحكام ، وتشيب من أجلها النواصى ، ومن هنا حق للسموات والأرض أن يعتبروا أنهم أبعد نظراً ، فقد أشفقن من الاختيار ونجون منه ، بلسان الحال ، بطبيعة الحال ، لا بلسان المقال . .

فالإنسان استحق الخلافة : التى اختاره الله سبحانه وتعالى لها : لا لأنه معصوم لا يخطئ ولا لأنه كالملائكة ، لا يعصى لله أمراً ، ويطيع ما يؤمر ، ولا لأنه خير لا شر فيه ، وقوى لا ضعف به : بل إنه كما قالت عنه الملائكة بحق يفسد ويسفك الدماء ، ولكنه مع ذلك ، مستعد لإصلاح ما فسد ، ولتقويم ما اعوج ، وللتوبة عن الخطإ ، واستئناف الحياة .

والأمر الثانى ، أن (الأمانة) التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم ، والتى عرضت على السماء والأرض ، فأبينها وأشفقن منها هى كما سبق القول حرية الإرادة ، هى القدرة على الاختيار ، وهى أعظم مايتحمله الإنسان من أثقال وأوزار فى حياته منذ يولد ، حتى يوارى التراب . فاختيار الطريق ، والتفضيل بين الأمور ، والموازنة بين الأشخاص ، هى جوهر حياة الإنسان ، وهى التى تجدد جدارته للخلافة ، كما تجدد شقاءه (بالأمانة) ، وهو شقاء يزيد من قدره ، يوسع نفسه ، ويمنحه ثواب الاجتهاد .

فى الآية الثلاثين من سورة البقرة يقول الله تعالى :

(وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون) .

وفى الآية الحادية والثلاثين وما بعدها يقول الله تعالى :

(وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم) .

ومن هذه الآيات ، يبدو واضحاً أن الله عز وجل ، أنبأ الملائكة بأنه جاعل فى الأرض خليفة ، وأن هذا الخليفة ، يمكن أن يصدر عنه الفساد وسفك الدماء ، فاعترضت الملائكة على هذا الاختيار ، فى حين أنهم لا يصدر عنهم شىء من ذلك ، فهم يطيعون الخالق ، ولا يخالفون له أمراً ، ولا يسبقونه بالقول . ومن باب أولى ، لا يسفك دماً ، ولا يفسد .

فكان جواب الله تبارك ، أن سأل الملائكة عن الأسماء كلها ، وهى الأسماء التى علمها سبحانه لآدم ، فأصبح عالماً بها ، داعياً لها ، فى حين أن الملائكة قد حرموا هذه المعرفة ، فثبت رجحان كفة آدم فى هذا المجال ، فانتقلت المفاضلة بين الملائكة من جهة ، وآدم من جهة أخرى ، من حيث الطاعة والمعصية ، إلى المفاضلة من حيث العلم والجهل ، وأعلن الله عز

وعلا مشيئته للملائكة فى تفضيل العالم الذى قد يخطئ إلى حد سفك الدماء وإتيان الفساد ، فى صدد الاختيار للخلافة فى الأرض ، عن المخلوقات التى تطيع ، وإن لم يكن لها حظ المعرفة . لا لأن الطاعة قليلة القدر ، ولا لأن المعصية عن الخطايا والذنوب ، فضيلة لا يجب أن يتحلى بها الخليفة ، ولكن لحكمة أعظم ، لأن العلم الصحيح ، هو بذاته التقوى وطاعة الخالق ، والانصياع لحكمه ، لأن الخروج على مقتضى أى منها يؤدى إلى الهلاك والشقاء والمذلة ؛ فآدم وأبناؤه ، بفضل العلم ، يهتدون إلى أحكام الله ، وينزلون على مقتضاها ، وإن كان هذا الاهتداء : سيتأخر حيناً ، وسيثقل عليهم حيناً آخر ، وسيضلون عن السبيل المؤدى إليه أحياناً ، ولكنهم بفضل الميل إلى العلم ، والشوق إلى المعرفة ، والاستعداد لتبين الجديد وكشف المخبوء ، والتطلع إلى البعيد والقريب ، سيبقى حرصهم على الهداية متجدداً ، وعملهم من أجل طاعة الله ، قائماً : يقوم به بعضهم ، أو تقوم به قلة ، أو يقوم به فرد ، ولكنه لا ينعدم كلية .

على أن الأمر لم يقف عند حد الاعتراض من جانب الملائكة ، فقد وصل الأمر إلى حد التمرد وإعلان العصيان جهرة من أحد هؤلاء الملائكة ، ففى الآية الحادية عشرة من سورة الأعراف وما بعدها يقول الله تعالى :

(ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين. قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه ، خلقتنى من نار ، وخلقته من طين) .

فحقت عليه العقوبة ، فقال الله تعالى : (قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين . قال أنظرنى إلى يوم يبعثون ، قال إنك من المنظرين . قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين).

فما دلالة هذه الآيات؟

دلالتها الأولى أن إبليس استطاع أن ينفذ إلى موطن الغواية والإغراء من نفس آدم وهو موطن قوته وضعفه معاً . ونعني به ، شدة حبه للعلم ، وتشوقه الدائم إلى المعرفة ، وفضوله الذى لا يقاوم ، فلسنا مع المفسرين الذين يقولون إن الشيطان جاء لآدم وزوجه من جانب السلطان والخلود والملك الذى لا يبلى . فقد كانا فى الجنة ، وكانا لا يشكوان شيئاً ، ولا ينقصهما فيها ، مما تدفعهما إليه غرائزهما الإنسانية من مأكل أو ملبس أو مسكن أو راحة نفس ، ولكن الطمع الذى لا يشبع ، هو طمع المعرفة وشهوة العلم ، فلما حدثهما إبليس عن شىء لا يجهلانه ، ويختلف عما يعرفانه من لذائذ الجنة ومتعها ، تاقت نفسهما إليه ونسيا أمر ربهما ، فأكلا من الشجرة التى نهاهما ربهما عن الأكل منها .

ولسنا نريد أن نقف هنا أمام هذه الشجرة وماذا تكون ، ولا أن نتحدث عما إذا كانت شجرة بحق ، كشجرة الحنطة كما يقول بعض المفسرين الأجلاء ، أم أنها كناية عن شىء آخر يتفق مع سياق القصة وألفاظها ومدلولها ، ولكن الذى نريد أن نخلص إليه ، أن الشيطان ، أدرك منذ اللحظة الأولى ، حينما جرى الامتحان بين الملائكة وآدم ، فى الأسماء ، وما تفيد ، وعرف أن هذا العلم ، لا يقف عند حد ، ولا يقنع بشىء ، وأن ما يصل إليه ، يكون كالوقود فى النار ، يزيدها اشتعالا ، فما يعرفه الإنسان من شىء يدفعه ، إلى معرفة ما بعده ، وما بعده يجره إلى ما هو أعمق ثم إلى ما هو أبعد ثم إلى ما هو أشق من هذا كله : يشقى ويتعرض للزلل وللتعب وللمعصية وللآلام ، تكاد تندق عنقه فوق الجبال ، ويكاد يهوى من عل إلى أعماق الهاوية ، ومن البر إلى أعماق البحار ، وتكاد تتخطفه النسور وهو لا يخاف ، إلا للحظة ، يستجم فيها ، ويستجمع قواه ويندفع . وعندما يلوح له من أقصى الدنيا ، طرف للحقيقة ، يندفع لا يلوى على شىء . فاطمأن الشيطان وقال لأخرجن آدم وزوجه ، الذى لعنت

من أجلهما ، وطردت من الجنة بسببهما ، وقضى على أن أخرج من طائفة الملائكة مذموماً مدحوراً ، بعد خلقهما وقد قال فعلا (لأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) .

وقد طلب إبليس من رب العالمين :

(قال أنظرنى إلى يوم يبعثون ، قال إنك من المنظرين) .

ولو عرض هذا الطلب على « آدم » نفسه عليه السلام ، أو لأحد من بنى آدم ، لأجرى فيه الحكمة البشرية القاصرة ، ولرفضه ، بغير تردد ، ولأقام حكمه على أسباب (بشرية) أيضاً تبدو لكل بنى آدم وجيهة : وجديرة بالاحترام .

فالله سبحانه وتعالى ، اختار « آدم » للخلافة على الأرض دون جميع عباده ومخلوقاته من ملائكة وجن . وذلك بعد أن خلقه بيده ، ثم أمر الملائكة ـ خير عباده المنقطعين لتقديسه وتنزيهه ، والذى يطيعون ما يؤمرون ، ولا يسبقون ربهم بالقول ـ أن يسجدوا لآدم .

فسجد الملائكة جميعاً إلا إبليس فكان جزاؤه أن يطرد من جنة الله ، وأن يحرم من رحمته ، وأن يبقى مذءوماً مدحوراً إلى يوم يبعثون .

ثم إن الله تعالى حذر آدم وبنيه من إبليس بقوله تبارك : (هذا عدو لك ولزوجك) وقد أعلن إبليس ماذا ينوى مع آدم وأولاده إذ قال : (لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) وكان إبليس فى خطته هذه مطمئناً إلى نتيجتها سلفاً ، لما عرفه من ضعف آدم فقال : (ولا تجد أكثرهم شاكرين) وشاكرون هنا بمعنى قادرين على الوفاء بالوعد، صابرون أمام الإغراء، مدركون لخطر وسوسته، أى وسوسة الشيطان .

لكل هذا ، يصبح طلب « إبليس » أن يمهل حتى يوم يبعثون حقيقا بالرفض ، لأنه سيتولى الكثيرين من أبناء آدم، يوسوس لهم ، ويخرجهم عن صراط الله المستقيم ، ويزين لهم المعصية، ويحسن الخطيئة ، ويعدهم

عن سبيل الله ، فهو عدوهم . عدو أبيهم وعدو أمهم ، وقد نجح فى طردهما من الجنة ، مقابل وعد كاذب ، ذلك هو الملك الذى لا يبلى . وتجربته الأولى من آدم وزوجه ، قد أثبتت كم هو قادر ، وكم كان الإنسان معه ضعيفاً .

ولكن لو رفض طلب إبليس ، كانت خلافة آدم عبثاً ، وتنزه الله سبحانه وتعالى عن العبث ، وتعالت حكمته وعمله عن البطلان .

فآدم خلق ، وبه ميل للفساد وسفك الدماء ، وهو لهذا ضعيف أمام الغواية ، ولذلك قد طرد إبليس من الجنة ، بسببه ، ليكون مصدر ابتلاء للإنسان ، يبعده عن الخير ، ويدنيه من الشر ، ويحبب إليه الرذيلة ، ويكرهه فى الفضيلة، وسيقاوم الإنسان ما استطاع المقاومة ، وسينجح فى هذه المقاومة ، فيثاب ، وسيخفق فيجازى ، ولكنه لا يلبث أن يستأنف مقاومته فيقوم ويتعثر ، ويسير ويقف ، ويتقدم ويتأخر ، وفى هذا كله ينال حظاً من السعادة ، كما يصيب نصيباً من الشقاء ، فتتحقق مشيئة الله العظيم التى أفصح عنها القرآن الكريم ، بقوله عز وعلا :

(قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى . فمن اتبع هداى ، فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى ، فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى) .

وهذا هو جوهر حياة الإنسان ، وهذه هى ميزته عن الملائكة وعن الجن ، وعن إبليس فإنه قابل للابتلاء (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) وعن طريق هذا الابتلاء ، يعمر هذا الكون ، وتشاد فيه العمائر ، ويبدع فيه أبناء آدم ، من كل فن وعلم ، ما تتجمل به الحياة ، وتزداد اتساعاً ورحابة .

ولقد بدأ الشيطان حياته مع آدم ، مما اتضحت معه من حكمة رب العالمين ، وخالق الملائكة والإنس والجن أجمعين :

قال الله تعالى لإبليس :

(ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ! ، قال أنا خير منه ، خلقتنى من نار وخلقته من طين !) .

وجاء فى شرح البيضاوى لهذه الآية معنى طريف فقد قال :

« قال أنا خير منه » جواب من حيث المعنى ، استأنف به استبعاداً لأن يكون مثله مأموراً بالسجود لمثله ، كأنه قال المانع أنى خير منه ولا يحسن للفاضل أن يسجد للمفضول فكيف أن يحسن أن يؤمر به ، فهو الذى أصله التفكير وقال بالحسن والقبيح العقليين فقد خلقتنى من نار وخلقته من طين تعليلا لفضله ، وقد غلط فى ذلك بأن رأى الفضل كله باعتبار العنصر ، وغفل عما يكون باعتبار الفاعل كما أشار إليه بقوله تعالى : (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى) أى بغير واسطة » .

ومعنى ذلك أن « إبليس » وضع معيار القياس والمقابلة العقلية ، وقد جرى عليها الإنسان بعد ذلك ، فأحياناً يهتدى إلى الحق ، وأحياناً يضل ، لشدة اعتداده بعقله ، ناسياً أو مهملا خصائص أخرى فى نفسه ، ركبت فيه ، ليصل إلى الحقيقة .

وقد قال القرطبى فى هذا المعنى :

« قال ابن عباس والحسن وابن سيرين : أول من قاس إبليس فأخطأ القياس . فمن قاس الدين برأيه قرنه الله مع إبليس ، وقال ابن سيرين : ما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس وقالت الحكماء أخطأ عدو الله من حيث فضل النار على الطين ، و إن كانا فى درجة واحدة من حيث هما جماد مخلوق ، فإن الطين أفضل من النار من وجوه أربعة وأورد أربعة أسباب هى : الطين الرازنة والسكون ، والنار الخفة والطيش والحدة ، وتراب الجنة مسك ، والنار سبب العذاب والطين مستغن عن النار ، والنار محتاجة إلى المكان ومكانها التراب » .

ومهما كان الرأى فى هذه المقارنة بين النار والطين ، وأيهما أفضل ، فإبليس وضع أساس القياس بهذه المفاضلة ، وبدأ طراز جديد من المخلوقات ، يستعمل عقله فى كشف الحقائق ، وفى ابتداع الحجج ، وفى الرد على الخصوم ، وهذا كله أساس حضارة الإنسان وللدنيا التى خلقها فى هذه الأرض بإذن الله » .

ولا يغض من قدر هذا المنهج أن إبليس هو الذى بدأه ، فسنة الله فى خلقه ، أن الخير والشر ، ليسا أمرين ثابتين ، بل هما وقف على عقيدة الإنسان ونظرته إلى الأمور ، فما يكون خيراً فى يد إنسان يستحيل شراً فى يد آخر ، فالسلاح الذى يقتل به إنسان الضوارى المهددة لأمنه ، يستعمله إنسان فى قتل أخيه وجاره ، يروعهم ، ويعكر أمنهم ويقذف فى قلوبهم الرعب ، وما تنبته الأرض يمكن أن يكون سكراً ، كما يمكن أن يكون رزقاً حسناً . والطعام الذى يغذى الجسم ويقويه . قد يصيبه بالتخمة ويرديه . وقد استطاع الإنسان أن يحول منهج القياس ، إلى وسيلة للاستزادة من المعرفة ، والتدريب على الجدل المفضى إلى فصل الصحيح من الزائف ، ولكن ما كاد الشيطان يغلب الإنسان ، حتى يتحول الجدل إلى مماراة وسفسطة ، والقياس إلى تبرير الخطأ ، وتمويه الحقيقة ، واللعب بالحجة . وهكذا أكثر وسائل الإنسان ، ما يتناول منها شيئاً ، إلا ويقحم الشيطان نفسه فيها ، ليكسب منها ، ويحقق رسالة الشر التى أخذها على عاتقه ، والتى أعلنها لرب العالمين ، فى جرأة العاصى ، الذى لا أمل له فى نجاة ، ولا رغبة له فى توبة ، إنه سيواصلها فى غير هوادة .

وقد قال الله تعالى لآدم وزوجه ولإبليس :

(قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى) .

فالإنسان وإن طرد من الجنة ، بعد أن استمع إلى وسوسة الشيطان ، إلا أنه لم يطرد من رحمة الله ، فلا تزال عناية الله ترعاه ، ولا يزال جهاده

من أجل إصلاح حاله ، ومقاومة هواجس الشيطان ووساوسه ، وتغريره ونزغه ، محسوباً له ، يكفر عنه السيئات ، ويكتب له حسنات .

وهدى الله يأتى به أنبياء الله ورسله ، فيأخذون بيده فى ظلمات الجهالة والشكوك التى ينسج خيوطها الشيطان ، ويرخى على النفوس سدولها ، ومصائد الشهوات ، وشباك الزلات ، التى يضعها فى طريق الإنسان ، مكشوفة ومستورة ، ليتخبط فيها ، ويقع فى حبائلها .

فهل نجا الأنبياء المرسلون مما يعانى منه سائر الناس ، من ويلات الابتلاء وآلام الامتحان ، إنهم أشبه بالملائكة من حيث كونهم معصومين ، فيما يخص الرسالة التى حملوها ، وبعض العلماء ، يحسبونهم أعلى درجة من الملائكة عند الله ، لأنهم فوق كونهم بشراً ، فهم مختارون من الله لأداء رسالة الله إلى الناس لا إلى فرد منهم ، ولا فى ظرف محدود ، وهم يكابدون فى سبيل هذه الرسالة ما لا يكابده الملائكة من الآلام ، والمشاق ، ومن تكذيب الناس لهم ، وصدهم الآخرين عن تصديق ما يقولون ، واتباع ما يعملون ، ثم ينسبون إليهم من النقائص والعيوب ، مالم يسمع عنه الملائكة ولا يعرفونه .

ولكن قضت مشيئة الله أن يكون الرسل بشراً ، يأكلون الطعام ، ويمشون فى الأسواق ، ويتزوجون النساء ، ويرزقون الذرية ، وتصيبهم تترل العلل ، وبهم مصيبة الموت ، ويعرفون الثكل والحزن ، كما يعرفون اليتم والفقر ، وتجتمع عليهم المخاوف ، وتشتد بهم الهموم والخطوب ، وتتوالى عليهم الهزائم ، ثم يبدو نصر الله بعيداً . وقد وصف القرآن الكريم هذه الحالات ، وذكر أتباع محمد عليه الصلاة والسلام بأنه ميت ، وأنه يقتل ، ووصف حالات تزلزل الرسول والذين معه . ونص الله تعالى صراحة فى سورة الكهف على لسان نبيه : (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) .

وما كانت تفوته فرصة يؤكد فيها بشريته ، فقد دخل عليه صلى الله عليه وسلم رجل ، فأخذته رعدة من مهابة الرسول ، فبادره الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليطمئنه ، ويذهب عنه الروع ، وليؤد المبدأ الذى يقوم عليه « لست ملكاً جباراً ، وإنما أنا ابن امرأة تأكل القديد فى مكة » .

فلم يقنع عليه الصلاة والسلام بقوله بأنه ليس ملكاً وليس جباراً ، بل أردف، هذا التقرير بأنه بشر ، ولم يقنع بقوله إنه بشر ، وإنما نسب نفسه لامرأة فقيرة فى مكة .

ولكن لا يزال فى القرآن الكثير فى بشرية الرسل ، وفيما يكابده الرسل من المتاعب والمشاق ، التى يتعرض لها سائر الإنسان ، وما يعالجونه من مشكلات الناس ، فى شئون حياتهم العادية، وفى صلاتهم بالدين والرسالة التى حمل الرسول عبئها ، فإلى جانب ما كان يعانيه الرسول ، من الحرج لمطالبة الناس إياه بالمعجزات ومظاهر العظمة والجاه ، لأنهم بفعل الشيطان يستعملون القياس الذى استعمله الشيطان فى اليوم الأول حينما رفض أن يسجد لآدم بحجة أن آدم خلق من مادة أدنى وأنه خلق من مادة أعلى ، فقد كانوا لا يتصورون أن يكون الله قد اختار نبياً يهدى الناس ، وينقل إليهم أوامر السماء ، وينتقل بهم من حال إلى حال ، ويدعوهم إلى ترك ما ألفوه ، وهجر ما ورثوه ، ثم يكون واحداً منهم ، ليس له من الجاه ولا الثراء ولا النفوذ شىء ، بل يكون فى الأغلب الأعم من الفقراء الذين تزدريهم أعين الناس وقد سجل القرآن الكريم هذا فى قول الله تعالى : (لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه) .

وإذا كان إلحاح الناس فى طلب هذه المعجزات ، مما يحرج الرسول لأنه لفرط حرصه على هداية الناس وأداء الرسالة ، يجعله يود لو كان

فى وسعه أن يرضى هذا الطلب ، على سذاجته ، وخلوه من فهم القيمة الحقيقية للأشياء ، وطعن الرسالة والدين ، حتى ينتقل هؤلاء المعاندون اللجوجون ، من الكفر إلى الإيمان ، ومن الفساد إلى الصلاح ، ومن الضعف إلى القوة ، ولكن سنن الله تأبى ، أن ينتقل الناس من ذلك إلى غيره مما يفضله ، بغير جهد من الناس ومكابدة ، هى فضل الإنسان ، وهى سر اختياره للخلافة ، ولو تكن هذه إرادة الله وحكمته ، لهلك إبليس فور اللحظة التى أعلن فيها تمرده ، ولعاش الإنسان ، لا يجد ما يزيغ قلبه ، ولا يبعث فى نفسه الشك ، ولا يحبب إليه الخطيئة ، ولما لقى فى حياته ، عناء فى كشف الحق ، وفى النجاة من الضلال . ولما قامت الحاجة إلى الرسل ، أو لما وجد الرسل فى أدائها عناء . إذ حسبهم أن يدعو الناس إلى رسالة السماء ودين الله ، فيتقاطر عليهم الناس أفواجاً يسمعون ويفهمون ويؤمنون ، ثم يعودون للسؤال والتثبيت ، ثم يتفاضلون بينهم بسعة النفس ، وقوة القلب ، وجلاء البصيرة ، ولكنهم جميعاً مؤمنون ثابتون ، لا يزعزع إيمانهم مصاب ، ولا يزيغ قلوبهم ملمة .

ولكن الرسل ، لم يجدوا قط من يستجيب لدعوتهم من بدء الدعوة ، إلا القلة المستضعفة وهى قلة ، لا تملك فى المجتمع الذى تعيش فيه لنفسها لا حلاً ولا عقداً .

والرسول نفسه ، إزاء الصعاب المتعاظمة ، والعقبات المتزايدة ، يصيبه ما عبر عنه القرآن الكريم فى غير موضع فقال الله تعالى مثلا فى سورة الحج .

(وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته) .

فالشيطان لا يقف فعله عند سائر الناس ، ولكنه لا يهوله أن يقتحم نطاق الرسالة ، وأن يعيث فى مجالها فساداً ، فقد أدرك أن العذاب كتب له ، وأنه لا يحق له أن يطلب المغفرة ، ولا أن يثوب إلى الصواب ، ولكن

الله ، يحمى رسله ، ويرسل لهم من يحميهم كما قال تبارك وتعالى : (إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم) ولذلك ما يلقى الشيطان فى أمنية الرسل شيئاً حتى ينسخه الله ، لتؤدى الرسالة على وجهها وقد قال الله تعالى فى سورة الإسراء (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا!) فالرسل مشمولون بعناية الله : وإن حامت حولهم الشياطين ، ففعل الشيطان مردود إليه وسعيه مقصور عليه .

ومنذ بدء الخليقة ، والرسل ، وهم قدوة البشر ومثلهم العليا ، يبتلون ويمتحنون ، ويلتمسون من الله التوبة والمغفرة ، ويطلبون منه عز وعلا ، التثبيت والتأييد :

فآدم وزوجه يقولان : (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وقال موسى عليه السلام فى موضعين : (رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى) (فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين) ! وقال تعالى عن داود عليه السلام : (فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب ، فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) .

قضت إرادة الله تعالى ، أن يجاب طلب إبليس ، حينما خاطب ربه بقوله : (قال ربى فأنظرنى إلى يوم يبعثون) فرد عز وتبارك : (قال فإنك من المنظرين) وقد أعلن إبليس بعد ذلك ، الحرب على الإنسان لفرط استكباره ولشدة غيرته ، فقد كبر عليه . أن يؤمر وقد خلق من نار ، أن يسجد لآدم ، وقد خلق من طين ، وكانت صيغة إعلان الحرب صريحة وعنيفة ، لا يسمعها أحد من بنى آدم ، حتى يملأ الخوف قلبه ، وحتى يطلب صادقاً من الله العون ، ولذلك جرت صلاة المسلمين من ذرية آدم ، على هذين المعنيين إياك نعبد وإياك نستعين . فقد صاح إبليس (لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) .

والصورة القرآنية لخطة أبليس ، كاشفة لما عقد عليه العزم هذا المخلوق المتكبر المريد ، ذو الإرادة النافذة وقدرات الشر غير المتناهية ، ووسائل الإغراء المزلزلة لإرادة المقاوم ، فقد بدا من هذه الصورة أن الإنسان سيحاط به ، من كل جانب ، من أمام وخلف ، وعن يمين وشمال ، حتى ليبدو معزولا عن كل الكون ، محروماً من كل حول ، ملقى به فى سجن بلا قرار . ولكن الإنسان ، وإن بدا فريسة سهلة أمام إبليس وإغرائه ووسوسته لأن الإنسان ، خلق ضعيفاً وكفوراً ، ويئوساً وقتوراً كما قال عنه خالقه تعالى ، إلا أنه بفضل رعاية الله ، وبفضل ما أودعه الله فى نفسه ، من حبه للعلم ، وشغفه الشديد بالمعرفة ، وتطلعه الدائم إلى الغيب ، وإلى المخبوء والدفين من أسرار نفسه ، وغوامض دنياه ، قادر على أن يواجه أسلحة إبليس ، وأن يبطل فى الكثير من الظروف والأحوال عملها .

وحينما بدأت المعركة بين الإنسان والشيطان . لم تكن معركة بين الخير والشر . وإلا لما كان هذا الكون الذى يعيش فيه الإنسان ، ولما كانت هذه الحضارات والأديان ومحاولات الفكر ، واجتهادات القلب بل كانت معركة بين الإنسان بكل خصائصه وصفاته ، ومن تقلبه بين الشر والخير ، وتذبذبه بين القوة والضعف ، وتردده بين الهدى والضلال ، فالإنسان الذى يرتفع إلى أعلى عليين فى التضحية والاستشهاد والعمل الصالح ، هو نفسه الذى يبذ الشيطان قدرة على التدمير والتخريب ، والفساد وسفك الدماء . . وتداخل الخير والشر ، فى عمل الإنسان ، هو الذى جعل المعركة بينه وبين الشيطان طويلة متجددة ، وألا يكتب للشيطان فيها النصر من الجولة الأولى ، فقد كانت أبرع حيلة ، وأقدر على الإغراء من الإنسان الذى كان يدب على أرض هذا الكون ، متأملا مديراً عينيه فى السماء والأرض ، باحثاً عن طريق عن الهداية كما فعل « إبراهيم » عليه الصلاة والسلام إذ كلما وجد كوكباً حسبه ربه حتى

يأفل يبحث عن غيره ، وهكذا ولما كانت المعركة بين آدم والشيطان طويلة ، فكان لا بد أن يخلف آدم غيره ليواصلوا خوض مواقعها فى ظروف تتغير دائماً وبأسلحة تتطور إلى آخر العمر ، فقضت إرادة الله تعالى أن يكون لآدم شريكة فى الحياة ، وأن يكون لها ذرية ، تشبههما ، فى الجوهر ، وتختلف ، عنهما فى المظهر ، ذرية تواصل البحث عن الحقيقة ، وتنقب فى كل زمان ومكان عن مصادر المعرفة ، جوالة جوابة ، مشرقة مغربة ، يأتيها عون الله كما وعد تعالى عباده بقوله : فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى ، فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً) .

وعن هذا الدور الجديد من أدوار حياة الإنسان قال الله تعالى مخاطباً آدم وزوجته : (ولا تقربا هذه الشجرة) .

وجاء فى تفسير القرطبى عن هذه الشجرة : قوله تعالى ولا تقربا هذه الشجرة . أى لا تقرباها بالأكل ، قال ابن العربى سمعت الشامى فى مجلس النضر يقول : إذ قيل لا تقرب العمل بفعل بفتح الراء ، كان معناها « لا تلبس الفعل بالفعل ، وإذا كان بضم الراء ، فإن معناه ، لا تقرب منه » .

ثم قال :

واختلف أهل التأويل فى تعيين هذه الشجرة التى نهى عنها فأكل منها ، فقال ابن مسعود وابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وجعدة بن هبيرة : هى الكرم ، ولذلك حرمت علينا الخمر ، وقال ابن عباس أيضاً ، وأبو مالك وقتادة : هى السنبلة والحبة منها ككلى البقر ، أحلى من العسل ، وألين من الزبد وقال وهب بن منبه : ولما تاب الله على آدم جعلها غذاء لبنيه ، وقال ابن جريج عن بعض الصحابة هى شجرة التين ، وكذا روى سعيد عن قتادة ، ولذلك تعبر فى الرؤيا بالندامة لآكلها ، من أجل ندم آدم عليه السلام على أكلها ، ذكره السهيلى ،

وقال ابن عطية : وليس فى شىء من هذا التعيين ما يعضده خبر وإنما الصواب أن يعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة فخالف إلهه ؛ وعصى فى الأكل منها ، وقال القشيرى أبو نصر : وكان الإمام والدى رحمه الله يقول : نقيم على الجملة أنها شجرة الخلد .

واختلفوا كيف أكل منها مع الوعيد المقترن بالقرب ، وهو قوله تعالى : (فتكونا من الظالمين) فقال قوم أكلا من غير الشجرة التى أشير إليها فلم يتأولا النهى واقعا على جميع جنسها ، كأن إبليس غره بالأخذ بالظاهر . قال ابن العربى : وهى أول معصية عصى الله بها على هذا القول . قال وفيه دليل : على أن من حلف ألا يأكل هذا الخبز ، فأكل من جنسه ، حنث .

وقال ابن المسيب : إنما أكل آدم بعد أن سقته حواء الخمر فسكر ، وكان فى غير عقله ، وكذلك قال يزيد ابن قسيط ، وكانا يحلفان بالله أنه ما أكل من هذه الشجرة وهو يعقل . وقال ابن العربى : وهذا فاسد نقلا وعقلا ، أما النقل فلم يصح بحال ، وقد وصف الله تعالى عز وجل ، خمر الجنة فقال (لا فيها غول) . أما العقل فلأن الأنبياء بعد النبوة معصومون عما يؤدى إلى الإخلال بالفرائض ، واقتحام الجرائم . قلت ، وهو الصحيح لإخبار الله تعالى فى كتابه بذلك حتماً وعزماً فقال : (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل ، فنسى ولم نجد له عزماً) ولكن لما كان الأنبياء عليهم السلام يلزمهم من التحفظ والتيقظ لكثرة معارفهم ، وعلو منازلهم ما لا يلزم غيرهم ، كان تشاغله عن ذكر النهى تقبيحاً صار به عاصياً ، أى مخالفاً — قال أبو أمامة — لو أن أحلام بنى آدم منذ خلق الله الخلق إلى يوم القيامة ، وضعت فى كفة ميزان ، ووضع حلم آدم فى كفة أخرى ، لرجحهم ، وقد قال الله تعالى (ولم نجد له عزماً) .

• • •

ويقال إن أول من أكل من الشجرة حواء بإغواء إبليس إياها، وإن أول كلامه كان معها لأنه وسواس المحنة، وهى أول فتنة دخلت على الرجال والنساء، فقال: ما منعكما من هذه الشجرة إلا أنها شجرة الخلد، لأنه علم منها أنهما كان يحبان الخلد، فأتاهما من حيث أحبا «حبك للشيء يعمى ويصم» فلما قالت حواء لآدم، أنكر عليها وذكر العهد، فالح «ابليس» على حواء، وألحت على آدم إلى أن قالت: أنا آكل قبلك حتى إن أصابنى شيء سلمت أنت، فأكلت فلم يضرها، فأتت آدم فقالت: كل فأنا أكلت ولم يضرنى، فأكل فبدت لهما سوءاتهما وحصلا فى حكم الذنب لقوله تعالى: (ولا تقربا هذه الشجرة) فجمعهما فى النهى، فلذلك نزلت بهما العقوبة، حتى وجد المنهى عنه فهما جميعاً».

ويقول الأستاذ رشيد رضا:

ومجمل الآيات اللاحقة أن الله تعالى أمر آدم وزوجه بسكنى الجنة، والتمتع بها، ونهاهما عن الأكل من شجرة مخصوصة، وأخبرهما أن قربها ظلم، وأن الشيطان أزلهما عنها فأخرجهما مما كان فيه من النعيم إلى ضده، ثم إن آدم تاب إلى الله من معصيته، فقبله، ثم جعل سعادة هذا النوع باتباع هدى الله وشقاءه بتركه وقد تقدم أن الآيات كلها قد سيقت للاعتبار ببيان الفطرة الإلهية التى فطر عليها الملائكة والبشر، وتسلية للنبى صلى الله عليه وسلم عما يلاقى من الإنكار، وتقدم وجه ذلك فى الآيات السابقة، وأما وجهه فى هذه الآيات فظاهر، وهو أن المعصية من شأن البشر كأنه يقول: فلا تأسى يامحمد على القوم الكافرين، ولاتبخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً، فقد كان الضعف فى طباعهم ينتهى إليهم سالف لهم: تغلب عليهم الوساوس، فتذهب بصبرهم الدسائس، انظر ما وقع لآدم، وما كان منه، وسنة الله مع ذلك لاتتبدل

« أما تفسير هذه الآيات بالتفصيل فقد اختلف علماء المسلمين من

السنة وغيرهم في الجنة . هل هي البستان أو المكان الذي تظلله الأشجار بحيث يستر الداخل منه كما يفهم من أهل اللغة أم هي الدار الموعود بها في الآخرة ، والمحققون من أهل السنة : على الأول — أي أنها في هذه الآيات هي البستان ، وليست الدار الموعودة في الآخرة قال أبو منصور الماتريدي في تفسيره المسمى بالتأويلات : إن هذه الجنة بستان من البساتين ، أو غيضة من الغياض ، كان آدم وزوجه منعمين فيها ، وليس علينا تعيينها والبحث عن مكانها ، وهذا هو مذهب السلف ولا دليل لمن خاض في تعيين مكانها من أهل السنة وغيرهم .

« وبهذا التفسير — والكلام لايزال للأستاذ رشيد رضا — وبهذا ، التفسير تنحل إشتكالات كثيرة وهي .

١ — أن الله خلق آدم في الأرض ليكون هو ونسله خليفة فيها ، فالخلافة مقصودة ، بالذات فلا يصح أن تكون عقوبة عرضية .

٢ — أنه لم يذكر بعد خلقه فيه الأرض أنه عرج به إلى السماء : ولو حصل لذكر لأنه أمر عظيم .

٣ — أن الجنة الموعود بها لا يدخلها إلا المؤمنون والمتقون فكيف ، دخلها الشيطان الكافر الملعون .

٤ — أنها ليست محلا للتكليف .

٥ — أنه لا يمنع من فيها من التمتع بما يريد منها .

٦ — أنه لا يقع فيها عصيان .

وقال — المرحوم الشيخ رشيد رضا ، في شرح « وكلا منها رغداً حيث شئتما » إباحة التمتع بتلك الجنة والتنعم بما فيها ، أي كلا منها أكلا رغداً واسعاً هنيئاً من أي مكان فيها إلا شيئاً واحداً ، نهاهما عنه بقوله : « ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » لأنفسكما بالوقوع فيما ، يترتب على الأكل منها ولم يعين الله تعالى لنا هذه الشجرة فلا نقول في تعيينها شيئاً وإنما نعلم أن ذلك لحكمة اقتضته . ولعل في خاصية تلك

الشجرة ما هو سبب خروجهما من حال إلى حال ، وربما كان الأكل منها ضرر ، أو كان النهى ابتلاء وامتحاناً منه تعالى ليظهر به ما فى استعداد الإنسان من الدليل من الميل إلى الإشراف على كل شئ واختباره ، وإن كان فى ذلك معصية يترتب عليها ضر.

وقال الأستاذ رشيد أيضاً فى تفسير الآيات من التاسعة عشرة إلى الخامسة والعشرين من سورة الأعراف :

النهى عن قرب الشئ أبلغ من النهى عنه كما بيناه فى تفسير (تلك حدود الله فلا تقربوها) تعريف الشجرة كتعريف الجنة ، وهى مشار إليها فى تلك الآية بما يعين شخصها ، ولم يبين فى القرآن نوعها ولاوصفها . إلا ما جاء فى الآية التالية عن إبليس ، ومثله فى سورة طه .

وفى الفصل الثانى من « سفر التكوين » أول أسفار التوراة ما نصه : وغرس الرب الإله فى الأرض من كل شجرة شـ ية للنظر ، وجيدة للأكل ، وشجرة الحياة فى وسط الجنة ، وشجرة معرفة الخير والشر ثم قال « وأخذ الرب الإله آدم ، ووضعه فى جنة عدن ليعملها ويحفظها ، وأوصى الرب الإله آدم قائلا : من جميع شجرة الجنة تأكل أكلا ، وأما شجرة معرفة الخير والشر ، فلا تأكل منها ، لأنك يوم تأكل منها تموت موتاً »

وقد أكل آدم من الشجرة ولم يمت يوم أكلها .

والقرآن قد علل النهى بأنه يترتب على مخالفته أن يكونا من الظالمين لأنفسهما ، أى بفعلهما ما يعاقبان عليه ، ولو بالحرمان من ذلك الرغد من العيش ، وما يعقبه من تعب فى المعيشة .

(فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوآتهما) والظاهر هنا أن الشيطان تمثل لآدم وزوجه ، وكلمهما ، وأقسم لهما ، ولامانع منه على قول الجمهور . ومن جعل القصة تمثيلا لبيان حال النوع البشرى فى الأطوار التى تنقل فيها ، يفسر الوسوسة ، بأن الإنسان عندما ينتقل من طور الطفولة التي لايعرف فيها هما ولانصباً ، إلى طور التمييز

الناقص ، يكون كثير التعرض لوسوسة الشيطان واتباعها . وقد عللت هذه الوسوسة بأن غايته وغرضه منها أن يظهر لهما ما غطى وستر من سوآتهما . ثم قال الأستاذ رشيد: ومن باب الكناية بدت سوأته وبدت لهما سوآتهما. « إذا أضيفت السوأة إلى الإنسان أريد بها عورته الفاحشة لأنه يسوء بمقتضى الحياء الفطرى ما لم يفسده بتعود إظهارها مع آخرين فيرتفع الحياء » .

(وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) أى قال فيما وسوس لهما . ما نهاكما ربكما من هذه الشجرة أن تأكلا منهما إلا لأحد أمرين : أن تكونا بالأكل منها ملكين . أى كالملكين فيما أوتى الملائكة من الخصائص كالقوة وطول البقاء وعدم الفناء ، بفواعل الكون المؤلمة والمتعبة وغير ذلك . وقرأ ابن عباس وابن كثير « ملكين » بكسر اللام ، واستشهد له الزجاج بما حكاه الله تعالى فى سورة طه بقوله : (قال ياآدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى) (فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) أى فلما ذاقا ثمرة الشجرة ظهرت لكل منهما سوأته وسوأة صاحبه : وكانت مداراة عنهما : قيل بلباس من مادة (ظفر اليدين والرجلين) وكان يسترهما فسقط عنهما وبقيت له بقية فى رءوس أصابعهما والأقرب عندى أن معنى ظهورهما لهما ، أن شهوة التناسل دبت فيهما بتأثير الأكل من الشجرة فنبهتهما إلى ما كان خفيا عنهما من أمرها ، فخجلا من ظهورها وشعرا بالحاجة إلى سترها .

فالمواراة كانت معنوية فإن كانت حسية فلاشىء إلا الشعر ساتر خلقى وقد تظهر الشهوة ما أخفاه الشعر ، وإن لم يسقط بتأثير الأكل ، ويدل على كل من هذين المعنين فطرة الإنسان التى نزلت الآيات فى شرح حقيقتها وغرائزها » .

* * *

وقد يحسن أن ننقل هنا ، ما جاء فى الإصحاح الثالث ، من سفر التكوين ، أول أسفار التوراة عن قصة خلق آدم وزوجه ، لتكتمل لنا النصوص فى شأن هذه القصة :

(١ —) كانت الحية أصل جميع الحيوانات البرية التى عملها الرب الإله فقالت الحية : أحقاً قال الله لا تأكلان من كل شجرة الجنة ، فقالت المرأة للحية : من ثمر — شجر الجنة — نأكل ، وأما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة فقال الله لا تأكلان ولا تمساها لئلا تموت . فقالت الحية للمرأة : لن تموتا ، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح عيونكما وتكونا كالله عارفين الخير والشر . فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل . وأنها بهجة للعيون ، وأن الشجرة شهية للنظر ، فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً فأكل منها فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان فخاطا أوراق التين وصنعا لأنفسهما مآزر .

« وسمعا صوت الرب الإله ماشياً فى الجنة عند هبوب ريح النهار . . فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله فى وسط الشجرة . فنادى الرب الإله ، آدم : فقال من أعلمك أنك عريان ؟ هل أكلت من الشجرة ، التى أوصيتك ألا تأكل منها . فقال آدم المرأة التى جعلتها معى هى أعطتنى من الشجرة فأكلت . فقال الرب الإله للحية : لأنك فعلت هذا معاونة أنت من جميع البهائم ، ومن جميع وحوش البرية ، على بطنك تسعين وتراباً تأكلين كل أيام حياتك ، وأضع العداوة بينك وبين المرأة ، ومن نسلك ونسلها . هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه .

وقال تكفيراً أكثر أتعاب حملك . بالوجع تلدين أولاداً ، وإلى الرجل يكون اشتياقك ، وهو يسود عليك . قال لآدم لأنك سمعت لقول امرأتك ، وأكلت من الشجرة التى أوصيتك قائلا : لا تأكل منها ، ملعونة الأرض بسببك ، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك ، وشوكاً وحسكاً تنبت لك ، وتأكل عشب الحقل . بعرق جبينك . تأكل خبزاً حتى

تعود إلى الأرض التى أخذت منها لأنك تراب : وإلى التراب تعود . ودعا آدم اسم امرأته [حواء] ، لأنها أم كل حى » .

بهذا الإغراء والعصيان بدأت حياة خليفة الله فى الأرض ، فتحقق ماتوقعته الملائكة ، فالإنسان فيه ميل للإفساد ، وقدرة عليه ، وحب لسفك الدماء ، وإن كان ذلك اللون من الشر ، لن يتم على يدى آدم نفسه ، ولكنه سيقع على يدى أول جيل من أولاده . ليتم ظهور معالم الحياة الإنسانية ظهوراً ، تبدو معه مخاوف الملائكة ، من شرور هذا المخلوق الجديد ومعاصيه أقل —بكثير مما سيأتى به المستقبل :

ولكننا سنرى أن فى كل منعطف من حياة آدم وأولاده ، وإن بدا الشر مروعاً مخيفاً ، خيرا لا يلبث حتى يبدو أكثر روعة على الطمأنينة ، مؤكداً أنه جدير حقاً بالرسالة التى اختير لها، وبالأمانة التى اختارها لنفسه .

ولكن لنا أن نتساءل ماذا؟ تكون هذه الشجرة ؟ وماذا تعنى هذه القصة ، قصة آدم وحواء ، ومعصيتهما الأولى التى استحقا معها أن يطردا من الجنة ، كما طرد إبليس ؛ مع فارق كبير ، هو أن إبليس طرد منها مذموماً مدحوراً،وطرد منها آدم موعوداً بأن الله سيبعث إلى ذريته وبنيه هداة يأخذون بيده ، ويرشدونه إلى الطريق المستقيم ، وأن من هؤلاء من سيلبى داعى الله فيهتدى وأن منهم من سيضل ويشقى : فتكون حياته ضنكاً . فحياة آدم ، بقيت مفتوحة السبل إلى ماهو أفضل وأبقى ، وحياة إبليس ختمت ، فهى لم تعد أن تكون فصلا واحداً ، ابتدأت وانتهت عنده .

وعلى ضوء جميع نصوص القرآن التى تحكى قصة آدم وزوجه ، وعلى هدى من سياق قصة خلق آدم ودعوة الله تعالى الملائكة ليسجدوا له كلهم جميعاً نرى أن قصة آدم وحواء ، هى قصة كل أبناء آدم ، وأن دور (الشجرة) والوقوف إليها والميل إلى قطف الثمرة منها ، هو الدور

الذى يمر به كل آدمى ، حينما يبلغ السن الذى يكتمل فيه نموه ، ويبلغ عنده أشده ، وتقوى فيه غرائز حياته إنه دور الاشتياق إلى المرأة ، للاتحاد معها ، ليكون من وراء هذا الاتحاد ، خروج جيل جديد ، يخرج منه جيل منه ، ثم تتوالى الأجيال وتتعاقب ، فيكون لجنس آدم ونوعه ، ما يشبه الخلود ، وما يتحقق خلاله ما يصح أن يوصف بأنه ملك لايبلى . إذ سيكون لفريق من أبناء آدم ، من السطوة والنفوذ ، والتحكم فى هذا الكون ، ماتنقطع دونه رقاب الشياطين والأبالسة، فلا يصلون إلى عشر معشاره ، كما سيكون لفريق آخر من أبناء آدم هذا ، من فتوحات الروح والعقل ، ما لايبلى على الزمن ولا ينقضى ، فأفكار الهداة والأنبياء ، وأقوال المفكرين والفلاسفة ، وخواطر الأدباء والشعراء ، تتناقلها الأجيال ، وتحفر على صفحات القلوب والعقول ، وتبعث فى حياة هذا الكون من صور الجمال وآيات الجلال ، ما لم يخطر على بال إبليس ، ولم يرد على خاطره ، وهو يقول لآدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى .

لقد كان آدم وحواء ، ككل ابن من أبنائهم ، وبنت من بناتهم ، طفلين ، بريئين ، لايدركان ما العرى ، ولايعرفان ما العورة ، ولا يحس أحدهما نحو الآخر ، إلا بألطف المشاعر ، وأبسطها ،حتى تهيأ جسديا وعاطفيا ، لدور جديد من أدوار الرسالة التى اختارها آدم ، وقبلها ، فى حين أشفق منها الكون كله ، بجباله وأرضه وسمواته . وإذا كانت تلك هى غواية آدم الأولى، فلأن الله تعالى أراد أن تكون أقوى ميوله ، وأشدها استبداداً به ، وتسلطاً عليه،هو ميله للأنثى ولقد قال الله تعالى : (زين للناس حب الشهوات من النساء) فجعل هذه الشهوة أقوى شهواته ، وأحقها بالتقديم عند بيان سائر شهواته .

وعندما يبدأ إحساس الرجل بالمرأة . بوصفها أنثى ، يتغير كل شىء

فيه فتشتد وساوسه وتتنوع هواجسه ويدرك إدراكاً خفياً أن شعوراً خفياً يدفعه إلى عمل لايتبين مداه، ولاتتضح له صورته ، ولكنه لايملك معه إلا الطاعة والإذعان ، وتبدأ المرأة ، فى الخجل ، فتبعد عن الرجل . وتحمر خجلا ، إذ تراه ، ولكنها مع ذلك . تتعقبه ، وتجرى وراءه مجذوبة بدورها بقوة لاتملك لها دفعاً ، كما لاتملك منها نجاة .

ولقد بقى فى قاموس البشر من تاريخ هذه الواقعة الكبرى الكثير فالشجرة لاتزال عند الناس رمزاً إلى توالد الإنسان جيلا بعد جيل : وبروز عظمة العنق فى جميع اللغات هى جوزة آدم ، أو تفاحة آدم ، وهى عظمة لاتظهر إلا عند البلوغ .

وشعور الإنسان بالفتور وبشىء من الندم عند الفراغ من الاتصال بأنثاه : هى أثر جسمى لهذه الوظيفة الإنسانية ولكنها مختلطة ببقية ما ورثه الإنسان جيلا بعد جيل من الشعور بالندم عند الاقتراب الأول بين الرجل والمرأة والشعور بالسوأة، وبأنهاسوأة وبأنها فى حاجة إلى الستر لايبلغ أقصى مداه إلا بعد أن تهدأ ،غريزة الإنسان عندما تستوفى حاجتها .

لقد ضمن آدم بهذه المعصية ، أن يبقى على هذه الأرض سيداً يموت هو ولكن الذين سيأتون من ظهره سيتمون رسالته .

جاء فى تفسير الطبرى :

« واختلف أهل التأويل فى الحال التى خلقت لآدم زوجته ، والوقت الذى جعلت له سكناً ، فقال ابن عباس ، وابن مسعود .

فأخرج إبليس من الجنة حين لعن ، وأسكن آدم الجنة، فكان يمشى فيها وحشاً ليس له زوج يسكن إليها ، فنام نومة فاستيقظ ، وإذا عند رأسه امرأة قاعدة،خلقها الله من ضلعه فسألها : من أنت ؟ فقالت امرأة. قال ولم خلقت ؟ قالت تسكن إلى وقالت له الملائكة ينظرون مبلغ علمه : ما أسمها يا آدم ؟ قال : حواء . قالوا ولم سميت حواء . قال لأنها خلقت من شئ حى . فقال الله له : (يا آدم اسكن أنت وزوجك

الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما) .

إن الإنسان الذى استخلفه الله تعالى فى الأرض . هو آدم ، ولكن ماليث حتى خلقت منه ، زوجه ، وخلق منهما رجالا ونساء (يأيها الناس، اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء .جاء فى التفسير ، أن حواء خلقت من ضلع من اضلاع آدم ، وهو نائم ، فتم خلهقا من غير أن يحس آدم عليه السلام بذلك ، ولو ألم بذلك لم يعطف رجل على امرأته ، فلما انتبه قيل له من هذه؟ قال امرأة، قيل وما اسمها قال: حواء ، ولم سميت امرأة ، لأنها من المرء أخذت، قيل ولم سميت حواء. قال لأنها خلقت من حى . روى أن الملائكة سألته عن ذلك لتجرب علمه وأنهم قالوا له : أتحبها يا آدم قال : نعم، قالوا لحواء : أتحبينه يا حواء؟ قالت : لا ، وفى قلبها أضعاف مافى قلبه من حبه، قالوا لو صدقت امرأة فى حبها لزوجها لصدقت حواء . وقال ابن مسعود وابن عباس : لما أسكن آدم الجنة مشى فيها مستوحشاً فلما نام خلقت حواء من ضلعه القصرى من شقه الأيسر ليسكن إليها، ويأنس بها ، فلما انتبه رآها قال من أنت ؟ قالت امرأة خلقت من ضلعك لتسكن إلى ، وهو معنى قوله تعالى: (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها) قال العلماء : ولهذا كانت المرأة عوجاء ، لأنها خلقت من أعوج ، وهو الضلع . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن المرأة خلقت من ضلع — وفى رواية : وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه — لن تستقيم لك على طريقة واحدة ، فإن استمتعت بها استمتعت وبها عوج وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها وقال الشاعر :

هى الضلع العوجاء لست تقيمها ... ألا إن تقويم الضلوع انكسارها
أتجمع ضعفاً واقتداراً على الفتى ... أليس عجيباً ضعفها واقتدارها

ومن هذا الباب ، استدل العلماء على ميراث الخنثى المشكل ، إذا تساوت فيه علامات النساء والرجال من اللحية والثدى ، والمبال تتعصى الأعضاء ، فإن نقصت أضلاعه عن أضلاع المرأه أعطى نصيب رجل ، وروى ذلك عن على رضى الله عنه ـ لخلق حواء من أحد أضلاعه .

وقد مر بنا فى مقال سابق عن ابن المسيب قال : إنما أكل آدم (من الشجرة المحرمة) بعد أن سقته حواء الخمر ، فسكر ، وكان فى غير عقله ، وكذلك قال يزيد بن قسيط ، وكانا يحلفان بالله أنه ما أكل من هذه الشجرة وهو يعقل . وقد أنكر هذا ابن العربى ، وقال : وهذا فاسد نقلا وعقلا ، أما النقل فلا يصح بحال ، وقد وصف الله عزوجل خمر الجنة فقال : [لا فيها غول] وأما العقل فلأن الأنبياء بعد النبوة معصومون عما يؤدى إلى الإخلال بالفرائض . واقتحام الجرائم .

لقد خلقت حواء ، بعد خلق آدم ، فماذا كان دورها ، فى خلافة الإنسان لربه على الأرض . جاء فى التفسير أن آدم كان يمشى فى الجنة وحشاً ، ليس له زوج يسكن إليها ، وأن الله خلقهاله ، من ضلعه ، وهو نائم ، لكيلا يألم ، حتى لا يكون ألمه داعياً إلى كرهه لها أوضعف حبه على الأقل.

فأول ماقامت به حواء لآدم ، الزمالة فى هذه الأرض ، والصحبة، وأن تكون مصدراً للطمأنينة ومبعثاً للسكينة ، وهى بهذه الصحبة ، توفر التناسق بين آدم وبين الكون المحيط به ، فثنائية تكوين العالم المحيط بآدم يوائمها ثنائية حياته فى الكون السالب والموجب ، والليل والنهار ، والحرارة والبرودة ، والتمدد والانكماش ، والامتلاء والفراغ ، والحياة والموت ، والسموات والأرض ، والماء واليابس ، فلابد أن يكون فى الحياة الآدمية : الذكورة والأنوثة ، وأن تخرج منهما الأبناء والبنات ، ليكون

من وراء خلق هذا الجيل ، قيام الجديد والقديم ، والصغير والكبير ، وليكون من ثمار هذا التوالد المتنوع الذى يحمل من صفات الذكورة شيئاً ، ومن خصائص الأنوثة شيئاً ، قدرات إنسانية لاحصر لها ، تتدرج من الكمال إلى النقص ، ومن القدرة إلى العجز ، ومن الثبات إلى التذبذب فالتحول ، وهى صفات وخصائص ، لاتقف كالأضداد الواحد عكس الآخر تماماً ونقيضه ، فكل شيء فى الكون يتلاقى ويتقارب ، ثم ينفرج ويتباعد ، ليتلاقى من جديد ويتقارب . فالظلام والنور ، يتلاقيان حتى يتداخل أحدهما من الخارج ، فعند الفجر لاتدرى أيضاً نصف الحالة القائمة ، أهى ظلام يخف وينسحب . أمام نور، ينتشر ويسود. والله سبحانه وتعالى يقول : (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) وهو يقول أيضاً : (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً) وحثيثاً هنا معناه ببطء وخفاء .

فالذكر والأنثى ، يتداخلان ، والقرآن الكريم يصف علاقة النساء بالرجال بقوله : (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) .

وخلق حواء من آدم ، وإن لم يصرح القرآن بكيفيته إلا أنه نص على حصوله فقال تعالى : (اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة) (وهو الذى خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها) (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً) .

فخلق حواء من آدم ، تأكيد لوحدة البشرية ، ومع هذه الوحدة ، فهى تتكون من عناصر تختلف ولكن لا تتنافر ، ككل شيء فى الكون ، يتباين ولكنه ينسجم فى إطار فسيح واسع ، لخضوعه لناموس واحد وثابت .

ومنذ خلقت حواء والخطاب موجه من الله تعالى لها ولآدم معاً، سواء كان أمراً أو نهياً أو حكماً . كأنهما نفس واحدة: ففى سورة البقرة : (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغداً) وفى الأعراف :

(ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما) وفى طه :
(ياآدم إن هذا عدو لك ولزوجك) .

وحكاية إبليس مع آدم ، فى مختلف أدوارها ، تذكر فيها حواء ، كما يذكر فيها آدم ، ويستعمل القرآن الكريم فى روايتها صيغة المثنى ، ففى سورة البقرة قال الله تعالى : (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه) وفى سورة الأعراف : (ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة، فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ماووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين فدلاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين، قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) ثم قال فى السورة نفسها: (يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ، ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما)

وفى سورة طه استمرت حكاية معصية آدم وحواء ، بصيغة المثنى ، كما هو الحال فى سورتى البقرة والأعراف ، مع فارق واحد ، هو أن التحذير الموجه من الله تعالى ، من خطر إبليس وعداوته، وجه إلى آدم وحده، وأن وسوسة الشيطان ، كانت لآدم وحده، ثم ينتقل الكلام من صيغة المفرد الغائب إلى صيغة المثنى الغائب .

قال تعالى : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ، فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة

فتشقى ، وإن لك ألا تجوع فيها ولاتعرى ،وإنك لاتظمأ فيها ولا تضحى فوسوس إليهالشيطان قال ياآدمهل أدلكعلىشجرةالخلد وملك لايبلى، فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفانعليهما منورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) .

فالقرآن الكريم صريحة آياته،فى نفى ما ذهبإليهبعضالمفسرين ، من تحمل حواء مسئولية السقوط فى الغواية ، ومفارقة المعصية ، ومن أن إبليس ، استضعفها ، وبدت له فريسة أضعف حولا ، وأقل حيلة من آدم ، فلما استمالها إليه،استمالت هى بدورها آدم ، وقد أرادت أن تجرأه على المعصية، وتشجعه على الاستماع إلى وسوسة الشيطان ، فأكلت من الشجرة فلما لم يصبها شىء ، أكل آدم فنالهما معاً العقاب فى الحال ، فسقط عنهما ما كان يسترهما وبدت لهما سوءاتهما .

وفى هذا المعنى يقول القرطبى : قال إن أن من أكل من الشجرة حواء بإغواء إبليس إياها وإن أول كلامه كان معها لأنها وسواس المخنة ، وهى أول فتنة دخلت على الرجال من النساء،فقال أى إبليس : ما منعكما من هذه الشجرة إلا أنها شجرة الخلد لأنه علم منهما أنهما كانا يحبان الخلد فأتاهما من حيث أحبا (وحبك الشىء يعمى ويصم) — فلما قالت حواء لآدم أنكر عليها وذكر العهد ، فألح على حواء وألحت حواء على آدم ، إلى أن قالت: أنا آكل قبلك حتى إن أصابنى شىء سلمت أنت ، فأكلت فلم يضرها فأتت آدم فقالت : كل فإنى قد أكلت فلم يضرنى ، فأكل فبدت لهما سوءاتهما وحصلا فى حكم الذنب لقوله تعالى : (ولا تقربا هذه الشجرة) فجمعهما فى النهى . ولذلك لم تنزل بها العقوبة حتى وجد المنهى عنه منهما جميعاً وخفيت على آدم هذه المسألة ، ولهذا قال بعض العلماء إن من قال لزوجيتيه أو لأمتيه: إن دخلتما الدار فأنتما طالقتان أوحرتان ، أن الطلاق والعتق ، لايقع بدخول إحداهما » .

فالقائلون بهذا وما يشبهه من المفسرين ، يريدون أن يجعلوا حواء

هى أداة الشيطان، ووسيلته فى الغواية ، وصرف الرجال عن طريق الهداية ؛ وهو رأى كما ترى ، مخالف تماماً لصريح نص القرآن الذى يجعل الوزر كله على آدم ، بل إن القرآن ، لا يحكى قصة الخروج من الجنة ، على الوجه الذى يخص حواء بالخطيئة، والسبق إلى الميل إليها، والرغبة فى إتمامها، والإلحاح على آدم بتحسينها، وإدخال الطمأنينة إلى قلبه، من حيث انعدام الخطر منها ، بل إنه تعالى ، يخص آدم وحده بقوله تعالى: (وعصى آدم ربه فغوى) كما قال تعالى (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً).

وقد مر بنا قول ابن المسيب الذى ينسب إلى حواء ، أنها حين عجزت عن أن تسكر زوجها ببيانها وحديثها وحجتها أسكرته مادياً ، فسقته الخمر ، حتى غاب عن صوابه . ومرد هذا كله ، وما يشبهه من الاتجاهات المنافيه لروح الإسلام ، الحريصة على النزول بالمرأة من درجة المشاركة فى الحياة الزوجية ، إلى حضيض الغواية والفساد ، هو الإسرائيليات من جهة ، وما دخل على حياة العرب من مخالطة الأتراك والديلم وأشباههم بعد عصر الفتوحات ، فبعض هذه الشعوب ، كانت تنظر إلى المرأة نظرتها إلى الشيطان الذى يحبب للرجال لذات البدن ، ويصرفهم عن الفضائل ، ويصدهم عن واجبات الجهاد وذكر الله ، وإقامة الدين ، وهو العصر الذى نشأ فيه الفسق والزندقة والذى نحيت فيه المرأة عن المجتمع الإسلامى ، وأصبح الحجاب ضرباً من السجن والاعتقال . وكان ذلك كله ، بداية لتدهور المسلمين كلهم ، رجالا ونساء .

وقد نقلنا فى المقال السابق ، ما جاء فى سفر التكوين من التوراة، عن مشهد الغواية ، والسقوط فى الخطيئة ، ومن مطالعة هذا النص فى التوراة ، يبدو أنه الأصل المباشر لما تسرب إلى كتب التفسير ، ونعيد بعضه لنسهل متابعة الكلام ، جاء فى التوراة :

قالت الحية : أحقاً قال الله لا تأكلان من كل شجر الجنة ، فقالت المرأة للحية من ثمر شجر الجنة نأكل، وأما ثمرة الشجرة التى فى وسط الجنة

فقال الله لا تأكلان ولا تمساها لئلا تموتا فقالت الحية للمرأة ، لن تموتا ، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح عيونكما كالله، عارفين الخير والشر ، فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل ، وأنها بهجة للعيون ، وأنها الشجرة الشهية فانظرى ، فأخذت من ثمارها وأعطت ثمارها رجلها أيضاً فأكل منها فانفتحت عيونهما وعلما أنهما عريانان » .

ويمكنك أن ترى أثر هذا النص ، فيما ينقله بعض المفسرين عن وهب ابن منبه من أهل الكتاب الذين دخلوا فى الإسلام ، ودرجوا على أن يفسروا القرآن ، فى ضوء ما يعرفونه من التوارة والإنجيل الموجودين بين أيديهما الآن ، مما جاء فى تفسير القرطبى :

« عن وهب بن منبه ، دخل (إبليس) الجنة فى فم الحية ، وهى ذات أربع ، من أحسن دابة خلقها الله تعالى ، بعد أن عرض نفسه على كثير من الحيوان فلم يدخله إلا الحية ،فلما دخلت به الجنة ،خرج من جوفها إبليس فأخذ من الشجرة التى نهى الله آدم وزوجته عنها فجاء بها إلى حواء فقال : انظرى إلى هذه الشجرة ، ما أطيب ريحها وأطيب طعمها وأحسن لونها ! فلم يزل يغويها حتى أخذتها حواء فأكلتها . ثم أغوى آدم ، وقلت له حواء : كل فإنى أكلت فلم يضرنى ، فأكل منها فبدت لهما سوآتهما وحصلا فى حكم الذنب ، فدخل آدم فى جوف الشجرة فناداه ربه : أين أنت ؟ فقال أنا هنا يارب ، قال ألا تخرج قال أستحى منك يارب » والفقرة الأخيرة ، منقولة بحروفها من سفر التكوين ، فقد جاء فيه : « سمعا (آدم وحواء) صوت الرب الإله ماشيا عند هبوب ريح النهار فاختفى آدم وامرأته من وجه الرب الإاله فى وسط الشجرة ، فنادى الرب الإله ، آدم من أعلمك أنك عريان هل أكلت من الشجرة ، التى أوصيتك ألا تأكل منها ، قال آدم ، المرأة التى جعلتها معى هى التى أعطنى من هذه الشجرة » .

فالقرآن لم يجعل آدم ضحية لخبث الحية وحواء ، وائتمارهما به .

ولم يصوره مخلوقاً عظيم الغفلة سهل القياد ، يسحب من خطامه ، وهو لا يملك من أمره شيئاً ، وليست حواء فى القرآن ، أصل الخطيئة ومصدرها ، بل هى شريكة حياته ، ومصدر الطمأنينة له : قال الله تعالى : هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها) الأعراف . كما قال : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها) .

فالإسلام تنزه عن أن يعلق الخطيئة الأولى فى عنق « حواء » ، ثم يجعلها أماً لكل البشر ، بل إنه تنزه عن أن يجعل الخطيئة الأولى ، عبئاً ، يثقل ضمير أبناء آدم وحواء ، ويطاردهما إلى آخر العمر ، إذ أنه تاب على آدم ، وغفر له خطيئته ، وكفر عن ذنبه ، قال الله تعالى : (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) وقد ارتفع إصر الخطيئة عن نفس آدم ، فبدأ حياة جديدة ، له أن يحقق فيها الخير ، وأن ينجو من الشر ، مستعيناً بالله إزاء غواية الشيطان ووساوسه ، كما أن ذرية آدم ضمن لها الأمن ، والتسامى على الفزع حسبما وعد الله به بقوله : (فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

وقد تعزز هذا الوعد بما جاء فى القرآن من (أن الله يغفر الذنوب جميعاً) و (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) .

فآدم وحواء لم تلتصق بهما المعصية ، ولم يورثاها لأولادهما ، وأطلقت لمن يأتى من هؤلاء الأولاد ، أى لذراريهم حرية العمل ، بلا قيد من ذنب سابق ، لينهضوا بعبء الخلافة ، أطيب ما يكونون نفساً ، وأقوى ما يكونون ثقة برحمة الله ورضوانه .

* * *

هذه هى عناصر خلافة الإنسان لله فى أرضه . وهى فى جملة القول تكليف من الله تعالى لآدم ومن جاء بعده من أبنائه وبناته ، القيام بما رسمه لهذه الدنيا من قوانين وقواعد ومافرضه من أعباء وواجبات ، بقصدين أولهما وأعظمهما أن يتسامى الإنسان على نفسه ، وأن يدرج فى مدارج

الكمال الروحي والعقلي والبدني ، وأن يزداد علماً ومعرفة ويزداد فى هذا الكون تحكماً وتوجيهاً ليستخرج منه أعظم الخير ، وليملأه عمرانا ، ويقيم فيه نظاماً محكما وإدارة نافعة وليجعل من الناس أمة واحدة ، تتوثق خلائقها بالحب . وتترابط وشائجها بالتعاون ، وتزدان حياتها بالأمن والطمأنينة والسكينة والدعة ، وليبطل فيها العنف ، وينقطع سفك الدماء . وتتسع آفاق النفس الإنسانية ، فتحيط بما فى هذا الكون العظيم من جمال وإبداع ودقة ، ولتمتد من هذا الجمال والإبداع والدقة لنفسها ولنظام حياتها جمالا وإبداعاً ودقة ، وبذلك يصبح لحياة الناس معنى ويتحقق قول الله تعالى (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) فهذا الكون لم يخلق عبثاً وحياة الإنسان فيه ليست عبثاً ، ولا لهواً ولا لعباً ، وإن ما يبدو فيها من اضطراب وما يشوبها من آلام وأحزان ، ليس إلا نتيجة التراخي فى البحث عن أهداف الحياة الإنسانية ، كما قدرها وأمر بها الله تعالى ، وأن الاهتداء إلى هذه الأهداف ، وترسم المثل الأعلى ، الذى يرفعه الله للناس أجمعين فى المشارق والمغارب ، هو الذى ينفى عن حياة البشر ، العبث والتناقض ، ويضفى على نشاطهم المعنى والقيمة ويصرفهم عن غايات حقيرة تبدو لهم عظيمة ، ويقى علمهم وفنهم وحضارتهم ، من الجرى وراء القوة المادية وحدها ، والإنتاج الذى لا يشبع جائعاً ولا يهدى نفساً ، ولا يريح قلباً ، ولا يرأب صدعاً ولا يجمع شملا ، ولا يمنع خطراً وإنما يزداد من الصراع بين الأقوياء حدة وضراوة ليسود أحدهم على الآخرين ويركبهم بالذل والمهانة ، ويخيفهم بالصاروخ والمدفع ، وهو يحسب أنه بهذا يحقق لنفسه الأمن والعظمة فلا يكتب لنفسه وللآخرين إلا الهلاك والدمار والشقاء .

* * *

وخلافة الإنسان ، هى فكرة تفرد بها الإسلام ، فلم تدع إليها عقيدة سواه ، ففى الإسلام مبادئ وقواعد . تضمنتها الأديان والعقائد

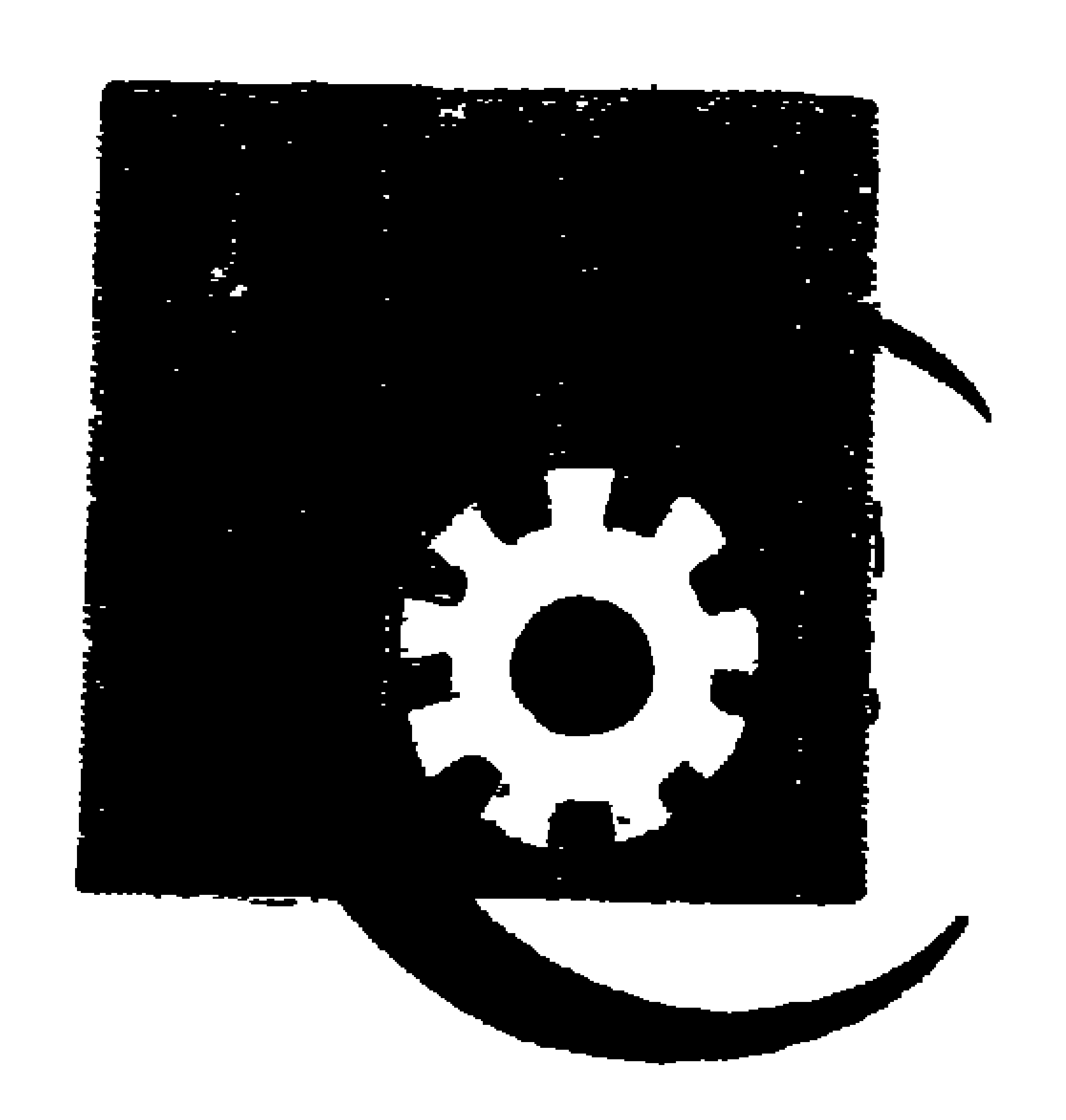
الأخرى ، كالبعث والحساب والعقاب والنبوة ، ووحدة البشر ، والمساواة بين الناس والعدل ، ولكن مبدأ خلافة الإنسان لله ، هي عقيدة تكشف عن إنسانية الإسلام الشاملة ، وعن نظرته المحيطة للكون ، ولعلاقة الإنسان به ، ورفع مقام الإنسان إلى أعلى عليين ، والمناداة به سيداً لهذا الكون لايطغى ولايبطش ولا يستأثر بالخير ، بل ليكون خيراً عاماً لكل ما فى هذا الكون من نبات وجماد وليتم بين مخلوقات الله، فى ظل حكومة الإنسان ، ترابط واتساق ، يجعله جمالا كاملا ، وكمالا دائما وليفتح أمام الإنسان وأبنائه طريق السمو والارتقاء إلى غير حد ، بالحب والعلم والمعرفة، والإيمان بالخير والاستزادة منه ، وتوسيع معناه وتعميق مدلوله وتنويع وسائله وطرائقه ، وتعديد أهدافه وغاياته .

والمسلمون مدعوون للتأمل فى معانى هذا المبدأ الكبير من مبادئ دينهم ، واستمداد القوة والقدرة منه ليقودوا سواهم إلى الخير الذى ضلوا عن سبيله ، وحرموا من تفيؤ ظلاله الوارفة ، فذهب جهدهم قتالا ومضى سعيهم تخريباً وتدميراً ، وعجزوا عن أن يوفروا لجائعهم طعاما ، ولخائفهم أمنا ، ولضعيفهم حماية ، مع أنهم حققوا من القوة ، وأنتجوا من الثروة ووصلوا إلى العلم إلى مالم يظفر جيل سابق من أجيال البشرية منذ دبت أقدام آدم على هذه الأرض .

فلا تزال عقيدة « خلافة الإنسان » فى حاجة إلى من يؤمن بها ، ويدعو لها ويعمل لتحقيقها ، والمسلمون أولى الناس بأداء هذا الواجب والنهوض بهذه الرسالة .

وخلافة الإنسان ، ترتكز أول ماترتكز على المبدأ العام « ولقد كرمنا بنى آدم » فهى لا تؤدى إلى غايتها إلا إذا حصل بنو آدم على ما يستحقونه من تكريم ورعاية تشمل العقل والبدن، والفكر والوجدان، وتتناول الطعام والمسكن ، والخلوة والعقيدة ، والذوق ؛ فكل وسائل العنف ، وكل أسباب الكبت، وكل صور الاضطهاد والإرهاق والاستعلاء المادية والأدبية الظاهرة

والخفية التي تلجأ إليها الدول أو مجموعات الدول ، أو الأنظمة الدولية ، أو تكتلات الأفراد ، أو القابضون على توحيد الآراء ، أو تكييف الأذواق ، أو نشر المعلومات والحقائق ، هي عوائق في طريق خلافة الإنسان ، وموانع عن أن تؤتي هذه الخلافة أكلها ، وأن تثمر ثمارها فلابد من سعي مضن ونشاط متصل ، وإيمان عميق ، بها ، وبكل معانيها لينعم الإنسان بالأمن والدعة ، وبالسرور والسكينة وبالقوة والاكتفاء في ظلها .



الإعجاز

ذهب بعض المتأخرين من أن وجه إعجاز القرآن الكريم، ما تضمنه من المزايا الظاهرة، والبدائع الرائعة، فى الفواتح والمقاصد والخواتيم، فى كل سورة وفى مبادئ الآيات وفواصلها والمعول على ثلاث خواص :

١ ـ الفصاحة فى ألفاظه كأنه السلسال .

٢ ـ البلاغة فى المعانى بالإضافة إلى مضرب كل مثل، ومساق كل قصة وخبر فى الأوامر والنواهى، وأنواع الوعيد، ومحاسن المواعظ والأمثال وغيرهما مما اشتمل عليه، فإنها مسوقة على أبلغ سياق .

٣ ـ صورة النظم . فإن كل ما ذكره من هذه العلوم مسوق على أتم نظام وأحسنه وأكمله .

وقد أورد المرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعى، هذه الخواص، ثم لم يعجبه هذا الكلام كله فقال : «ومحصل هذا المذهب أن الإعجاز فى القرآن كله، لأن القرآن كله معجز، وهو معجز لأنه معجز» . ثم قال، إن هذا القول أشبه شئ بشعر ذلك الشاعر الظريف الذى أراد أن يصف قوما حولهم ماء، فقال :

كأننا والماء من حولنا قوم جلوس حولهم ماء

ثم طرح نظرية له فى الإعجاز خلاصتها. أن القرآن معجز بالمعنى

للذي يفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه ،حين ينفى الامكان بالعجز عن غير الممكن ،فهو أمر لا تبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغاً ،وليس إلى ذلك مأتى ولا جهة ، وإنما هو أثر كغيره من الآثار الإلهية يشاركها فى إعجاز الصفة ، وهيئة الوضع ،وينفرد عنها بأن له مادة من الألفاظ».

وهو كما ترى رأى يمكن تلخيصه على طريقة الأستاذ مصطفى الرافعى نفسه ، بأن القرآن معجز ، لأنه معجز ، أى لأنه من صنع الله، وصنع الله لا يتأتى لبشر محاكاته ، فضلا عن الإتيان بمثله. فهذا القول مصادرة على المطلوب ، لأن محاولة إثبات إعجاز القرآن ، الغاية منها إثبات أنه من عند الله ، فإذا بدأنا القول بأنه من عند الله ، وكان فانا [نكون قد قلنا ما قاله الشاعر الظريف الذى تهكم عليه الرافعى يجب أن [نتنهى بهذا ، بعد أن نورد ، ما يؤدى إلى هذا الختام ويرتقى إليه وقد [قال الرافعى نعم وهو يعلق على كلام ابن حزم فى كتابه (الفصل): «وهل يراد من إثبات إعجاز القرآن إلا إثبات أنه كلام الله تعالى».

بيد أن الرافعى ، ترسل فى بيان رأيه هذا ، فقال كلاماً كثيراً لا يقف عند إعجاز القرآن الكريم وأسراره ، وإنما تناول أثر القرآن فى المسلمين ، وفيما أدى إلى عقد الصلة بينهم وبين هذا الكتاب ، وفيما تلا ذلك ، من نشوء نهضتهم ، وتعاظم قوتهم ، وهو كلام يتصل بحال المسلمين اليوم،وبما يمكن أن يؤول إليه أمرهم فى المستقبل القريب والبعيد معاً . ولما كان المرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعى ، كاتباً معاصراً يتحدث فى هذا الشأن ، ونظره على ما يجرى فى أمم المسلمين اليوم ، أى يوم كتب ما كتب ، فإن التأمل فيه ، واستنباط معانيه ، وفهم مراميه مما يجب ، لأنه يخرج عن الدراسة اللغوية أو التاريخية ، كما يخرج عن المفاضلة بين المذاهب فى موضوع الإعجاز ، إلى الرأى الصحيح فى أثر القرآن فى نشأة الأمة الإسلامية ، ودوره الحقيقى فى بعث نهضتها ،ورأب صدعها ، ولم شملها، وتجديد قواها، وتسديد خطاها .

ومن ثم ، فنحن سننقل فقرات مما قاله المرحوم الرافعى ، ثم نوضح مقصده ، ثم نبقى التعليق عليه جملة فى آخر الأمر .

بدأ حديثه فقال ما ننقله بشىء من التصرف :

« كل من يبحث فى تاريخ العرب وآدابهم ، وينفذ إلى ذلك حيث تنفذه به الفطر فإنه يرى كل ما سبق القرآن من أمر الكلام العربى وتاريخه إنما كان توطيداً له ، وتهيئة لظهوره ، وليس فى الأرض أمة كانت تجربتها لغوية غير العرب ، فما كان فيهم كالبيان آنق منظراً ، وأبدع مظهراً ، ولا كان لهم كذلك البيان ، أزكى فى أرضهم فرعاً ، وأقوم فى سمائهم شرعاً ، وهذا موضوع عجيب للتأمل،وأى شىء أعجب من نشأة لغوية ، وتنتهى بمعجزة لغوية . ثم يكون الدين والعلم والسياسة وسائر مقومات الأمة ، مما تنطوى عليه هذه المعجزة » .

ومعنى هذا الكلام ، أن العرب ، أمة بيان لم يكن لديهم شىء يعشقونه ، ويبذلون فيه الجهد ، ويفرغون من أجله الطاقة ، غيره، فهم يحبون الكلام الجيد ، يؤلفونه ويسمعونه ، ويتنافسون فى حلباته ويذهبون فى تجويده إلى أقصى الغاية . وهم مروا ، قبل أن يسمعوا القرآن ويدعوا إلى الإيمان بما فيه . والعمل بأحكامه ونواهيه ، فى أدوار من الترقى اللغوى ، حتى إذا وصلوا إلى أعظم مراحلهم ، جاء القرآن ، فكان معجزة لغوية لأمة رفعت اللغة إلى أعلى سواء . وكان ذلك عجباً من العجب وأعجب منه أن هذه الأمة عظمت فى شئون الدين والحكم والسياسة ، وكانت المعجزة اللغوية منطوية على أسباب هذه العظمة .

وقد ترى مع الأستاذ الرافعى ، أن هنا ، موطناً للعجب ، ولكننى لا أراه كذلك إذا أخذنا بمقدماته إذ أن هذه النتيجة هى وحدها التى تصح ، ما دام العرب ، قد وقفوا جهدهم على اللغة ، فاستولت على هواهم ، واستبدت بكل قواهم ، فما وجه الغرابة فى أن تكون المعجزة التى ترسل إليهم من نوع ما أحسنوه . وأن تكون هذه المعجزة ، المتفقة مع

طبائعهم وفطرتهم ، هى مصدر إلهام يبعث فيهم ما يعينهم على إقامة دولة عظيمة ، وسن أسلوب للحكم محكم ، وحافز لطلب العلم قوى ، وداع إلى عقيدة ودين قويمين ، متصل مستمر .

على أن الذى يدعوا إلى العجب حقاً ما قاله الأستاذ من :

(أنه — أى القرآن الكريم — أنشأهم على الكبر . ولم يجر معهم على المألوف من مذاهب تربية الأمم،ولا هو كان طبقا لروح الأخلاق التاريخية فيهم التى تظهرها العادات،على كل دين شريعة وسياسة،إذ كانت ميراث الدهر . فما عدا أن سفه أحلامهم ونكس أصنامهم وأزرى عليهم وعلى آبائهم الأولين ، وقام على رءوسهم بالتقريع والتأنيب ثم ذهب بطريقة لهم كانت معروفة،وعادات كانت مألوفة،وكأنهم بعد ذلك على آدابه نشأوا وهم أحداث).

ولعمرك أن هذا عجيب ،وليس أعجب منه ،إلا أن أول جيل جاء من هؤلاء القوم كان هو الذى بسط الإسلام على العالم المعمور سيادته ورفع فوقه رايته،وهذا الذى قرره الأستاذ مصطفى الرافعى ،صحيح حقاً،فالقرآن جاء ليقوض كل ما كان العرب يفخرون به ويذودون عنه ،وكشف لهم عن بطلانه وخلوه من المعنى،وحضهم لا على هجره فحسب ، بل على الكفر به،والتبرؤ منه ، والتوبة من العودة إليه ، وندد بإيمانهم القديم،وهزأ بمنهجهم الموروث وقال عنه إنه ذميم وعقيم . فلما صفت له قلوبهم أنشأهم نشأة جديدة ، فكأنهم قوم آخرون يخالفون الأمة التى سمعت القرآن لأول مرة فى العادات والطباع ، وفى التقاليد وأساليب الحياة ، وطرائق التفكير ، فاستحسنوا ما كرهوه ، من الوساوس والهواجس .

ولكن الرافعى رحمه الله — أسرع إلى نتيجة،ندع لك أن تتأمل فيها قال:

«لا جرم أن فى ذلك سراً من أسرار الفطرة ، فلولا أن أكبر الأمر عندهم كان الفصاحة وأساليبها ، حتى صارت هذه الأساليب كأنها أعصاب نفسية فى أذهانهم تنبعث فيها الإرادة بأخلاق من معانى الكلام : ولولا أن القرآن الكريم قد ملك سر هذه الفصاحة وجاءهم منها بما لا يقبل

لهم برده بما يشبه أساليب الاستهواء فى علم النفس ، فاستبد بإرادتهم وغلب على طباعهم،لولا ذلك لما صار أمر القرآن إلى أكثر مما ينتهى إليه أمر كل كتاب فى الأرض،بل لما كان له فى أولئك العرب لغته لأنهم قوم أميون.

« وما جاءهم القرآن بشيء لا يفهمونه ، ولا كان هذا القرآن كتاب سياسة ولا نظام دولة ، ولو كان أمراً من ذلك ما حفلوا به .

« فلو أن هذا القرآن غير فصيح ، أو كانت فصاحته غير معجزة فى أساليبها ، التى ألقيت إليهم ، لما نال منهم على الدهر منالا » .

ومعنى هذا الكلام أن القرآن كتاب فصيح جاء لأمة فصيحة ، فحصل بينهما من التوافق ،ما جعله كتاب هذه الأمة، الذى يمكن أن يحركها ويلهمها ويبعثها على العمل ، ويدفعها إلى التطور والتسامى وكانت هى أمة هذا الكتاب ، لأنها أقدر الأمم على معرفة قدره والوقوف على فضله ، والإحساس بدقائق أسراره :

وقد رأى الرافعى أن من الواجب عليه ، أن يبين كيف تهيأت أمة العرب لهذه الفصاحة ، التى ذهبت فيها إلى أبعد الآماد ، ووصلت من درجاتها إلى أعلى الطبقات ، فقال إن لطبيعة الجزيرة العربية دخلا فى هذا الشأن ، ففى المناطق الآمنة ، تهدأ النفوس ويهدأمعها خيالها . أما فى الجهات ذات الطبيعة المتخوفة ، فإن أهلها يكونون أكثر الناس « استسلامـًا » للوهم والتخيل ، وإلى الخوف من كل شىء تكون فيه روح الطبيعة كما زعم العرب من البيات مع الغيلان وتزوج السعالى ومجاوبة ، الهواتف ،والروغان عن الحن إلى الجن ، مع الحرص على الماضى لأنه غيب الطبيعة التى يقدسونها فكان من أخلاق العرب ، ما هو مشهور عنهم من التفاخر بالآباء والأجداد ، والذهاب مع الوهم كل مذهب وعدم المبالاة إلا بما يلحقهم بآبائهم ويجعلهم فى عداد الماضين . فجاء القرآن يسفه تلك الطباع منهم ، ويحول بينهم وبين ذلك الماضى ويصرفهم إلى العمل . فكيف يمكن أن يكون هذا القرآن مع ذلك كله بما يطابق

أرض العرب فى طبيعتها وهى ما علمت ؟ وكيف يمكن أن يكون ذلك من صنعة رجل قد نشأ فيهم ؟ » .

عاد الرافعى بعده هذه التساؤلات العديدة ، إلى ما سبق أن قرره ، أن هذه العجائب الخارقة للمألوف ، والخارجة عن المعر وف ، مردها كلها انعتاق العرب بالفصاحة ، فهى وحدها القادرة على أن تخرجهم من التوهم والتخيل إلى العمل المتصل بالواقع القائم عل الملموس والمحسوس ، وتنقلهم من الماضى إلى الحاضر ، وتصرفهم عن عبادة الآباء والأجداد ، وتوقيرهم ، والفناء فيهم ، إلى العناية بالأبناء والحفدة فقال :

وهذا أمر لو ذهبت تتلمسه فى تاريخ الأرض كلها ما رأيت أسبابه الفطرية فى غير أو لئك العرب ، ولا رأيت تحقيقه فى العرب إلا من ناحية القرآن وإعجازه ، بنظمه وأساليبه وافتنانه على هذه الوجوه المعجزة ، التى أقل ما توصف به أنها السحر بل السحر بعضها . ورأى الرافعى ، أن هذا القول فى حاجة إلى مزيد من البسط والشرح ، مما ننقل عنه فى هذا الموضع .

وذلك فيما نرى إنما هو وجه الحكمة فى نشأة هذا الدين عربياً ، واختصاص العرب بالقرآن ، دون غيرهم من الأمم ، وأفراد قريش بذلك دون غيرها من العرب ، ومن يقرأ صدر التاريخ فى الإسلام ويعتبر ، حوادثه ، ويتدبر آثار القرآن فى قبائل العرب ، يرى أن شدة الإيمان كانت عند شدة الفصاحة ، وأن خلوص الضمائر كان يتبع خلوص اللغة وأن القائمين بهذا الدين ، والذين أفاضوه وصرفوا إليه جمهور العرب وقاتلوهم عليه ، وجمعوا ألفتهم وقوموا أودهم إنما كانوا أهل ، الفصاحة الخالصة من قريش إلى سرة البادية ، وأن الفتن إنما استطارت فى الجزيرة استطارة الحريق فيمن وراء هؤلاء إلى أطراف اليمن فكانوا ، قوماً مغلوبين منقوصين ، وما كان ضعف اعتقادهم إلا فى وزن الضعف من لغتهم ، وقد أسلفنا فى غير هذا الموضع أن غربة الدين ما تزال تتبع غربة العربية » .

لقد ملكت اللغة العربية ، على كاتب العربية الكبير ، فى النصف الأول من القرن العشرين ، هواه ، واستبدت بكل نفسه ، وكل عقله حتى استحال كل شيء عنده إلى العربية وفصاحتها ، وفصاحة الناطقين بها ، والمتلقين لكل ما يصدر عن رجالها ، ولو كان ديناً منزلا من السماء وكان الداعى إليه ، نبيا من رب العالمين . فالإسلام دخل إلى قلوب العرب من باب الفصاحة ، واشتدت به ايمانهم ، بقدر فصاحتهم ونشروه أول ما أنتشر ، فى مناطق الفصاحة العربية ، وفى مواقع الفصحاء ، والذين بذلوا فى سبيله المهج ، وأسالوا من أجله الدماء هم الفصحاء . وإذا كان الدين ينحسر عن القلوب ، وإذا كانت دولته ، ينقضها أعداء الدين ، فلأن العربية ذاتها ، تنحسر عن الألسن ، وتزاحمها اللغات الأخرى ، وتتداخل فيها الأساليب الهجينة ، ويصبح من الصعب على المسلم أن يفهم نصاً عربياً ، فيصعب عليه ، أن يعى كلماتها وهكذا دواليك

ولا شك أنه كان فى حاجة لأن يشرح لنا ، أمرين ، كيف كان الخصوم للإسلام ، هم أعظم رجال قريش ، وهى فى رأيه ، قمة الفصاحة العربية وكيف أسرع إلى الإيمان بمحمد ورسالته ، الدين الذى جاء به ، أبو بكر وعثمان ، وعبد الرحمن وطلحة وعلى ، وهؤلاء جميعاً لم يكونوا ، صماً ، دخلوا الدين الجديد ، واطمأنت قلوبهم إليه ، فكانوا أعظم رجاله لم يكن قد نزل منه بعد ، ما تبدو منه فصاحته ، حتى تغلبهم على أنفسهم ، وتقودهم ، لا يملكون مقاومة ولا تأبياً ، ولا حتى ترددا والأمر عندنا ، يختلف كثيراً ، مما رآه الأستاذ مصطفى صادق الرافعى ، وإن كان لا ينقص فى قليل أو كثيراً من فصاحة القرآن ، ومن حب العرب لفصاحة القول ، والإكبار من شأن القائل الفصيح شاعراً أو خطيباً أو متحدثاً ، لأنه كان — بسبب ظروفهم الحضارية والمعيشة — رياضتهم ومتعتهم ومجال تنافسهم وسبيلهم إلى التفاخر والمباهاة ، ووسيلتهم إلى إهاجة الحمية ، وإثاره العصبية ، والتحضير للمعارك ، والإشادة

بالفرسان والمقاتلين عند النفير ، والتماس المعاذير عند الهزيمة ، ولم يكن يصرفهم عن هذا ضرب من النشاط الإنسانى الذى هو الإبداع اللسانى فن آخر فلا نحت ولا رسم ولا بناء ولا معمار ولا تمثيل ولا رقص وهو بعد ذلك أدنى الفنون كلها وأقربها إلى عيشة البداوة وأيسرها على المبتدئين على سلم الحضارة ولاشك كما نبين أن القرآن علم الإسلام استظل به المجاهدون الأوائل وكان زادهم وعدتهم فى الدعوة والجدل ومصدر إلهامهم فى كل فرع من فروع الحياة وفى كل ضرب من ضروب المعرفة ، ولكن كان إلى جانب القرآن وفصاحته ، وبلوغه أقصى الغايات فى الأساليب ، والألفاظ أيسر أحكام الدين ، وشخصية الرسول ، وصلابة الرجال ، مما سنتناوله فى موضع آخر من الكلام .

وقد ختم الرافعى ، رحمه الله ، هذا الجانب من كتابه ، ببيان أسماء الذين سول لهم شيطانهم أن يدعوا النبوة ، ويحاكوا القرآن ، فذكر مسيلمة الكذاب الذى تنبأ باليمامة فى بنى حنيفة ، وقد استفحل شأنه ، وعبهلة بن كعب الذى يقال له أسود العنسى ، والملقب بذى الحمار ، لأنه كان يقول يأتينى ذو حمار . وقد قتل قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بيوم وليلة ، وطليحة بن خويلد الأسدى ، وكان من أشجع العرب ، يعد بألف فارس ، وقد عظم أمره بعد أن توفى رسول الله عليه الصلاة والسلام . وسجاح بنت الحارث بن سويد التميمية وقد عظم أمرها كذلك حتى خافها مسيلمة ثم تصالحا فاتبعته وتزوجته ، ثم أسلمت وحسن إسلامها . أما النضر بن الحارث فلم يدع النبوة ولا الوحى ، ولكنه لفق شيئاً من أخبار الفرس وملوك العجم ،وابن المقفع الذين روج بعض مؤرخى الأدب ، أنه اشتغل بمعارضة القرآن مدة ثم مزق ما كتب وأخفاه ويعتقد الكثيرون أن هذا الذى روج ، كان افتراء على ابن المقفع ، لأنه بفضل فصاحته وبلاغته ، وعلمه بالعربية ، ورجاحة عقله كان أعقل من أن يحاول محاكاة القرآن ، حتى لو صدق ما نسب إليه من رقة العقيدة ثم

أبو الحسين أحمد بن يحيى المعروف (بابن الراوندى) وهو أيضاً لم يؤلف قرآناً ، وإنما ناقش من تحجج بعجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن ، قائلا أو لو ادعى بطليموس أو إقليدس ، أنهما نبيان مرسلان لأن ما أتيانه من نظريات يعجز غيرهما عن الإتيان به أو بمثله أكان ذلك دليلا صحيحاً على نبوتهما وقد جاء فى بعض الكتب أن ابن الراوندى ألف كتاباً فى محاكاة القرآن وأن كل كتبه كالفريد ، والزمردة ، وقضيب الذهب والمرجان، وضعت لا لمحاكاة القرآن وإتيان إمكان الإتيان بمثله ، وإنما ألفها ، لإنكار أن القرآن معجزة ، وأنه دليل على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام .

والكلام عمن حاول محاكاة القرآن وتقليده ، أو من ادعى النبوة ، وأيد دعواه بكلام على نسق القرآن ، لا يكمل إلا بالحديث عن شاعرى العربية العظيمين : أبى الطيب المتنبى ، وأبى العلاء المعرى .

أما المتنبي فقد نسبوا إليه قوله ، فى محاكاة سور القرآن الكريم .

« والنجم السيار ، والفلك الدوار ، والليل والنهار ، إن الكافر لفى أخطار ، امض على سنتك ، واقف أثر من قبلك من المرسلين ، فإن الله قامع بك زيغ من ألحد فى دينه ، وضل عن سبيله » .

وهو كلام ، لا تعلوه مسحة من رواء بيان الشاعر الأكبر ، ولا تتفق مع جلال شعره ، ولا لطف ما عرف من نثره ، وإن كان نثره دون شعره بكثير .

كما نسب إلى المعرى قوله : أقسم بخالق الخيل ، والريح الهابة بليل ، والشرق مطلع سهيل ، إن الكافر لطويل الويل ، وإن العمر لمكفوف الذيل ، تعد مدارج السيل ، وطالع التوبة من قبيل ، تنج وما أخالك بناج » .

وينقلون هذا القول من كتاب المعرى الفصول والغايات ، ويقول الرافعى ، إن أبا العلاء الذى ينسبون إليه هذا الهراء ، هو الذى رد على

(ابن الراوندى) فى رسالة الغفران ، فقد جاء فى هذه الرسالة وأجمع ملحد ومهتدى ، وناكب عن المحجة ومقتدى ، أن هذا الكتاب ، الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم كتاب بهر بالإعجاز ، ولقى عدوه بالإرجاز ، وما حذى على مثال ، ولا أشبه غريب الأمثال ، ما هو بالقضية الموزونة ، ولا فى الرجز فى سهله وحزونه ، ولا شاكل خطابه العرب ، ولا سجع الكهانة ذوى الأرب وإن الآية منه أو بعض الآية لتعترض فى أفصح كلم ، يقدر عليه المخلوقون ، فتكون فيه كالشهاب المتلالىء ، فى جنح غسق ، والزهرة البادية فى جلوب ذات نسق » وقد لا نستبعد أن ترد على نفس شاعر فيلسوف ، سيئ الظن بالناس ، وكاره للدنيا ، ومتململ مما نكبه به الدهر ، إذ سلبه نور عينيه ، فلزم داره ، وسمى نفسه رهين المحبسين ، البيت والعمى ، لا نستبعد أن رجلا هذا شأنه ، أن ترد على نفسه ، الهواجس ، والوساوس ، وألا تكون عقيدته كعقيدة سواه ، ممن رزقوا ، خيالا أقرب مدى ، وطيفاً أخف ضراوة ، وظروف حياة ، أقل عطفاً ، وأنه قد يودع شكوكه ، شعره ونثره ، وشيئاً مما يستودعه القراطيس لخاصة نفسه ، ويعرف العربية ، ومن ثم فهو أكبر من أن يورط نفسه فى هذه المحاولات الصغيرة ، محاولا إنشاء القرآن ، ويزعم بعض الرواة ، أنه رد على من قال له إن قرآنه ليس له طلاوة القرآن بقوله : حتى تصقله الألسن .

والرأى عندى أن كل ما نسب إلى المتنبئين ، مصنوع ، ومفترى عليهم إما للزراية عليهم ، والنيل منهم ، وإما للنيل من القرآن نفسه ، بطريق ملفوف ، وبعد ذلك حتى ما نسب إلى مسيلمة بن حبيب من قبل : والمبذرات زرعاً ، والحاصدات حصداً ، والذاريات قمحاً ، والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجناً ، والخابزات خبزاً ، والثاردات ثرداً ، واللاقمات لقماً ، إهالة وسمناً ، لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، ريفكم فامنعوه ، والمعتر فآووه ، والباغى فناوئوه » .

تقول حتى هذا القول ، لا يقبله عاقل ، أن يصدر من مسيلمة ، فقد كان عربياً بين عرب ، يميزون بين القول الغث من الشعر أو النثر أو الرجز ، وبين القول الجيد ، كما يميزون بين ما يرفع من قدر الرجل وما يحط منه ، ولو لم يكن هذا الرجل متنبئاً ، ومسيلمة ، كان رجلا طموحاً ، وكان من خلفه أقوام ، يشدون أزره ، ويتفعون من قومته ، ويؤملون لأنفسهم خيراً من نبوته ، وهم قادرون على أن يردوه عن هذا العبث الذى لا يدور إلا حول اللقمة وخبزها وطحنها وزيتها سمنها ، ولو انتهى حديث البطون إلى الدعوة إلى معونة الفقير ، وغوث والعانى ، والأخذ على يد الباغى .

ولم يقنع المارثون الساخرون بمسيلمة الكذاب بنسبة هذا القرآن المضحك فنسبوا إليه قوله : والشاة وألوانها ، وأعجبها السود وألبانها والشاة السوداء واللبن الأبيض ، وإنه لعجب محض وقد حرم المذق ، فما لكم لا تعجنون » .

ومزق اللبن مزجه ، عادة بالتمر .

ولا شك أن الذين صنعوا له هذا الكتاب ، أرادوا أن يقولوا إنه رسول لأمة من باعة الأطعمة ، وصناعها لأن كل نبى يرسل ، ومعجزته من نوع ما يتقنه قومه ، أو يزعمون أنهم يتقنونه ، فمعجزة السحر للسحرة ومعجزة إبراء المرضى ، لمن يتعاطون الطب ، ومعجزة مسيلمة الحديث عن الطحن والخبز ، واللت والعجن .

إلا أنهم نقلوه إلى الفيل فقال : الفيل ما الفيل ، وما أدرك ما الفيل له ذنب وبيل ، وخرطوم طويل .

ونقل الرافعى عن الجاحظ فى كتابه الحيوان ، ما نسب كذلك إلى مسيلمة فى الضفدعة ، نقل عنها : يا ضفدعة بنت ضفدعين ، نقى ما تنقين ، نصفك فى الماء ، ونصفك فى الطين ، لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين .

وقد تساءل الجاحظ ماهيج مسلمة على الضفدعة ، وقد جاء الجاحظ الرد فيما نسب إليه هو أيضاً ، من أنه حاول مثل هذه المحاولات ، فكأنه كتب على سادة الكلام وأمرائه فى العربية ، لا سيما من نبغ منهم فى القرن الرابع من الهجرة ، قد امتحنوا جميعاً بما افترى عليهم من محاكاة القرآن : وبنسبة السخف إليهم ، وهم يحاولون هذه المحاكاة المزعومة وإن كانوا فى غيرها حتى عند من نسب إليهم هذه المحاولة فى القمة من البلاغة العربية .

ـ تكلم السيد رشيد رضا ، فى تفسيره المعروف « بتفسير المنار » فى موضعين منه ، فى إعجاز القرآن ، وأهمية كلامه ، قائمة على السيد رشيد — كالأستاذ مصطفى صادق الرافعى — كاتب عاش من عمره سنين غير قليلة فى القرن العشرين ، وعرف الشبهات التى تثيرها طائفة جديدة من خصوم الإسلام ، وأعداء القرآن ، تسلحوا بلون جديد من أسلحة البحث والدراسة ، فزادت لذلك قدرتهم على بعث الشكوك فى نفوس المسلمين ، وهى طائفة تنتمى إلى دول اتسع سلطانها ، حتى شمل أكثر المعمورة واستأثرت بالسيادة والحكم ، على مناطق شاسعة من أراضى امتلأ ظاهرها وباطنها بخيرات الله والثروات التى تتقاتل الأمم وتتصارع لتظفر ببعضها ، تأميناً لملكها ، ودعماً لغلبتها . وقد أقامت هذا السلطان الباذخ ، على علمها بظواهر الطبيعة ، وكشف أسرارها ، والوقوف على المخبأ والدفين من قوانينها بالصبر الطويل ، والسهر المتصل ، وتنظيم الحقائق وتبويبها ، وتعقب الصغيرة قبل الكبيرة ، والمقارنة والمقابلة ، وإجراء التجربة مئات المرات بل آلافها ، فى ظروف متعددة ، وبوسائل متباينة ، حتى تثبت الحقيقة التى أسفرت عنها تلك التجارب وتصبح قانوناً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ولقد كبر مقام علماء تلك الدول الغنية القوية الحاكمة ، بما يسرته من سبل الحياة الأنيقة والهينة ، وما هيأته للناس من أسباب الراحة المادية

والمتعة العقلية ، وما صنعته من لذائذ الحسن ولطائف الصناعة . وما أخرجته للناس من غرائب الابتكار ، حتى بات الإنسان سيد الأرض والفضاء ، و باطن الثرى وأعماق الماء . فى حين يزداد المسلمون ضعفا ، وتزداد أممهم إيغالا فى الجهل ، واسترسالا فى النأى عن دينهم ، والعجز عن فهم قرآنهم ، حتى بلغوا إلى تصور أن ما آل إليهم عن أجدادهم ، ليس سوى قراطيس أبلاها الزمان ، وأصبحت تستحق شيئاً واحداً ، هو الإلقاء بها فى سلة المهملات تخففاً من ثقلها ، انصرافاً إلى العلم الصحيح ، والفن الرفيع ، وكلاهما مما يملكه خصوم المسلمين ، والمارقون بالدين ، والخارجون على أحكام القرآن ، والداعين إلى نبذ الإيمان لذلك تعين على السيد رشيد ، وعلى الذين سيأتون من بعده ، ألا يقنعوا بما ردده الفقهاء السابقون ، ولو صاغوا كلامهم بأسلوب أيامنا ، واختاروا له من الألفاظ والنسق ، ما يألفه أهل هذه العصور .

غير أن السيد رشيد فعل ، فعل السابقين فى إحصاء وجوه القرآن ، فكانت تقريباً ما انتهى إليه الأقدمون ، وهى عنده :

١ ـ إعجاز القرآن بأسلوبه ونظمه .
٢ ـ إعجاز القرآن ببلاغته .
٣ ـ إعجاز القرآن بما فيه من علم الغيب .
٤ ـ إعجاز القرآن بسلامته من الاختلاف .
٥ ـ إعجاز القرآن بالعلوم الدينية والتشريع .
٦ ـ إعجاز القرآن بعجز الزمان عن إبطال شىء منه .
٧ ـ إعجاز القرآن بتحقيق مسائل كانت مجهولة للبشر .

وقد أفاض فى بيان كل وجه من هذه الوجوه ، وتصدى بين الحين والحين ، للرد على شبهات المفكرين للإعجاز ، والمكذبين من أهل الغرب المستعمرين ، ومن علمائهم المستشرقين .

ففى الوجه الأول قال : ولعمرى أن مسألة النظم والأسلوب لإحدى

الكبير ، وأعجب العجائب لمن فكر وأبصر ، ولم يوفها أحد حقها ، على كثرة ما بدعوا وأعادوا فيها ، وما هو بنظم واحد ولا بأسلوب واحد ، وإنما هو مائة وأكثر : القرآن مائة وأربع عشرة سورة متفاوتة فى الطول والقصر ، من السبع الطوال التى تزيد السورة فيه على المائة والمائتين ، من الآيات إلى السور المئين إلى الوسطى من المفصل ،إلى ما دونها من العشرات فالآحاد كالثلاث آيات فما فوقها ، وكل سورة منها تقرأ بالترتيل المشبه للتلحين ، المعين على الفهم المفيد للتأثير ، على اختلافها فى الفواصل ، وتفاوت آياتها فى الطول والقصر ،فنها المؤلف من كلمة واحدة ومن كلمتين ومن ثلاث ، ومنها المؤلف من سطر أو سطرين أو بضعة أسطر ، ومنها المتفق فى أكثر الفواصل أو كلها،ومنها المختلف فى السورة الواحدة منها .

ثم أورد شبهة ، ضعيفة إذ قال : يقول قائل إن أساليب جمع الفصحاء والبلغاء متفاوتة كذلك ، لا يشبه أسلوب منها أسلوبه ، ولا يستويان منظوماً ولا منثوراً فمجرد اختلاف الأسلوب والنظم لا يصح أن يعد معجزاً ، ورد على هذه الشبهة التى لم نسمع بها على لسان أحد ، من القدامى أو المحدثين بقوله : مهما تختلف منظومات الشعراء فلن تعدو بحور الشعر المنقولة عن المتقدمين ،والتوشيحات والأزجال المعروفة عند المولدين ، ومهما تختلف خطب خطباء المترسلين من الكتاب والمؤلفين فى العلوم والشرائع والآداب فلن تعدو أنواع الكلام الأربعة : التى بدأنا القول بها ولا يشبه شىء من هذه ولا تلك نظم سورة من سور القرآن ولا أكثرها ، ولكل منهم نظم وأسلوب خاص .

وفى الوجه الثانى قال : بلاغته التى تقاصرت عنها بلاغة سائر البلغاء قبله وفى عصر تنزيله وفيما بعده ، ولم يختلف أحد من أهل البيان فى هذا ، وإنما أورد بعض المختلفين بعض الشبه على كون بلاغة كل سورة من قصار السور بلغت حد الإعجاز فيه ، ويتحقق التحدى عندهم بإعجاز بعض السور القصيرة بغيره ، كأخبار الغيب فى سورة الكوثر التى هى أقصر سورة .

« ومن الناس من لا يفقه سر هذه البلاغة ويمارى فيما كتب علماء المعانى والبيان من قواعدها ، زاعمين أنه يمكن حمل كل كلام عليها ، وأن الإحالة على الذوق فيها إحالة على مجهول ، لا تقوم به حجة ولا يثبت به مدلول ، لأن الذوق المعنوى كالحسى ، خاص بصاحبه » .

ويبرر السيد رشيد هذا القول ، بالجهل الذى ران على المتكلمين بالعربية ، والمسلمين باللغة العربية ذاتها ، «فقد مرت قرون فى أثر القرون على ترك الناس لمدارسة الكلام البليغ منها واستظهاره واستعماله ، واقتصار مدارس الأمصار على قراءة كتب النحو والصرف والمعانى والبيان والبديع وهى أدنى ما وضع فى فنونها فصاحة وبياناً ، وأشدها عجمة وتعقيداً ، حتى صار أوسع الناس علماً بهذه الفنون أجهل قراء هذه اللغة بها ، وأعجزهم عن فهم الكلام البليغ » .

وخلص السيد رشيد إلى القول بأن :

« معرفة مكانة القرآن من البلاغة لا يحكمها من الجهة الفنية والذوقية إلا من أوتى حظًّا عظيماً من مختار كلام البلغاء المنظوم والمنثور ، من مرسل ومسجوع ، حتى صار ملكة له وذوقاً ، واستعان على فهم فلسفته بمثل كتب عبد القاهر ، والصناعتين لأبى هلال العسكرى والخصائص لابن جنى ، وأساس البلاغة للزمخشرى ، ومغنى اللبيب لابن هشام » .

والنتيجة التى توصل إليها السيد رشيد ، خطيرة ، ذلك لأن معناها ، أنه لا يتأتى للمسلم العادى ، أن يدرك بلاغة القرآن ، ويحس بحلاوته ، لأن هذا الإحساس وقف على القلة التى توافرت على مدارسة كتب الأمهات ، التى يستحيل الآن على أكثر المسلمين المتعلمين فهمها ، والإحاطة بمجمل ما فيها ، إذ تراخت الصلة بين المسلم العربى ، وبين البسيط الميسر من أدب اللغة ، دع عنك الرفيع السامى ، من تأليف فقهائها وأئمة فنون بلاغتها . والواضعين لقواعد بيانها .

وينبنى على هذه النتيجة أن المسلمين العرب هذه الأيام واحد من

اثنين . إما جاهل تماماً لمعنى إعجاز القرآن ، يردد اللفظين ، دون أن يحاول أن يدرك لهما مدلولا ، وإما عليم بمعناهما كلفظين ولكنه غير قادر على أن يستنبط لنفسه الدليل على صحتهما ، فهو يكرر ما يصل إلى سمعه ، وما يبقى فى ذاكرته ، مما يقوله الآخرون أمامه، من عبارات تتصل بهما ، دون أن تنتفع نفسه ، ولا يتسع ذوقه ، للإعجاز فى ذاته .

وقد يحق لمن يشغله مستقبل الإسلام والمسلمين ، ومستقبل القرآن فى حياتهم ، أن يتساءل أى الطريقتين أقصر ، لعقد الصلة بينهم وبين كتابهم ، أنحاول إعادتهم إلى مثل عهد البداوة ، والفطرة ليعودوا إلى اللغة السليمة ، التى كانوا عليها ، يوم نزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم ، أم أن نبعث فيهم الإيمان بدين محمد ، وبدين ربه الذى بعث به هادياً وبشيراً وسراجاً منيراً ، وبأحكامه القائمة على العقل ، ومنهاجه الذى يمكن التدليل على سلامته وصحته ، وحاجة الناس فى هذه الأيام إليه ، ومن باب هذا الإيمان ، يعود المسلمون إلى القرآن ، فيحملهم الإيمان بأحكامه إلى إدراك أسرار بلاغته شيئاً فشيئاً ، حتى يألفوا قراءته قراءة تذوق واستمتاع ، لا قراءة واجب ، أو محاكاة ، أو التماساً للبركة ، واستجلاباً للمنفعة ودفعاً للشرور بوصفه مصدر كل التعاويذ والرقى ؟

على كل حال ، هذا واحد من الأسئلة ، التى نرجو أن نوفق إلى الإجابة عنها ، فى نهاية هذا البحث .

أما الوجه الثالث من وجوه الإعجاز ، عند السيد رشيد رضا ، فهو اشتمال القرآن على الإخبار بالغيب من ماض كقصص الرسل مع أقوامهم ، ومن حاضر فى عصر تنزيله كقوله تعالى : (ألم . غلبت الروم ، فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، فى بضع سنين) . وقوله : (قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون) وقوله تعالى : (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين) .

والوجه الرابع ، هو سلامة القرآن على طوله من التعارض ، والتناقض

والاختلاف خلافاً لجميع كلام البشر وهو المراد بقوله تعالى : (ولو كان من عند غير الله ، لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) .

ثم أضاف : « فإن قيل إن غير المؤمنين بالقرآن قد استخرجوا منه بعض الاختلاف والتعارض ، فاضطر علماء المسلمين إلى الجواب عنها [بما يزعمون أنه دفع الإيراد ، وأظهر بطلان الانتقاد ، وأن المسلم يقبل منهم ذلك تقليداً ، ومن لم يكن فى نفسه سديداً قلت إذا كانت عين الرضى متهمة فعين السخط أولى بالتهمة ، وإننا إذا لم نلتفت إلى كلام أعداء القرآن الذين يخترعون التهم أو يزينونها بخلابة القول ، ولا إلى المقلدين من المسلمين ، وعرضنا ما ذكر من ظواهر الاختلاف على فريق المستدلين من الفريقين نرى أنه ليس فى القرآن تعارض حقيقى معنوى يعد مطعناً صحيحاً » .

ولا شك أنك تبينت أن السيد رشيد لم يقل فى هذا الوجه شيئاً ، فقد قال إن القرآن ليس فيه تعارض ولا تناقض ، وانتهى إلى القول بأن القرآن ليس فيه تعارض ولا تناقض ، فكأنما أقام الدعوى ، وحكم فيها ، وليس معنى هذا أننا نخالفه فيما قاله من خلو القرآن من التعارض والتهاتر ، ولكن نخالفه ، فى عرض الحجة ، واستنباط الدليل عليها ، وأسلوب الرد على منكريها وحسب القائل فى هذا الوجه ، أن يقول إن القرآن جاء لدعوة أساسها ، أن رب العباد وخالقهم ، إله واحد . وأن الأنبياء جميعاً بشر من البشر ، يدعون إلى عقيدة التوحيد ، بوحى يوحى إليهم ، وأن محمداً رسول الله من هؤلاء الرسل ، ونبى منهم ، وهو خاتمهم ، وهو كمن سبقه منهم عليهم صلوات الله ، بشر يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق وأنه ميت ، وأن الناس جميعاً سيموتون ، ثم يبعثون ليحاسبوا ، على أعمالهم ما جل منهم ، وما صغر ، وأنهم يتفاضلون بهذه الأعمال ، وأنهم مدعوون إلى فضائل مذكورة فى القرآن فى مقدمتها العدل والصدق والصبر والرحمة والتآخى . وأن القرآن من أوله إلى آخره ، على نهج واحد ، ونسق متصل ،

فى بيان هذه المبادئ وتأكيدها ، وتثبيتها فى النفوس ، وحمل الناس عليها، وتحريضهم على الاستشهاد والموت فى سبيلها . فليس فى القرآن جزء من آية ، ينقض عقيدة التوحيد ، ولا عقيدة البعث، ولا عقيدة بشرية الرسل، ولا عقيدة حساب الناس، ولا عقيدة مساواة الناس بعضهم ببعض، ولا عقيدة أن الناس بأعمالهم لا بأحسابهم ولا ألوانهم ولا دمائهم . ولا أن محمداً الإنسان هو مبشر ونذير ، وليس إلهاً ، ولا ابن إله ، ولا نائباً من الإله ، وأنه لا يطاع إلا فيما جاء فى القرآن وثبت فيه من أمور العقيدة . وأن هذه المبادئ والقواعد ذكرت فى السور الطوال وفى القصص والأمثال ، وفى الوعد ، والتبشير والتنفير ، فى بداية التنزيل وخاتمته ، وأن التناقض الذى يقع فيه الدعاة من البشر ، وكبار مفكريهم ، وزعماء حركاتهم ، فى أصول المذهب الذى يبشرون به ، ويدعون إليه ، معروف بارز، يضطرب أنصارهم ، وتتشعب فرقهم ، ففى المسيحية من قال بأن المسيح عليه السلام رسول من البشر ، ومن قائل إنه إله فى السماء وإنسان فى الأرض ، ومن قائل إنه إله فى الأرض والسماء ، ومن قائل إنه ابن الله ، وهذه ليست خلافات فى الفروع ، ولا تأويلا للنصوص، وإنما الواحد منها نقض للآخر وهدم له .

وإن هذا هو التعارض حقيقة ومجازاً ، أما ما دونه، فلا يعدم المماحكون والمتمارون ، أن يستخرجوا من القول المحكم الذى لا يحمل تأويلا ، معانى لا نهاية لها ولا حد، لا لأن اللفظ يحتمل هذه التأويلات، لعيب فيه ، وإنما لأن القارئ له ، هو الذى يشكو العيب ، ويعانى منه . فالكفار حينما سمعوا قول الله تعالى : (فاتبعونى يحببكم الله) هتفوا أن محمداً « يؤله نفسه » وإذا قال الله تعالى : (من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً) قال إن الله فقير ونحن أغنياء .

وإذا تركوا ليبينوا لنا ما وقعوا عليه فى القرآن من تناقض ، ضربوا مثلا لذلك ، ما جاء فى الآية التاسعة والستين وما بعدها فى سورة هود ،

عن زيارة الملائكة لإبراهيم ، وتبشيرهم إياه بمولد إسحق ، وقارنوه بما جاء فى الآية الحادية والخمسين من سورة الحجر ، عن نفس الواقعة :

ففى سورة هود قال الله تعالى :

(ولقد جاءت رسلنا إبراهم بالبشرى قالوا : سلاماً قال : سلام : فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم ، وأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف، إنا أرسلنا إلى قوم لوط ، وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ، ومن وراء إسحق يعقوب ، قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً !) .

وفى سورة الحجر قال الله تعالى :

(ونبئهم عن ضيف إبراهيم ، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً ، قال إنا منكم وجلون ، قالوا لا توجل ، إنا نبشرك بغلام عليم ، قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون ؟ !) .

وواضح أن الخلاف فى أن امرأة إبراهيم فى سورة الحجر هى التى تلقت البشرى من الملائكة ، وخطابهم توجه إليها : وأنها ضحكت : قبل أن تسمع هذا القول ، فى حين أن إبراهم نفسه هو الذى تلقى هذه البشرى فى سورة الحجر ، وأنه هو الذى استغرب أن يرزق بغلام وقد مسه الكبر . ويحسبون من هذا تناقضاً ، فى حين أن الأمرين يمكن أن يقعا ، فلا غرابة أن تسمع الزوجة والزوج نبأ غريباً يخصهما ، فيبدى كل منهما دهشته بصيغة يرضاها : وهو أمر لا يتناول — من قريب ولا من بعيد — شيئاً تافهاً من أسس الرسالة التى جاء بها القرآن ، والدعوة التى تبشر بها ، ولكن لو جادلت المماحكين فى هذه الصغائر ، لهولوا فيها : ولأقاموا عليها بناء ضخماً تحسب معه أن القرآن كله يتهاتر ويتساقط . وصدق الله العظيم إذ قال : (وكان الإنسان أكثر شىء جدلا) .

ولقد أطلنا الوقوف أمام هذا الوجه من وجوه الإعجاز ، كما رآها السيد رشيد ، لنبين رأينا فى المنهج الذى اختطه .

أما الوجه الخامس ، عند السيد رشيد ، فهو اشتمال القرآن الكريم ، على العلوم الإلهية ، وأصول العقائد الدينية ، وأحكام العبادات ، وقوانين الفضائل والآداب وقواعد التشريع السياسى والمدنى والاجتماعى الموافقة لكل زمان ، وبذلك يفضل كل ماسبقه من الكتب السماوية ، ومن الشرائع الوضعية ومن الآداب الفلسفية .

ويعتقد السيد رشيد أن هذا الوجه من أظهر وجوه الإعجاز ، وهو فى حقيقة الأمر من أخفاها ، ذلك أن عبارة العلوم الإلهية وأصول العقائد الدينية وأحكام العبادات، وقوانين الفضائل والآداب . . إلخ عبارات غامضة لا نجد لها مدلولا ، معروفاً لدى الكافة ، ومتفقاً عليه بينهم ، فى جميع العصور وعند جميع الناس ،فالوثنى يعرف من عبارة العلوم الإلهية، وأصول العقائد الدينية ، ما لا يعرفه منها البوذى ، والمسيحى يعرف منها ما لا يعرفه المسلم ، وما كان معروفاً من الفضائل وأحكام العبادات ، عند أصحاب دين بذاته فى عهد ، غير ما ساد وتواضع عليه أصحاب نفس هذا الدين ، فى عهد آخر ، فالآداب والفضائل المسيحية فى العصور الوسطى ، حينما كان حزام العفة جهازاً يستعمله أهل الطبقة الغنية ، غير هذه الفضائل ، فى العهد الذى وصلت فيه المرأة المسيحية ، بعلم الكنيسة وموافقتها ، إلى مقاعد المجالس النيابية ، ومنصات الحكم الكبرى ، والتى مارست فيها صنوفاً من الرقص الذى يعتبر فنا رفيعاً ، لا شائبة فيه ، ولا عيب فى ممارسته وممارسيه .

ثم هل كان فى وسع العربى الأمى الذى سمع أول ما سمع بالقرآن من يحيط بهذه العلوم الإلهية ، ويعرف من وقوفه عليها ،أن الكتاب الذى احتواها ، هو كتاب معجز ، وأنه لهذا كتاب من عند الله ، فهو صالح أن يكون حجة على نبوة الرجل الذى يقول إن الله أوحى إليه،ثم هل يعرف أكثر المسلمين شيئاً من هذه العلوم الإلهية التى ثبت صلاحها فى كل زمان ومكان ، من مجرد سماع القرآن ، أو حتى من مجرد سماع شرح بعض آياته

بل سوره . وهل يسلم المسيحى العصرى المستنير المثقف المحايد بشيء من هذا ، حتى يعتقد اعتقاد المسلمين ، من أن مبدأ تعدد الزوجات الذى يأمر به القرآن أفضل من تعدد الخليلات ، وأن قطع يد السارق حكم سائغ ، وأنه مع التربية الإسلامية ، والإعداد الروحى وإقامة المجتمع الإسلامى السليم الصحيح ، أنفع فى منع جرائم السرقة ، من نظام الحبس الذى تتزايد بفضله ، وفى داخل السجون هذه الجريمة بالذات ويتكاثر مرتكبوها . لا شك أن إقرار هذا المسيحى بهذا وأشباهه أمر مستبعد منه . فإقراره بإعجاز القرآن لاحتوائه على العلوم الإلهية وأصول العقائد الدينية أكثر استبعاداً .

والوجه السادس من وجوه الإعجاز ، كما أحصاها السيد رشيد هو أن القرآن يشتمل على بيان كثير من آيات الله تعالى فى جميع أنواع المخلوقات من الجماد والنبات والحيوان والإنسان ، ويصف خلق السموات وشمسها وقمرها ، وفيه تفصيل لكثير من أخبار الأمم ، وبيان لطرق التشريع السوى للأمم ، وقد حفظ ذلك كله بكلمه وحروفه منذ أربعة عشر قرناً ونيف ، ثم عجزت هذه القرون التى ارتفعت فيها جميع العلوم والفنون أن تنقض بناء آية من آياته ، وهى التى جعلت فلسفة اليونان دكاً ، ونسخت شرائع الأمم نسخاً .

أما أن القرآن كتاب حق لا يأتيه باطل من بين يديه ومن خلفه ، وأن الله حفظه ، مصدقاً لوعده فى القرآن الكريم : (إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون) فأمر لا مرية فيه ولكن عقد المقارنة بينه وبين فلسفة اليونان ، والقول بأن الزمن نسخ هذه الفلسفة ، ولم تنسخ القرآن ، فكلام لا نقبله . لأننا نرفض المقارنة بين القرآن و بين أية فلسفة بشرية أخرى ، لاختلاف طبيعة المقارن بينهما اختلاف السماء عن الأرض ، ودور كل منهما ، فالفلسفة اليونانية هى أساس العلم الحديث ، ولا تزال البدايات التى بدأها فلاسفة اليونان هى الأصول لكثير من فروع هذا العلم ، بل إن أكثر مصطلحات العلم الحديث يونانية ، وقد بقى أرسطو ، أستاذ المعرفة الإنسانية قروناً حتى

عهود قريبة ، وكان العرب المسلمون أنفسهم يسمونه « المعلم الأول » ، وهو لقب لم يطلقوه على واحد من أئمتهم ، وقد أدال الله على دول المسلمين حينما بعدوا عن دينهم ، ونأوا عن قرآنهم ، حتى كاد الإسلام لا تطبق أحكامه إلا فى أضيق رقعة من الأرض ، وعلى أقل القليل من سكان هذا الكوكب .

ولكن ليس معنى هذا ، أن المذاهب الأخرى السائدة الآن ، والتى سادت منذ عدة قرون ، فى دول حققت من السلطان والمنعة المادية ، ومن غزوات العلم ، ما لم يشهده الناس منذ دبت أقدامهم على سطح هذا الكوكب ، هى أصح من الإسلام ، وأحق بالاتباع من القرآن ، ذلك لأن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حذر المسلمين مما أصابهم بالفعل .

وقد استدرك الشيخ رشيد رضا فقال : فإن قيل : إن الطاعنين فى الإسلام من الملاحدة يزعمون أن العلوم ، والفنون العصرية من طبية وفلكية وتاريخية ، قد نقضت بعض آيات القرآن فى موضوعها ، وإن التشريع العصرى أقرب إلى مصالح البشر من تشريعه .

ثم قال : « قلت — إننا قد اطلعنا على أقوالهم فى ذلك فألفينا أن بعضها جاء من سوء فهمهم أو فهم بعض المفسرين ، ومن جمود الفقهاء المقلدين ، وبعضها من التحريف والتضليل ، وقد رددنا نحن وغيرنا ما وقفنا عليه منها . وإنما العبرة بالنقيض الذى لا يمكن لأحد أن يمارى فيه مراء ظاهراً أو مقبولا .

« فإن قيل : إن كهنة أهل الكتاب يدعون مثلكم أن كتبهم المقدسة سالمة من التعارض ، والتناقض ومخالفة حقائق الوجود الثابتة ويتكلفون مثلكم لرد ما يورده علماء الكون والمؤرخون مخالفاً لتلك الكتب » .

« قلت : إن هذا النوع من مخالفة كلام الخالق لكلام الخلق ، يجب أن يكون مشتركاً بين القرآن وغيره من الكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل ، لو بقيت كما أنزلت من غير تحريف ولا تبديل ، ومن المعلوم

من التاريخ بالقطع عندنا وعندهم أن التوراة التى كتبها موسى عليه السلام ووضعها فى التابوت « صندوق العهد » وأخذ الميثاق على بنى إسرائيل بحفظها كما هو منصوص فى آخر سفر « تثنية الاشتراع » قد فقدت من الوجود عندما أغار البابليون على اليهود وأحرقوا هيكل بيت المقدس ، والتوراة الموجودة الآن يرجع أصلها إلى ما كتبه «عزرا» الكاهن بأمر « أرتحشت » ملك فارس.

والوجه الأخير عند السيد رشيد هو « اشتمال القرآن على تحقيق كثير من المسائل العلمية والتاريخية التى لم تكن معروفة فى عصر نزوله ، ثم عرفت بعد ذلك بما انكشف للباحثين والمحققين من طبيعة الكون . . فمن ذلك قوله تعالى : (وأرسلنا الرياح لواقح) .

ومن قوله تعالى : (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى) وقوله تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين) ومنها قوله تعالى : (ومن كل شىء خلقنا زوجين) ومنه قوله تعالى : (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل شىء موزون) ويعلق على هذه الآية الأخيرة بقوله : إن علماء الكون الأخصائيين فى علوم الكيمياء والنبات قد أثبتوا أن العناصر التى يتكون منها النبات مؤلفة من مقادير معينة فى كل نوع من أنواعه بدقة غريبة لا يمكن ضبطها إلا بأدق الموازين المقدرة من أعشار الجرام والمليجرام .

ومن تلك الآيات أيضاً قوله تعالى : (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) .

ثم يعقب على هذا كله بقوله : فهذا النوع من المعارف التى جاء فى سياق بيان آيات الله وحكمه كانت مجهولة للعرب أو لجميع البشر فى الغالب ، حتى إن المسلمين أنفسهم كانوا يتناولونها ويخرجونها عن ظواهرها . لتوافق المعروف عندهم فى كل عصر من ظواهر وتقاليد أو من نظريات العلوم والفنون الباطلة » .

ولا تعقيب لنا على هذا الوجه إلا ما نستخرجه من العبارة السالفة مباشرة ، فإن المسلمين الذين لم يعرفوا أن قرآنهم ، جاء مؤيداً لحقائق العلوم التى لم يوفق إليها العلماء إلا بعد أن نزل القرآن بأربعة عشر قرناً ، قد حسن إيمانهم بالقرآن وحسن انتفاعهم بأحكامه ، وآياته ، فنشروا نوره ، وأقاموا دولته ، ونفذوا أوامره ، وانتهوا بنواهيه ، وتأدبوا بآدابه ، فى حين الذين يعرضون الآن لنا علمهم ، وذكاءهم ،وقدرتهم على استنباط ما يتفق من آيات القرآن مع العلم الحديث هم أقل الأجيال المسلمة تأثراً بهذا القرآن فى شئون دينهم ودنياهم .

فالقرآن عاش بين المسلمين أربعة عشر قرناً، يفعل فعله فى النفوس ، ولا أحد منهم يعرف هذه الحقائق العلمية السبع أو العشر ، وستمضى سنون طويلة وربما قرون أخرى ، سيبين للناس حقائق علمية أخرى ، جاءت فى تضاعيف آيات القرآن ، ولا أحد يعرفها . وسيبقى القرآن مع ذلك يفعل فعله فى النفوس .

ولا يفوتك أن هذا الوجه من الإعجاز ، لن يوفق إليه ، إلا من كان من أهل العلم الذى يدرك هذه الحقائق ويعيها ، ويؤمن بصدقها . فإن لم يكن من هؤلاء من حجب عنه هذا الوجه. وفى هذا الوجه أيضاً منزلق إذ أن بعض أدعياء العلم الراغبين فى المباهاة به ولو كان زائفاً يحملون آيات القرآن فى هذا السبيل ما لا تحمل ، وقد ينسبون إلى العلم ما هو منه براء ، فيؤذون عقول المسلمين .

هذا موضوع ، يتسع فيه مجال القول ، حتى يستنفد ما لدى الكتاب من طاقة ،ويستفرغ ما عندهم من جهد، ويضيق حتى يكفى أن يقال فيه جمل قصار . كأن يقال مثلا :

لقد أنزل الله تعالى القرآن على نبيه الأمى ، محمد بن الله ، عليه الصلاة والسلام ، فشك المشركون فى أن هذا الكتاب من عندالله ، ثم قطعوا بذلك ، لأنه كبر عليهم ، واستحال لديهم أن يختار الله ، رجلا

كمحمد صلى الله عليه وسلم ، وليس هو من عظماء قريش ، وكبارهم ، ليكون رسوله ،لا إلى قريش وحدها ، ولا للعرب وحدهم . بل للعالمين كافة . ومن ثم فالكلام الذى يتلوه على الناس من صنعه هو اهتدى إليه : بعقله ، أو أعانه عليه قوم آخرون ، ولكنه على أية حال كلام بشر . فتحداهم القرآن أن يأتوا بقرآن مثله ، أو بعشر سور مفتريات على نسقه : أو بسورة واحدة ، ثم لحق الرسول عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى . ومات من بعده جميع خلفائه وكل صحابته .

ونشأت للإسلام دولة ، ثم دول ، ثم دالت ، وتغيرت أحوال الناس ، وأمورهم ، وجدت أمور ، وأصبح الناس غير الناس ، ولا يوجد بين أيدى المسلمين إلا قرآن واحد . هو القرآن الذى قرأه محمد صلى الله عليه وسلم على العرب منذ أربعة عشر قرناً . بحرفه ونظمه : وترتيبه وتبويبه ، لم يتغير منه شيء ،ولم يضف إليه شيء ،مع أنه يتلى فى العالم كله ، فى المشارق والمغارب ، فى بلاد تتكلم العربية ، وتفهمها ، وتعرف أصولها وقواعدها ، وتتقن نحوها وصرفها ، وتحفظ غير قليل من شعرها ونثرها ، كما يتلى فى بلاد لا تعرف العربية ، ويصعب عليها نطقها . . وقد قل حظها من العلم كله ، وبعد موقعها من عواصم الحضارة ، وأجدبت أرضها من معاهد العلم والثقافة ، ثم يتلوه أقوام ، نشأوا فى غير مواطن العربية ، وتهذبوا بغير لغتها ، ولكنهم اتخذوها بعد دخولهم فى الإسلام لغة علمهم ، فذهبوا فى التأليف بها ، والتصنيف فيها ، وتعقب آثارها ، وتحقيق أسفارها ، ما لم يصل إليه ، أو يدن منه ، علماء العروبة الأوائل ، ولا أئمتها الشوامخ .

والقرآن فى كل هذه المواطن المتباينة ثقافة وحضارة وجنساً ، والمتباعدة موقعاً وصنفاً والمختلفة طبيعة ومناخاً ، هو قرآن المسلمين الأوائل ، الذى قرع أسماع أهل مكة ثم أهل المدينة ،حينما نزل به الوحى على الرسول الذى اختارته إرادة الله ،ليبلغ به وينذر . لم يوضع إلى جواره قرآن يشبهه

أو يختلف عنه ، ولم يسمع الناس أن شيئاً من كلام الناس . الذين يعارضونه وينكرونه ويزعمون أنه من مثل كلامهم ، قد عاش متحديا هذا القرآن ، سنةواحدة ؛ دع عنك الجيل أوالفترةمن الزمن. وبذلك تكون قضية عجز الناس عن الإتيان بمثل هذا الكتاب ، وإعجازه ، قد حسمها الزمن : منذ قرون . بل منذ صدر الإسلام حتى أصبح من قبيل الترف العقلى ، إن لم يكن من قبيل مضيعة الوقت : محاولة إثبات إعجاز القرآن، أو تحليل عناصر هذا الإعجاز ، أو بيان أسبابه . إذ أنه من الحقائق المسلمة فى الواقع ، وليس وراء هذه المحاولة ، نفع يتحقق ولاشر يرد .

ولقد كانت حجة كهذه جديرة بأن تصرفنا عن الكلام فى إعجاز القرآن ، لو كان قصدنا من تناول هذا الموضوع ،الذى وضعت فيه الأسفار وتنافس فى حلبته الأئمة الأعلام ،أن نكرر ما قاله الذين سبقونا فى التصدى له ، والبحث فى دقائقه وحقائقه ، وموازنة الآراء المتعارضة التى سيقت فيه ؛ وتغليب واحد منها على سائرها ، أو رفضها كلها والإتيان بغيرها ، مما لا شك سيشبهها ، إن بدا جديداً ، مما سيحمل الآخرين على الغض منه ، والدعوة إلى الصدوف والازورار عنه .

ولكننا نبغى من تناول هذا الموضوع القديم الجديد ، شيئاً آخر ، هو الاستعانة به ؛ والتوسل ؛ إلى الحديث عن حاضر المسلمين ، وعن التأمل فى حالهم ، وعن تغليب الرأى فى الوسائل والخطط التى يمكن أن تجعل للقرآن الكريم فى حياة المسلمين ؛ وتغيير أمورهم ، وتقويم اعوجاجهم ، ومعالجة أسباب ضعفهم مما كان له فى العرب لعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حينما كانوا فقراء ، مبعثرين وخصوماً متعادين ، وضعافاً ، لا يحسب لهم فى حياة الأمم المحيطة بهم ، والمتصلة بقبائلهم وقوافلهم، فضلا عن حياة الأمم الأخرى، التى لا تعرف عنهم حتى الاسم.

وعلى الرغم من أن هذه هى غايتنا ، فقد يحسن أن نقدم بين يدى هذا المبحث ، الذى نراه جليلا وخطيراً ، وحقيقاً بأن تناوله من هذه

الناحية ، غيرنا ممن هم أعرف بالإسلام وعلومه . وبالقرآن وكنوزه . منا ، ببيان موجز عن موضوع إعجاز القرآن منذ سمع العرب به ، وصافحت آذانهم دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام . إلى الدين الذى بشر به . وبالعقيدة التى أعلن مبادئها وأحكامها .

* * *

فى القرآن الكريم أربعة مواضع ، فيها كلام لله تعالى . عن أن كتابه المنزل ، معجز ، لا سبيل إلى محاكاته . أو الإتيان بمثله . أو بشيء منه ، ولو كان هذا الشيء فى مقدار سورة من سوره . وأول ما نزل فى هذا المعنى قوله تعالى فى سورة الإسراء (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله : ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) ثم نزل بعدها آية فى سورة يونس (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) ثم آية فى سورة هود (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) .

وهذه السور الثلاث ، مكية ، وإن كان ابن عباس رضى الله عنه، يقول إن سورة (يونس) مدنية ولكن الجمهور على أنها مكية .

على أنه فى سورة البقرة — وهى مدنية باتفاق — الآيتان الثالثة والعشرون والرابعة والعشرون وقد نزلتا فى المعنى نفسه : (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) والمتفق عليه أن أول ما نزل من القرآن هو قول الله تعالى (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق) .

ولما أن فتر الوحى بعض الوقت . خشى الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، أن يكون ربه قد قلاه ، وبقى مشفقا وجلا ؛حتى نزل قوله تعالى : (والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى) .

وراح رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو صحبه إلى الدين الجديد :

فلبى دعوته أقرب الناس إليه : وأعرفهم به ، أبو بكر الذى مضى يدعو من يتوسم فيهم الخير . ويأنس فيهم حسن الاستعداد لقبول الدين والأخذ به . فدخل فيه عثمان وعبد الرحمن وطلحة وسعد والزبير . وفى هذه الفترة لم يكن قد نزل من القرآن قدر كبير ، وبعد ثلاث سنين من حين البعث أمر الله رسوله أن يظهر ما خفى من أمره ، إذ نزل الوحى (وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين. فإن عصوك فقل إنى برئ مما تعملون) .

إلى هذا الوقت لم تكن آية من الآيات التى تتحدى العرب أن يأتوا بمثل القرآن أو ببعضه أو بسورة منه . قد نزلت ، وفى هذه الفترة، كان أعظم ما يؤرق بال المشركين وزعمائهم ، هو الحركة الدائبة التى يتوسل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه ، الذين آمنوا به ، فازدادوا حباً له ، وتأسياً به : وإدراكاً لمعانى هذا الدين، الذى لخصته عبارة « لا إله إلا الله . محمد رسول الله » تلخيصاً أحاط بجوهره، وكشف للذين آمنوا ، وللذين كفروا — بعد الهوة: بين ما كان عليه العرب من الضلال ، وجلال ما يدعوهم إليه محمد من الهدى . وقد كان سعى محمد صلى الله عليه وسلم ، حثيثاً ، لا جلبة فيه ، ولا دوى يصحبه، فقد كان يصدع بما أمره به ربه ، فقد كان يدعو عشيرته الأقربين، ويخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين ، فإن وجد فيمن يدعوهم ،إصراراً على الكفر ، وعناداً وتشبثاً بالشرك،لم يكن يزيد عن أن يقول (إنى برئ مما تعملون) ولكن هذا اللطف فى الدعوة،وهذه السماحة فى عرض الدين ، وهذا الصبر على الرفض والعزوف ،يخيف زعماء قريش ويفزعهم ويدعوهم إلى الإشفاق من المستقبل.لأن محمداً صلى الله عليه وسلم كان معروفاً بين عشيرته الأقربين ، ومن يتصل بهم ، بصدقه وأمانته، وكان فوق ذلك حسن المدخل إلى القلوب ، عليماً بالنفوس ،لا يفجأها ، بما تكره ،ولا يسمعها ما يجرح لها سمعاً أو يخدش لها أذناً . وبهذا

كان يشق طريقه فى لين ويسر ، وإن لم يزد أنصاره، فقد شغل الناس بما يقول ، وذاع أمره ، وكثر حديث الناس فى شأنه .

فلما توالى نزول القرآن ، وكثر ما حفظه القراء، وأقبلوا عليه يكتبون على اللخاف والجريد ، ثم يتدارسونه، فتناقلته الألسن ، وتداولته الأسماع ، هنالك أضيف إلى الحركة الإسلامية عنصر جديد هو عنصر القرآن وأثره فى نشر الدعوة ، وتأييدها ، ومد القائمين بها بالجديد من الحجج البالغة، والبراهين القاطعة ، مع تثبيتهم ، ونفى الريب عنهم ، وملء نفوسهم ، وقلوبهم بالثقة والأمل والسكينة . وقد كان للقرآن نقيض هذا الأثر فى معسكر المشركين ، فقد رأوا أن بروز هذه القوة، وظهور أثرها، إلى جانب الدين الجديد، يقتضيهم أن يقولوا فيه ، أسوأ ما تستطيع أفواههم أن تنطق به ، وأن يرموه ، بأقبح ما تعينهم عليه، نفوسهم المغيظة، وقلوبهم المحرجة ، وصدورهم المليئة بالأحقاد والسخائم

ومن ثم يمكننا أن نلخص موقف المعسكرين من قضية إعجاز القرآن من ناحية، وعجز البشر أن يقلدوه، ويحاكوه، أو يأتوا بما يشبهه أو يدانيه :

كان موقف المسلمين من القرآن تسليماً مطلقاً واقتناعاً كاملا ، وإيماناً ثابتاً بأنه كلام الله ، وبأنه منزل حقاً وصدقا على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه لا سبيل إلى الوصول إلى سوائه، ولا التشبه بشىء مما جاء فيه ، لا على سبيل المحاكاة والاقتداء، ولا على سبيل المعارضة والتحدى . ثم لم يفكروا فيما وراء ذلك ، ولم يشغلوا به عقولهم ، ولم يساور قلوبهم .

أما المشركون ، فقد كان القرآن لديهم افتراء من محمد ، عليه الصلاة والسلام ، وأنه أساطير ، أو أن أعجمياً لقنه إياه، وأملاه عليه، وأنهم لو أرادوا لقالوا مثله ، فهم لا يحاولون محاكاته ، ترفعاً وتعالياً، وقد أثبت القرآن الكريم موقف الطائفتين ، في تفصيل واضح وبيان شامل ، ووصف مبين .

ولكن الذى يهمنا هنا . هو أن المسلمين الذين آمنوا بأن القرآن من عند الله لم يضيعوا من وقتهم لحظة فى بيان إعجازه ، ورد هذا الإعجاز إلى أسبابه ، ومن هنا لم يختلفوا فى هذا الصدد ، ولم تتعدد لهم فيه آراء ، لأنهم لم يجدوه جديراً بالتفكير لأن الحقيقة الساطعة يقرر وجودها فقط ، فما دام القرآن كلام الله تعالى ، وما داموا هم مؤمنين بهذا ، يعلنونه ويضمرونه ، ويقيمون حياتهم على أساسه ، ويؤدون عباداتهم فى ضوء هذا الإيمان . فكيف يسوغ أن يبينوا أسباب إعجازه . إنه كلام الله ، وهو بهذه المثابة معجز . لأن عمل الناس غير عمل الله . والناس تمنعهم عقولهم أن يتسابقوا وخالقهم فى حلبة منافسة أياً كانت صورة هذه المنافسة ، وقد قرءوا فى هذا الكتاب نفسه ، ما نصه : (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له . وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) .

وهذا الكلام له معنى واحد ، هو أن أدنأ مخلوقات الله وأصغرها شأناً ، يصعب على الناس خلقها ، فإذا كان ذلك صحيحاً ، فكيف يتأتى لمن لن يخلق ذباباً ، أن يخلق مثل كلام الله .

أما طائفة المشركين . فهم شعبتان : شعبة تحس بحلاوة القرآن ، وتدرك أنه من غير طبيعة كلام الناس ، وأنه على الأقل القليل ، ليس قصيداً ، ولا رجزاً ، ولا سجعاً ولا نثراً ، وأن أحداً من العرب لم يأت بشىء على صورته ونسقه ، فضلا عن أن المعانى التى يدور حولها ، والغايات التى يدين الأفهام إليها . مما لم يخطر على بال حكمائهم وكهانهم ، وشعرائهم وخطبائهم ، لم يقولوا فيه شعراً ولا نثراً ، ولم يتسابقوا فى الإتيان به ، ولم يتنافسوا فى عرض الكلام فيه . أياً كان نصيب هذا كله من الحق أو البطلان ، من الصدق أو الكذب .

أما الطائفة الثانية فهى لم تمنح القدرة على تذوق ألفاظ القرآن ، ولا الوقوف أمام معانيه ، فهؤلاء كما قالوا ، وكما سيأتى البيان أحسنوا

وصف أنفسهم ، إذ قالوا إن قلوبهم غلف . والحق أنه قد قام بينهم وبين القرآن فى جملته وتفصيله ، حاجز صفيق ، لا ينفذ من خلاله شىء إلى قلوبهم ولا إلى عقولهم ، سواء كان ذلك عناداً أو استكباراً ، أو كانوا من غلاظ الأكباد ، ذوى الطبائع الترابية ، التى لا ترقى إلى تذوق الجميل، أو الإعجاب بالبديع أو التأثر بالرقيق ، همهم بطونهم ، وشفاء أحقادهم والغلبة على أعدائهم ، بكل وسيلة ، ومن أقرب طريق .

وهؤلاء وأولئك ، بطبيعة الحال ، لا يتصور منهم أن يحاولوا تحليل القرآن ، ومعرفة أسرار جماله ، فهذا الجمال ، إما مجحود منهم ، مع أن أنفسهم استيقنته وسلمت به ، وإما أنهم معزولون عنه ، ومحرومون منه .

فعلى جميع الوجوه تكون قضية إعجاز القرآن . غير مثارة ، لا يدور حولها صراع ، ولا تفترق عندها المذاهب ، وتتشعب بسببها التصورات .

ولنر الآن ، كيف كان صدى هذا كله فى القرآن الكريم وكيف سجله ، وفصله ، وتركه لأجيال المسلمين ، ولخصوم هؤلاء المسلمين ، ليعوفوا جميعاً ، كيف شق هذا الكتاب الخالد ، طريقه فى الصخر ، ليقيم العلم السامى الرائع ، الذى أعلى صرحه للإنسانية ، فما يقوله المؤمنون، ما قالوه ، وذكره الله تعالى فى سورة آل عمران على لسانهم : (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا) .

وما جاء فى سورة الزمر : (الله نزل أحسن الحديث ، كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم ، وقلوبهم إلى ذكر الله) . .

أما طائفة المشركين، فقد قالوا: (لن نؤمن بهذا القرآن) سبأ ، كما قال :

(وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن ، والغوا فيه لعلكم تغلبون) فصلت. (ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم إلا نفورا) الإسراء . (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) . أما ادعاء أو اعتقاد الكافرين بأن القرآن هو أساطير فقد وردت الإشارة إليه فى أكثر من أحد عشر موضعاً منه ؛ من ذلك قول الله تعالى: (فقال الذين كفروا إن هذا إلا أساطين الأولين) (قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا أساطير الأولين) الأنعام . (وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين) ، (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا). أما أن القرآن من تعليم رجل أعجمى يلقنه للرسول عليه الصلاة والسلام فقد ذكر فى سورة النحل : (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) .

فإذا كان موقف ، كل من معسكر الإيمان أو حزب الله ، ومعسكر الشرك ، أى حزب الشيطان ، من القرآن ، ولهيته ، وافترائه ، واضحاً ، وهو موقف، لا يدعو إلى البحث فى موضوع إعجاز القرآن ، وتقليبه على وجوهه ، وتشقيق الكلام فيه لاستنباط الأدلة ، والرد عليها ، والرد على الرد، وهكذا فما الذى حدث حتى يصبح هذا الموضوع شاغلا لعدد من الأئمة الكبار، أمثال الواسطى والباقلانى والجاحظ ، والجرجانى ، والرمانى ، والخطابى ، والرازى ، والزملكانى والذين جاءوا بعدهم ، حتى تناوله فى عهدنا مصطفى صادق الرافعى ، فى كتاب قائم برأسه ، والمفسرون المحدثون أمثال رشيد رضا، الذين يفردون له باباً من التفسير ، عندما يصلون إلى آية (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا) ؟

الذى حدث ، هو ما تقضى به سنة الله فى خلقه ، ففى صدر كل عقيدة جديدة يملك الإيمان على الناس زمام نفوسهم ، ويستحيل الإيمان ،

فور امتلاء القلوب به ، واطمئنان الأرواح إليه ، إلى عمل بكل وسيلة ، وبكل درب ، وفى كل وقت . عمل متصل، متجلد ، حار ، لا يهدأ ، فيغير أمور الناس التى كانت تبدو ثابتة لا تتغير ولا تزول ، ويطور أفهامهم ، ويمنحهم قوة كانت تعوزهم ، ويفتح لهم أبوابًا لم تخطر لهم على بال ، ويدفع بهم إلى مجالات ، لم يسمعوا ،ولا أجدادهم عنها شيئًا . فإذا وصلت الحركة إلى مداها ، وهدأت دفعة العقيدة الأولى ، وأثمر الجهاد الأول ثماره ، فنشأت بفضله وعلى سواعد الذين خاضوا معامعه ، واحتملوا أهوال معاركه ، حضارة مزدهرة ، فقامت المدائن والعمائر ، وشقت الطرق وازدهرت الحدائق ، وامتلأت الأقطار بالعواصم والحواضر ، وامتلأت العواصم والحواضر ، بالمدارس والمعاهد ، وطبعت الكتب ، وتحلقت ندوات البحث والدرس ، حول الأساتذة ، وتشعبت المذاهب ، واصطرعت حولها العقول ، ودارت على جنباتها الألسنة ، وأصبح الإيمان الواحد الثابت الواضح ، الذى يلهم كل النفوس والعقول ، ويحرضها على الجهاد لهدف واحد ، عقائد تتفاوت قوة وضعفًا ، ويتفاوت أنصارها وأتباعها ، صدقًا وورعًا ، واندست فى الصفوف خصوم العقيدة الأولى ، فى أزياء لا حصر لها ولا عد . منهم من يبغى الفتنة ، ومنهم من يحس أنه وقد انتهى العمل، وقلت فرص الجهاد وثقلت على الناس أعباؤه، ومالوا إلى الراحة ، وآثروا العافية ، فعوضوا أنفسهم عن الحركة فى الواقع، بالحركة فى التصور ، والخيال ، واستنفدوا طاقتهم وصرفوها فى الجدل ، واستبدلوا بالانتصار فى معارك السيف والرمح ، الفوز فى معارك الحجة والبرهان . وإلى جانب هؤلاء وأولئك ، أذكياء نابهون يرون أن الله منحهم عقولا باهرة قادرة على الإتيان بالعجائب والخوارق ، وأقلامًا بارعة ، تملك أن تطلع الناس بالمعجب والمطرب ، وأن اكتفاء الناس بإيمانهم البسيط القوى ، ودينهم المكين والغنى ، كان يحول بينهم وبين الإفادة من هذه المواهب ، أما وقد تحلل الناس شيئاً من أسار هذا القيد ،

وطمعوا فى أن يلتمسوا لعقولهم وأذهانهم ، متعاً لم يكن لهم بها عهد ، فقد تهيأت لهم فرصة عرض ثمار هذه المواهب الكامنة ، وتلك القوى المعطلة ، فأخذوا يحاولون كل بسيط ، ويستخرجون منه الطرائف ، ويفسرون كل واضح ، ويستنبطون منه كل شارد ووارد ، ويختلفون ، ويثيرون معارك طاحنة ، وقد طاب للحاكم الغنى القوى المطمئن إلى استقرار ملكه ، وإلى إذعان الناس لحكمه ، وإلى كثرة الأرزاق بين يديه : ووفرة الأموال فى خزائنه : أن يشمل العلماء والشعراء والمفكرين والأدباء برفده ، وعطائه ، لينهبوا عنه بما يكتبون ويقولون ، المال ووداة الفراغ ، مما زاد المشاركين فى هذه المعارك ، والمتفعين من غبارها الثائر ، والصاعدين على سلالم المجد ، بفضل دويها الصاخب .

لهذا كله ، أصبح من المتعين ألا يقنع علماء العربية ، بالقول بأن القرآن معجز ، بدليل الواقع الناطق البليغ ، ووجب أن يقننوا لهذا الإعجاز منهجا ، وأن يرسوا له قواعد .

ولقد أعان على هذا كله ، أن العرب اتصلوا بحضارات غير حضارتهم فعرفوا الفرس واليونان والهنود والسريان ، وأعجب بعضهم بمنطق أرسطو ، وتلمذوا عليه وترجموه ، ونقلوا عنه ، فأدخلوا منطقه فى فنون الكلام ، وفى علوم اللغة ، وفى أصول الدين : فلم يعد ممكناً أن تقول إن القرآن معجز ، وتقف عند هذا الحد ، وإنما تعين أن تسأل — ولا أحد غيرك يسأل — لماذا كان معجزاً ، وأين موطن الإعجاز ، وهل هو موطن واحد ، أو مواطن عدة ، وأيكون هذا الموطن ألفاظه أم معانيه ، أم أنباءه ، أم ما دعى إليه ، أم ما رفع عن الناس من أنباء الغيب حجبه ، أم قدرته على إتيان الخبر الواحد بأكثر من أساليب ، أم خروجه على نظام الشعر والنثر ، والسجع والرجز ، أم أم . .

وهذا كله بسبب فتح باب البحث فى إعجاز القرآن ، مما يحتاج إلى شيء من البيان .

نقطة الابتداء . فى الحديث عن إعجاز القرآن : هو الوقوف عند أثره الأول . فى المتلقى الأول ، لأول ما نزل من آياته ، وهو خاتم النبيين ، ورسول الله رب العالمين : محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام .

ذلك أن القرآن الكريم ، أنزل ، ليبلغ به محمد صلى الله عليه وسلم . عقيدة الإسلام وأحكامه ، ليبشر به ، وينذر ، ويعلم ويهدى ، ويصلح ويقوم ، ويرشد ويسدد ، فإذا لم يفعل فى نفس هذا الرسول ، الأثر الذى لا تتم رسالة القرآن إلا به ، ولا يعم أثره إلا عن طريقه ، كان القرآن كتاباً ككل الكتب التى اكتتبها البشر ، والتى انطوت على الحكمة البالغة ، والأفكار العالية ، والمناهج العظيمة . يقرؤها أقوام ، فيعجبون بها ، ويتأثرون بما فيها ، من رأى صائب ، وحقيقة حجبها الجهل ، أو استعصت على الفهم ، ثم يتحدثون بها مع خاصتهم ، فمنهم من يلتفت إليها ، ويبذل الجهد فى تحصيل ما بها ، والانتفاع بخيرها ، ومنهم من يمضى وكأنه لم يسمع شيئاً . . ثم تنسى حتى يعود إليها ، مؤرخو الآداب ، فينفضون عنها الغبار ، ويرفعون الستار ، وينبهون الناس إلى خطرها وقيمتها ، ويدعونهم إلى تأمل نفعها وحقيقتها ، وهكذا دواليك . .

أما إذا كان المتلقى لكتاب الهداية العامة ، والرسالة الشاملة ، للناس كافة فى كل مكان ، وفى كل زمان ، قد آمن بهذا الكتاب بهذه المثابة ، وعمل به ، وله ، على هذه الصورة ، فانقلب من راع للغنم ، ومشتغل بالتجارة ، وزوج أمين ، وإنسان فذ فى مجتمعه ، خلقاً وصدقاً ، ونأياً عن الرذيلة ، ولاشىء أكثر من ذلك ، إلى داع ، يضحى بالراحة والزوجة والولد ، والمال ، وخلو البال والأهل والسند ، ثم متحد رابط الجأش ، ثابت العزم ، للمجتمع الذى يعيش فيه ، وينتهى إلى أهل القمة منه فيسفه أحلامه ، ويجرح نظامه ، ويسب آلهته ، ويكذب أديانه ، ويدعو إلى حياة جديدة فى كل شىء ، أساساً وغاية وأسلوباً

ونهجاً ، ثم لا يحفل بالصعاب تتجمع فى طريقه ، وبالآلام تطارده بالليل والنهار ، وبانصراف الناس عن سماعه ، وتكذيبهم لدعواه وشكهم فى عقله ، وسخريتهم بأمره . . فهذا هو الدليل الأول على إعجاز هذا الكتاب .

فليس الإعجاز : فى أى أثر مكتوب ، هو فى أسلوبه ، وألفاظه ، ولا فى معانيه ومبانيه ، ولا فى حلاوته ، وعذوبته ، فهذه كلها وسائل لغايات ؛ وغاية هذه الغايات ؛ هو نشر الإيمان الذى جاء به هذا الكتاب.

ولقد حفظت لنا كتب السيرة ، كيف كان وقع أول ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم من قرآن ، فى نفس محمد عليه الصلاة والسلام ، ولكن غير المؤمنين بالقرآن وبالإسلام ، قد لا يصدقون كل ما روته كتب السيرة ، من مجىء الملك إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وهو فى الغار يتحنث ، وكيف أمره هذا الملك بقوله : « اقرأ » وما أحس به ، حين شعر بأن الملك يضمه ، ثم يرسله ، ويقول له « اقرأ » فيقول محمد صلى الله عليه وسلم : ما أقرأ؟ « ثم يضمه الملك مرة أخرى ثم يرسله ويقول له (اقرأ) فيقول الرسول ، وقد خاف أن يضمه مرة ثالثة ، ماذا أقرأ . فقال : (اقرأ باسم ربك الذى خلق) .

قد لا يصدق غير المسلمين الآن ، هذه الرواية كلها ، وأغلب الظن أن كفار ومشركى العرب وغيره العرب ، ممن سمعوا بها إبان الدعوة ، قد كذبوها ، وأن هؤلاء ، وأولئك يحسبونها من تلفيقات محمد عليه الصلاة والسلام ليثبت صلته بالسماء ، وتلقيه الوحى ، واصطفاء الله تعالى إياه ، ليؤدى رسالة الإسلام إلى البشر جميعاً ، وإذا صدق بها بعضهم فلكى يتخذوها أسلوباً فى الطعن فى الإسلام ورسوله ، أبلغ فى تكذيبه ، وأبعد فى تجريحه ، إذ هم يقولون إن محمداً عليه صلوات الله ، كان به مس ، أو صرع يهيىء له من الأمور ، ما لا أصل له فى

الواقع ، وإن كان يسمعه ويراه ، ويؤمن به ، هو من وحى المرض لا من وحى الله تعالى :

ولكن الثابت الذى يسلم به كل مؤرخى الإسلام من اليهود والمسيحيين، فى القديم والحديث ، أن محمداً بن عبد الله ، كان أمياً وأنه ما كان يعرف — من قبل — ما الإيمان ولا الكتاب ، وأنه ما كان يخطه بيمينه ، وأنه واصل مع ذلك الدعوة إلى ما جاء فى هذا الكتاب ، فى وجه معارضة قاسية شرسة ، وصعاب متكاثرة لا قبل لبشر باحتمالها ، وأنه لما ضاقت قريش ، أكبر قبائل العرب ، وزعيمة عشائرهم ، أرسلت إلى عم الرسول، أبى طالب ، لتضع حداً لهذه الدعوة الجديدة التى أرقت العرب ، وأزعجتهم فعرضوا على (أبى طالب) عرضاً اجملوه بقولهم : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك، سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا، فإما أن تكفا عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه ، ولما رفض أبو طالب هذا العرض، لشدة حبه لابن أخيه ، عرضوا عليه عرضاً آخر ، يتصدع له كل عزم ، وتتهاوى أمامه كل إرادة إن لم يكن له عاصم من عقيدة قوية غاية القوة ، وإيمان عميق بالغ العمق فقد اقترحوا أن يتوجوا محمداً صلى الله عليه وسلم عليهم ملكاً إن كان طامعاً فى سلطان ، وأن يجمعوا له المال ، إن كان يبغى من وراء دعوته الثراء ، أو أن يلتمسوا له العلاج إن كان يشكو علة ، فكان رد رسول الله الكريم ، « ياعم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه » وهذه العبارة ، هى بيت القصيد ، فى كل هذه الرواية الطويلة ، فهى أثر القرآن فى نفس محمد بن عبد الله، الأمى الذى لم يكن آنذاك زعيماً فى قريش ، ولا قائداً لجنودها ، ولا حكيماً من حكمائها ، وإنما كان رجلا لم يجرب عليه الكذب ، أميناً ، لم يسمع أحد ، عن رذيلة علقت بثوبه ، أو منقصة ، اتصلت بخلقه . فإذا كان قد نحى جانباً هذا العرض ، بهذه القولة الضخمة ، وهو يعلم أن

بعدها أهوالاً يخوضها . وآلاماً مرة يتجرعها ، فليس ثمة تعليل سائغ ، ولا تفسير مقبول ، لهذه الصلابة فى الموقف ، والثبات فى المسلك ، إلا أنه استمد من القرآن قوة منحته هذه الصلابة ، وأفاءت عليه هذا الثبات . وهذا أول ما لاح من إعجاز القرآن الذى يعلو على كل ما تتصوره من أسرار ألفاظه ومعانيه . وقوة آياته ومعانيه واستعصائها على التقليد والمحاكاة ، فقد شهد التاريخ على مر حقبه ، أقواماً يتعصبون لكتب يتداولونها . مقدسة ، أو بشرية ، ويذهبون فى الإشادة بجمال نظمها ، وسمو معانيها مذاهب تبلغ العبادة . ولكن لم يرو التاريخ المحقق الثابت الذى لا تشوبه الأساطير ، أن كتاباً ، مَا فعل فى نفس بشر ، ما فعله القرآن فى نفس محمد صلى الله عليه وسلم ، العربى الأمى . فإذا انتقلنا إلى أثر القرآن فى الرجال الذين آمنوا بمحمد ، نجد أن الأثر نفسه ، أكثر وضوحاً ، وأدعى إلى الدهشة ، وأبعث على الاستغراب ، فمحمد عليه الصلاة والسلام كان يؤمن بأن ما نزل عليه وما سمعه وأذهله وأدهشه . هو قرآن من السماء ، إما لأن ذلك كان وحياً حقاً ، كما نؤمن نحن ، وإما لأن محمداً كان به من خصائص النفس والعقل ، ما يجعله يصدق أوهامه ، كما يقول خصوم محمد وخصوم الإسلام .

أما أصحاب محمد أمثال أبى بكر وعثمان وعبد الرحمن وطلحة والزبير فقد كانوا رجالا ، كسائر العرب ، أصحاء البدن والعقل ، يأخذون الحياة ، ويتناولونها ، أخذ سائر العرب وتناولهم إياها . يشتغلون بالتجارة ، ويبيعون ويشترون ، ويتزوجون النساء ، ويحلو لهم ما يحلو للعرب ، ويأنفون مما يأنف العرب ، فلم يعرف عن أحدهم أنه منهم من أسهم فى بعض ندوات مكة التى تتحدث فى الدين ، أو تتعاطى قول الشعر . فما الذى جذبهم إلى هذا الرسول الجديد ، ثم أبقاهم فى أسر دعوته ، يشقون فى سبيلها ، وينالهم الكساد فى التجارة والضيق فى الرزق ، وهجر الأهل والأحباب ، وسماع ما يؤذى ؟

فإذا قيل إنهم كانوا يعرفون عن محمد الصدق ، ويؤمنون بأنه لا يدعوهم إلى باطل، أو يتخذ من دينه الجديد سبيلا إلى الجاه أو السلطة أو المال ، وأنهم لم يتأثروا بالقرآن حينما دخلوا هذا الدين الجديد ، لأن الوحي كان فى مبدئه ، كان هذا القول صحيحاً فى جملته وتفصيله . فالقرآن لم يقرع آذانهم ، قرعه العذب الجميل ، فاستمالهم إليه ، بل استمالهم إليه شخص محمد وصدقه ولفظه وطهارة سيرته ، وثبات شخصيته التى تبعث على الاطمئنان والاحترام . ولكن هل كان هذا التصديق والحب والإعجاب وحدها كافية لأن تثبتهم على الدين الجديد ، بعد أن اشتدت المعارضة ، وحمى وطيس الصراع من قريش وسائر العرب من جهة ، وبين محمد وأصحابه من جهة أخرى لا ، فالذى ثبتهم ، وجمع كلمتهم وملأ قلوبهم أملا فى نجاح الدعوة ، ونصر الله إياهم ، وتأييده لهم ، هو القرآن .

وبين أيدينا نصوص ترينا ، أثر القرآن ، فى أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم فى صدر الإسلام وأسلوبهم فى مدارسته ، وإدمان قراءته ، ومداومة حفظه ، فى تأن وصبر ، فقد روى القرطبى فى كتابه (جامع بيان العلم) عن قرظه بن كعب قال : خرجنا نريد العراق فمشى معنا عمر إلى « حرار » فتوضأ فصلى اثنتين ثم قال: أتدرون لم مشيت معكم؟ قالوا : نعم : نحن أصحاب رسول الله مشيت معنا فقال : إنكم تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل ، فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم .

ويهمنا من هذا النص ، قول عمر رضى الله عنه « لهم دوى بالقرآن كدوى النحل » وجاء فى فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين : ولم يكن شائعاً فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم حفظ القرآن جميعه كما شاع بعد ، إنما كانوا يحفظون السورة أو جملة آيات ويتفهمون معانيها ، فإذا حذقوا ذلك انتقلوا إلى غيرها ، فكان حفظ القرآن موزعاً على الصحابة ، قال

أبو عبد الرحمن السلمى : حدثنا الذين يقرءون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى صلى الله عليه وسلم آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل . وقال أنس :

كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران فى بيننا (رواه أحمد فى مسند) وأقام ابن عمر على حفظ البقرة ثمانى سنين ، ذلك أنه إنما كان يحفظ ولا ينتقل من آية إلى آية حتى يفهم .

والثابت أن القرآن كان شغل المسلمين الأوائل الشاغل ،وأنهم كانوا يصرفون من الليل غير القليل من ساعاته يقرءونه ويرتلونه ، التماساً للبركة ، وتفهماً لمعانيه وتحرياً لأحكامه ، فقد كانوا يتحرون الحلال والحرام فى كل صغيرة وكبيرة من شئون حياتهم فى دورهم وفى أعمالهم ، وفيما لهم من حقوق ، وما عليهم من واجبات ، وكان القرآن هو دليلهم الهادى فى كل ذلك .

ولم تفعل أمة من الأمم فى الشرق كالهند والصين ،أو الأمم فى الغرب كالإنجليز أو الألمان أو الطليان ، ما فعله العرب ، بعد أن أنزل إليهم القرآن ، فقد كانت لهذه الأمم كتب مقدسة ، يستلهمونها ، وتكيف أسلوب حياتهم ، وتشكل معاملاتهم وعلاقاتهم ، ولكن لم تعرف أمة ، استحال كتابها المقدس جزءاً من حياتهم اليومية ، لا عند الصلاة والتعبد فقط ، ولا فى المناسبات الدينية الكبيرة والصغيرة ، فحسب ، بل عند تناول اللقمة أو السير خطوة ، أو توجيه التحية ، أو عقد العقد ، أو استقبال الوليد ، أو دفن الفقيد ، بل فى كل خاطرة تسنح للنفس ، وفى كل فكرة تطرأ على العقل ، كما استحال القرآن فى حياة العرب المسلمين .

وهذا هو الإعجاز بأعلى مراتبه

على أن هؤلاء الذين أصبح القرآن ، مرشدهم ودليلهم فى شئون الدنيا ، وفى أمور الدين ، والذين رتلوا القرآن واستعذبوه ، والذين حفظوا القرآن وجودوه ؛ والذين درسوا القرآن وتفهموه ، والذين تعلموا القرآن وعلموه . أصابهم تغير لم يسمع به التاريخ فى قديم أو حديث ، لا فى الشرق أو الغرب ، فإن الأمة التى لم يكن عدد الذين يحسنون القراءة والكتابة فيها إلا قلة يعد أفرادها على أصابع اليدين على الأكثر ، والتى كانت هذه القلة منها ، لا يعدو علمها ، علم صبى فى مدرسة من مدارس الأمم المتحضرة فى مراحل التعليم الأولى ، هذه الأمة قفزت فى ثلاث وعشرين سنة — وهى عمر شاب صغير — من التعلم والتهجى والابتداء ، إلى تعليم نفسها ، فتعليم غيرها ، فنشر التعليم فى الدنيا ، فإقامة دولة فسيحة مترامية الآفاق ، شملت العالم المغمور فى ذلك العهد ومهدت لحضارة وثقافة وعلم ، جاء بفضلها ، وسار على هديها ، واستضاء بنورها ، فكان أعجب وأعظم وأوسع علم عرفته الإنسانية منذ ولدت على سطح هذا الكوكب .

وهذا شيء يتجاوز الإعجاز .

يتجاوز الإعجاز حقًّا وصدقاً .

ذلك لأننا نعنى بلفظ الإعجاز ، فى خصوص القرآن الكريم ، هو ما إذا كانت السورة من القرآن فى مقدور أبلغ وأفصح الكتاب والقائلين من الناطقين بالعربية الإتيان بمثلها ، أم أن ذلك فوق طاقة البشر ، فالمقارنة محصورة فى ألفاظ وجمل عربية ، مما يتيح للمكابرين ، والمتعصبين ضد القرآن والإسلام ، أن يزعم أن ما أتى به الغير فى محاكاة القرآن ، فى مثل جمال نظم القرآن وروعة معانيه ، أو أعظم من ذلك النظم وأروع . أما هذا الذى حدث من أمة القرآن فى صدر حياتها ، وبعد أقل القليل

من الزمن . مما يقل بكثير عن عمر فرد واحد فى جيل واحد . فلا قبل لكتاب من الكتب : بتحقيقه . إنه لم يتحقق قبل القرآن ، ولا فى عهده . ولم يتحقق شىء مثله إلى الآن .

وقد تصورنا أن إعجاز القرآن : مقصور على لفظه ومعناه : كأنه كتاب ككل الكتب يتكون من لفظ ومعنى . وأغفلنا تماماً : ما وراء اللفظ والمعنى ، التى تراها فى كل كتاب من كتب الناس . العقيدة التى يدعو إليها . والتى لا تجدها فى آية منه بذاتها ، ولا فى سورة بعينها ، لأنها تسرى فى كل آياته وكل سورة . وتتساند بعضها مع بعض : لتخلق هذا البناء الشامل ، الذى لا يدع من حياة الناس : صغيرة ولا كبيرة ، حتى هجسات النفوس : ووساوس القلوب ، إلا أحصاها : وكشف أثرها : وأعلن سرها (ما لهذا الكتاب ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) ، مع أن الله تعالى وصف القرآن الكريم بقوله : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) الشورى . (نزل به الروح الأمين على قلبك ، لتكون من المنذرين) الشعراء (يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق) (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده) فإذا كانت الروح من أمر الله : وكان القرآن ، روحاً من أمره تعالى ، فمن المستحيل أن ينحل إلى لفظ ومعنى ، وسورة وآية ، وأن يناقش ما فيه مناقشة غيره من الكتب ، لأنه مهما سما ككتاب يقرأ ، ويفهم ، ويدرس ، ويلقن . وتستخرج منه الأحكام : وتستنبط قواعد الدين ، ويستعذب وقعه فى السمع ، وتحسن دراسة ألفاظه ، بل يجب التفقه فى أسلوبه ، وبناء الكلمة فيه ، وبناء الجملة من كلماته ، وإلا انعدمت قيمته التى اتجهت مشيئة الله إلى نفع الناس بها : وهدايتهم عن طريقها . ولكن لابد بعد ذلك . أن نبحث عن سر القرآن فى أثره فى نفس الذى نزل على قلبه ، وعلى الذين أصطفاهم الله من الرجال والنساء لإقامة أحكامه ، ونشر الدين الذى بشر به ، وحماية العقيدة التى انطوى عليها . وجاء من أجلها . فهنا موطن

الإعجاز الحقيقى ، الذى لا يستطيع المكابر ، أن ينكره ولا يملك المعاند إلا أن يقر به ويعلنه .

وقد نجم عن الحديث فى القرآن ، للكتاب ، وتحليله إلى معان ومعايير أن جرؤ أقوام على الجهر بآراء ، تكاد تكون الكفر بعينه ، مثل ما ذهب إليه الجعد بن درهم من أن فصاحته غير معجزة ، وأن الناس يقدرون على مثلها وعلى أحسن منها « إعجاز القرآن : للرافعى ص ١٦١ » ثم قال إبراهيم النظام وهو من رءوس المعتزلة إن إعجاز القرآن كان بالصرفة ، أى أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليه ، فكان هذا الصرف خارقاً للعادة . وقال المرتضى من الشيعة إن معنى الصرفة أن الله سلب الناس العلوم التى يحتاج إليها فى المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن .

وقد أغضب القول بالصرفة على أية صورة سبق ، أهل السنة غضباً شديداً ، لحص (النظام) فى كل كتاب تناول إعجاز القرآن وأسراره ودلائله ، واعتبر أن هذا القول قريب من الشرك . ونحن وإن لم نقل بالصرفة ولا بشىء آخر مما قيل فى إعجاز القرآن ، مما أوردناه ، فنحن لا نرى هذا القول ، جديراً بكل هذا الغضب ، واللعن ، لأن غاية قائله أن يثبت أن القرآن من عند الله ، وأنه يحميه من المحاكاة والتقليد ، والغاية — أصلا — من بحث إعجاز القرآن تثبيت الإيمان به ، وتأكيد أنه من وحى العلى القدير ، ليؤمن الناس بالدعوة التى جاء بها ، والله يختار لحماية رسله ، وكتبه ، ما يخطر على بال عباده ، وما لم يخطر . وقد قال الله تعالى فى سورة التوبة (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم) .

وقد قاد هذا المنهج ، الذى لا يتفق أصلا مع ما جاء فى كتاب الله العزيز ، مما سنورد بعضه الآن ، أن ساق بعض المتكلمين فى هذا الباب ، أى فى إعجاز القرآن الكريم ، شواهد على الإعجاز لا تليق بكتاب من وضع أحد من كتاب البشر ، من ذلك ، الشاهد الذى نراه فى كثير

من الكتب الموضوعة فى الإعجاز ، وخلاصته أن الأصمعى سمع بدوية تتغنى ببيت من الشعر الجيد ، أعجبه ، فأثنى على بلاغتها فقالت أين هذا من بلاغة الآية التى جمعت أمرين ونهيين وبشرايين ، فقد قال الله تعالى موجهاً خطابه إلى أم موسى (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه ، فألقيه فى اليم ، ولا تخافى ولا تحزنى ، إنا رادوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين) .

فأرضعيه وألقيه أمران ، ولا تخافى ولا تحزنى نهيان ، رادوه إليك البشرى الأولى وجاعلوه من المرسلين البشرى الثانية ، فأعجب أن يكون هذا دليلا على بلاغة القرآن وبالتالى على إعجازه ، ومن ثم فهو من عند رب العالمين .

وقد سمعت عالماً ، يسوق لسامعيه الدليل وراء الدليل على إعجاز القرآن ، وإنى مورد هنا ما علق بالذهن من هذه الدلائل لترى معى ، أتصلح شاهداً على إعجاز كتاب الله العظيم .

فما قيل فى هذا الباب ، إن الله تعالى تحدث عن الأولاد ورزقهم فى موضعين فقال فى الموضع الأول : (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم) الأنعام وقال فى الموضع الثانى (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم) الإسراء. وواضح من مقارنة الآيتين أن الأولى تتحدث عن قوم فقراء ، يعولون أولاداً كثيرين ، فالله تعالى ينهاهم عن أن يقتلوا أولادهم الذين يعيشون معهم ، لأن الله سيرزق الآباء وسيرزق الأبناء، وفى الموضع الثانى يتحدث عن حالة عائلة ، تخشى الفقر ، إذا أرسل لها أولاداً ، ومن هنا ، بدأ بالحديث برزق الأولاد ، ليطمئن آباءهم أنهم إذا جاءوا فسيجيئون بأرزاقهم معهم . وهذا التباين بين بناء الآيتين دليل إعجاز عند من أشار إلى ذلك .

ولكن من الواضح أن مقتضى الحال ، فى الآية الأولى يحتم تقديم الآباء فيها على الأبناء ، فى حين يحتم فى الآية الثانية تقديم الأبناء على

الآباء ، وأن التباين بين الحالتين ، واضح ، لا تخطئه عين مجرد الكاتب من الناس ، فتصور أن الالتفات إليه من الله تعالى ليس إعجازاً ، ولا يمت إلى الإعجاز بشيء . وإن القول بأنه من دلائل الإعجاز هبوط بمقام القرآن إلى مستوى لا يليق .

والمثل الثاني ما جاء في سورة الكهف ، عند الحديث عن أهل الكهف وهم يلجأون إليه ويختفون فيه ، في الآية الحادية عشرة (فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً) . بعد قوله تعالى : (إذ أوى الفتية إلى الكهف) فقد رؤى في قوله تبارك وتعالى : (فضربنا على آذانهم) شهداً على إعجاز كتابه الكريم ، إذ ما دام الفتية قد أغمضوا أعينهمليناموا ، فلم يبق من حواسهم التي يمكن أن يأتيهم منها ، ما يوقظهم إلا حاسة السمع فإذا كان القرآن الكريم قد التفت إلى هذه الحقيقة فقال فضربنا على آذانهم فهو كتاب معجز. وأعجب لفتية أنامهم الله بأمره سنين عدداً ، ليفيقوا من نومهم في الأجل المضروب ، ويحتاجوا إلى ما يقيهم من أثر الأصوات التي تعكر هذا النوم ، وأن النص على ذلك ، يفوت على غير الله سبحانه وتعالى .

الشاهد الرابع لام التأكيد، التي تدخل على عبارة (من عزم الأمور) في موضع ، ولا تدخل عليها في موضع آخر ، فني سورة لقمان (يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور) وفي سورة الشورى (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) في الموضع الأول الإصابة من الله ، فليس في وسع الإنسان أن يثأر لنفسه ، فلا يحتاج المرء إلا لمجرد العزم ، أما الإصابة في الموضع الثاني ، فمن البشر ، فني وسع الإنسان أن ينتقم ، ومن ثم ، فإن مزيداً من العزم مطلوب ، ومن هنا دخلت اللام على (من) وأصبحت (لمن) تأكيد للحاجة إلى العزم على الصبر. وأحسب أن استعمال أدوات التأكيد شيء مبذول للكافة ، يستعملها الكاتب ، حينما يريد تأكيد ما يدعو

إليه وينصح به .

وسمعت من متكلم آخر يسوق لفظ (اثاقلتم) الوارد فى سورة التوبة مخففاً من أصله (تثاقلتم) وقد ظن أن معنى اثاقلتم أقوى فى بيان حالة التلكؤ والتردد فى المضى إلى القتال عن لفظ « تثاقلتم » فى حين أنهما يحملان المعنى نفسه ، فى أن هذا التخفيف ، قصد به تيسير النطق ، دون المساس بالمعنى .

وهذا كله ، مرده تصور أن إعجاز القرآن ، مقصور على لفظه ومعناه ، وأن مجال البحث فى موضع الإعجاز ، هو عقد المقارنة بين ما قاله تعالى فى كتابه الكريم ، وما يمكن أن يقوله بلغاء القراء والكتاب ، وأنا زعيم بأن إعجاز القرآن أكبر من هذا ، وأن الله تعالى حينما وصف كتابه ، وبين للناس ، ما أنزل إليهم من أجله ، لم يشر إلى صياغته وبنائه ، ولكن قال عز وتبارك ما سنورد لك ، بعضه فيما يلى :

(ذلك الكتاب لا ريب فيه) البقرة (ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق) البقرة(نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه) آل عمران (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه) (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة) (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) (تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق) (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه) (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء وهدى ورحمة) .(كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته) (كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون) . (الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان) .

قال الله تعالى عن القرآن (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى

للناس) (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين) (ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا) (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) (ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر) (وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث)(وكذلك أنزلناه قرآناً عربيا وصرفنا فيه من الوعيد) طه (قرآناً عربياً غير ذى عوج لعلهم يتقون) (ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته) (وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى) (إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) .

فالقرآن سواء ذكر باسمه أو ذكر باسم (الكتاب)، هو للبداية ؛ لينذر به الرسول ، الناس ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، ليكون شفاء ، وليكون هدى ، وليكون رحمة ، وقد أنزل على رسول الله ، ليبين للناس ما اختلفوا فيه ، وليذكرهم بما جاء فيه. وأقصى ما قيل عن القرآن مما قد يتصل ببنائه وسياقه ، إنه كتاب غير ذى عوج ، وإن آياته فصلت وإنه قرآن عربى ، ولكن هذه الأوصاف أكثر اتصالا بما جاء فيه من الهداية والتبشير ، وبأنه لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وإن الله لم يفرط فيه فى ذكر شىء ، يجب أن يذكر للناس ؛ لتتم هدايتهم ، وليكمل دينهم .

ولقد بين القرآن الكريم ، موقف المشركين والكفار من هذا القرآن الكريم ؛ نورد فيه عشرات من الآيات ، تظهر انصرافهم عنه ، وكفرهم به ، وسخريتهم بالرسول الذى دعاهم إليه ، ورميه بكل عيب ، فهو مفتر ، ومجنون وشاعر وكاذب ، حاشاه صلى الله عليه وسلم .

ويمكن تقسيم آيات التكذيب للقرآن إلى ثلاث طوائف .

طائفة ، تصف صدود المشركين من الكفار ، وإعلانهم الكفر به ؛ وطلبهم إما أن يأتى رسول الله ، بغيره ، أو يبدله ، أو ينزل عليه جملة ،

أو دعوتهم الناس ألا يسمعوه .

وطائفة تتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه افترى هذا القرآن ، فهو غير منزل من السماء .

وطائفة ، تقول عن هذا القرآن إنه أساطير وسحر .

فمن الطائفة الأولى قوله تعالى :

(قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله) ؟ (ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم إلا نفوراً) (وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ، ولوا على أدبارهم نفورا) (وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا) (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) الفرقان (وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه) (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن) .

ومن الطائفة الثانية :

(إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين) (أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك) (افترى على الله كذباً أم به جنة) (بل قالوا أضعاث أحلام بل افتراء بل هو شاعر) (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه) .

ومن الطائفة الثالثة :

(وقالوا ما هذا إلا سحر مفترى) القصص (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين) يونس (ليقولن الذين كفروا إن هذا سحر مبين) (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين) .

فإذا كان هذا هو موقف المشركين من القرآن :

نفوراً منه ، وصدوداً عنه ، وكفراً به ، وإذا كانوا قد أعلنوا — كما جاء فى القرآن الكريم أنه حديث مفترى ، وأن محمد بن عبد الله ، هو الذى صنعه ، وأنه أساطير تملى عليه ، فاكتتبها ، وأن الذى لقنه إياه أعجمى فما الذى جعل هذا الكتاب ذاته كتابهم ، وما الذى نقلهم من معسكر

الشرك إلى معسكر الإيمان ، ومن الإضراب عن سماع القرآن إلى حفظه عن ظهر قلب ، وترتيله ، والسهر على تفهمه وتذوقه والوقوف على أحكامه واستنباط القواعد منه ، والاهتداء بها ، ودعوة الناس إليها ، والجهاد فى سبيلها .

إنه القرآن نفسه !

ولكن كيف ؟ هذا هو موطن إعجاز القرآن .

فكيف صنعت معجزة القرآن ، من العرب الأميين ، المتفرقين المتباعدين ، الموزعين فى أنحاء الجزيرة العربية وأعطافها ، والذين لاتضمهم وحدة ، ولا تظلهم حكومة أمة واحدة .

ومضت سنة الله في خلقه (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) ، فلابد من قلة مؤمنة ، تجاهد فى سبيل الدين الجديد ، وتشقى ، وتبذل الحياة ، وتهجر أسباب الراحة وتتشرد فى فجاج الأرض ، ويتأخر عنها النصر ، وتتوالى عليها الهزائم ، حتى يأتى الله بأمره ، ويأذن للمغلوبين أن ينتصروا ، وللضعفاء أن يرثوا الأرض ، ليقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، ويأمروا بالمعروف ، وينهوا عن المنكر ويتواصوا بالحق ويتواصوا بالصبر : (الذين إن مكناهم فى الأرض ، أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) الحج .

فمعجزة القرآن ، تحققت حينما استطاعت عصبة من الرجال الفقراء ، أكثرهم شبان ، أن تستلهم من هذا الكتاب القوة ، وأن تواصل جهودها ، حتى أصبحت كلمة الله هى العليا ، وكلمة الضلال والجهل والعصبية ، هى السفلى ، وخرج من صفوفهم القادة والخلفاء ، والأئمة والعلماء ، وأشرقت أرض الجزيرة العربية القاحلة المجدبة بنور ربها .

وقد كان لهؤلاء الرجال ، رفيق لا يتركونه ، ولا يتركهم ، وصاحب لا يملونه ولايملهم ، وإمام لا يغيب عن أعينهم ، ولا ينأى عن ضمائرهم ، ذلك هو القرآن ، إذا قرءوه وهم الأشداء الأقوياء تتحدر دموعهم على

الوجنات . وتخشع قلوبهم . لا تأثراً بلفظ القرآن . وإنما بوعده ووعيده . طمعاً فى جنته فى الدنيا وفى الآخرة . وخوفاً من جحيمه فى الحياة وبعد الموت . فإذا أردنا أن نحقق معجزة القرآن من جديد ؛ فلنتحدث عن جانب من إعجازه . انفتحت عنه عقولنا ؛ وهو الجانب الذى لا يحتمل جدلا . ولا يتسع لمناقشة . ذلك هو أثره الملموس باليد . المرئى بالعين ، فى بعث الأمة من رقادها . حينما تتأسى به . وتهتدى .

فهرس

للمؤلف

من مطبوعات دار المعارف

من مسلسلة اقرأ :

١ ــ أخي المواطن العدد ١٤٨

٢ ــ هذا الشرق العربي العدد ١٧٥

٣ ــ مومس تؤلف كتاباً العدد ٣٣٩

٤ ــ الإسلام ومشكلات الفكر العدد ٣٧٧

٥ ــ مصطفى كامل العدد ٣٩٠

وله أيضاً :

٦ ــ دموع إبليس : مسرحية من أربعة فصول (طبعة ثانية)

٧ ــ مع الإنسان في الحرب والسلام : دراسة تاريخية وسياسية

٨ ــ إله رغم أنفه : خمس مسرحيات من ذوات الفصل الواحد

٩ ــ خط العتبة : قصة طفل مصري

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٥/٥٤٣٠

مطابع دار المعارف بمصر — ١٩٧٥
١/٧٥/٢٩٦

